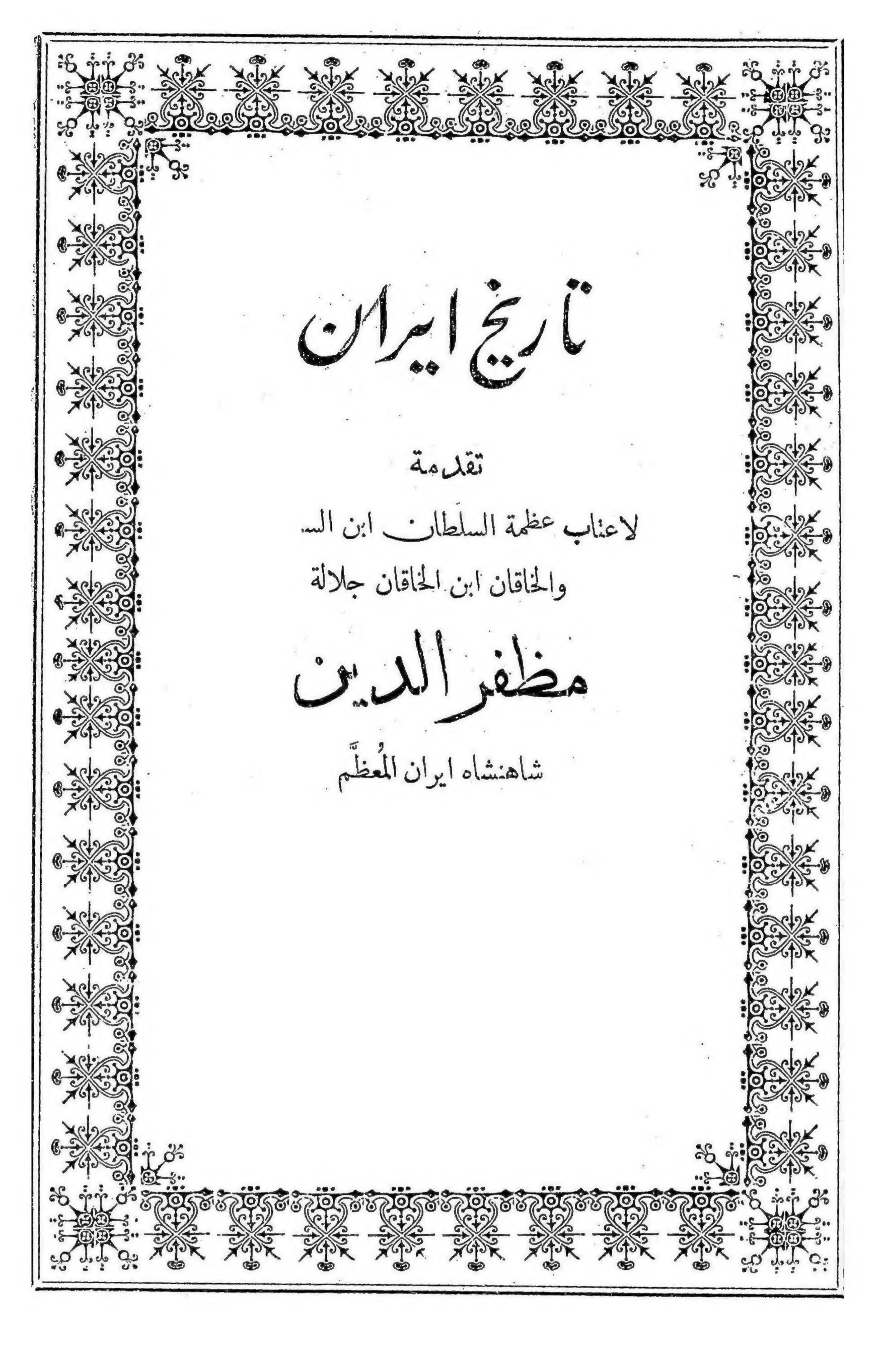


تاريخ ايران

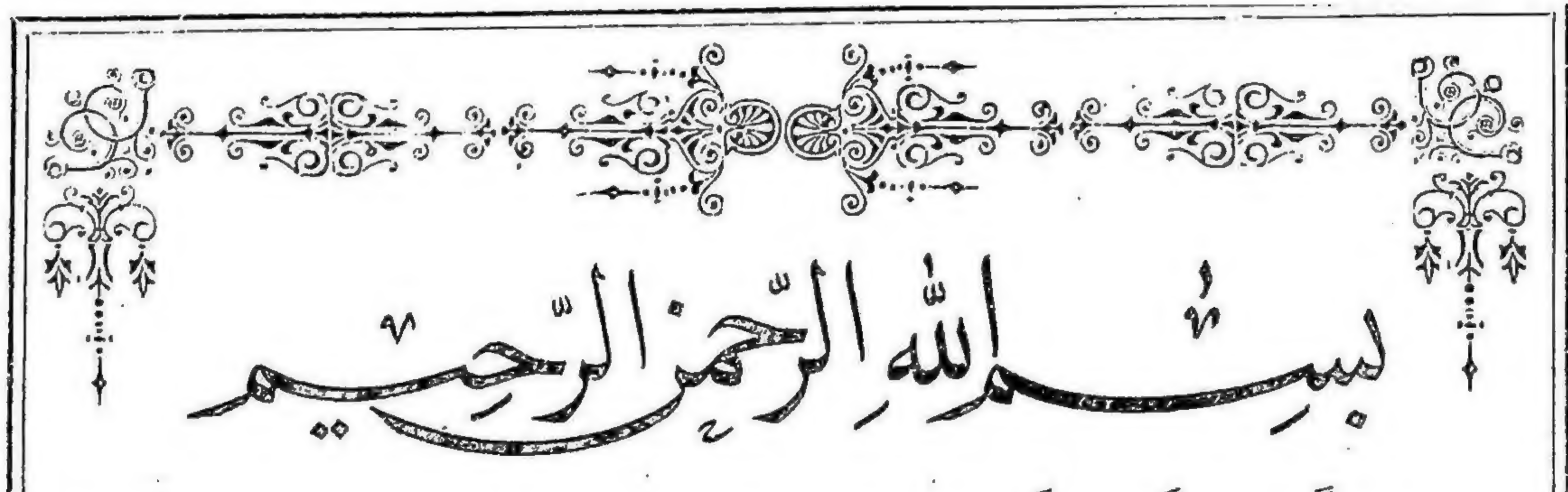
تقدمة

لاعتاب عظمة السلطان ابن السـ

والخاقان ابن الخاقان جلالة

مظفر الدين

شاهنشاه ايران المُعظَّم



محمدلاً مصلولاً محوقلاً   اللهمَّ لا حطة بل غبطة

امَّا بعدُ فلما كانت الممالك الايرانيَّة من ابعد الدول عهداً واقدمها ذكراً واوسعها ظلاًّ وعمراناً وامنعها عزةً وسلطاناً وقد تقلَّبت عليها الاحوال ازماناً ولم يدوَّن لها في اللغة العربيَّة تاريخٌ خاصٌّ يستنيرُ بهِ قرَّاؤُها ويسفر عمَّا كانت عليهِ في العصور الخوالي رأيت مع ما بي من العجز والتقصير ان اضع كتاباً في هذا الشان وشاورت جناب قنصل جنرال دولة ايران العليَّة ووكيلها السياسي بالقطر المصري في ما عزمت عليهِ فنشطني الى العمل واستأذن جلالة ساكن الجنان ناصر الدين شاه فاذن في ذلك وتفضل عليَّ بارسال رسمهِ الكريم ورسم عظمة نجلهِ الذي كان وليًّا للعهد لازيّن بهما صدر الكتاب فباشرتُ بتأليفهِ واستعنتُ على ذلك بجماعةٍ من الافاضل العارفين فلما انتهى على ما يرام بادرت الى طبعهِ وجعلتهُ تقدمةً لاعتاب عظمة مولاي السلطان ابن السلطان والخاقان ابن الخاقان جلالة

مظفر الدين

شاهنشاه ايران المُعظَّم خلد الله ملكهُ مدى الاعوام وحفظ وزراءهُ الفخام ورجال دولتهِ الكرام ما ذرَّ شارق ولاح بارق . هذا ورجائي من المطَّلعين عليهِ ان يسبلوا ذيل المعذرة على ما فيهِ من الخطاِ والغلط لان العصمة للهِ وحدهُ فقط وعساهُ ان يفي بالغاية المقصودة من وضعهِ و بالله التوفيق في كل الاحوال

وقد رفعت الى جلالتهِ مع الكتاب القصيدة الآتية

لاعتاب جلالة ✻ مظفَّر الدين ✻ شاهنشاه المعظم

خلد الله ملكهُ

عِديني فانَّ الوعدَ بالوصلِ يكفيني — وانَّ وفاءَ الوعد من واجب الدّين

ولا تبخلي بالوصلِ فالوصل فرجتي — وكربي بين الضاد بالقرب والنونِ

ولا تسمعي قولَ العذولِ فطالما — تمنى بانواع الوشـاية يرميني

فاني لذيّاك الذي تخذَ الوفا — شعارًا فلا ملهٍ عن الحب يلهيني

وما زلتُ ظمآنًا لقربكِ طامعًا — بيومٍ بهِ رشف المباسم يرويني

اموتُ واحيا بين طرفيكِ واللمى — فهجركِ يرديني ووصالكِ يحييني

حريصًا على عشق الجمال وانما — غرامي بحسنِ الخُلْقِ لاحُسْنِ تكوينِ

تجا[illegible] وجداني ولستُ بجاهلِ — تجاهلكِ الحالي بأجمل تلوينِ

ألا [illegible]اسمحي عطفًا عليَّ بنظرةٍ — عساها لأوصاب الصبابة تُنسيني

[illegible] تجرحي بالهجر قلبَ متيَّمٍ — كئيبٍ ولوعٍ بالمحاسنِ مفتونِ

[illegible]ذتُ وشاحًا حلة السقمِ والضنى — واصبحَ يضنيني الغرامُ فيرديني

ألا من طبيبٍ ارتجيهِ لعلتي — ونارُ الهوى بينَ الجوانحِ تكويني

اجل راحةُ الارواحِ مدحُ ✻مظفرٍ✻ — سليل العلى عن ذي العلى ناصرِ الدينِ

مآثرهُ عزّت عن الحصر لا ترى — لهُ شبهًا في المجدِ بين السلاطينِ

فقد قمعَ الظلمَ الغشومَ من الورى — بسيفٍ لهُ في نصرة الحقِّ مسنونِ

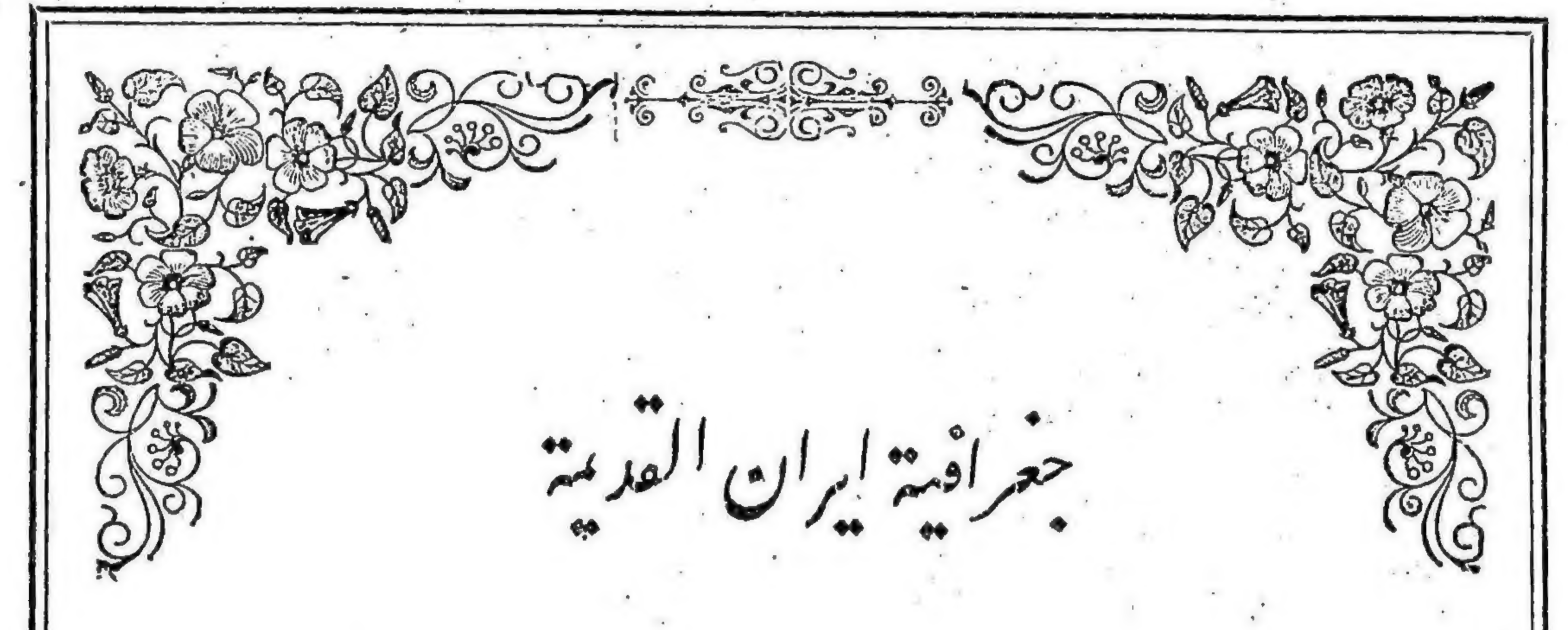
وحلَّ برأيٍ صائبٍ كلَّ معضلٍ — تئنُّ لهُ ايرانُ انَّةَ محزونِ

فطهّرها من كلِّ طاغٍ وطامعٍ — وألبسها بالعدل اثواب تزيينِ

غدت جنَّةً تزهو ويثمرُ عدلهُ — بها للورى السامي المراتبِ والدونِ

تحلّى باخلاقٍ حسانٍ وهمّةٍ ابانت سنا اصلٍ سما اي تبيينِ
وساسَ عبادَ الله بالعدل والتقى وفي ظلهِ فازوا باكملِ تأمينِ
واصبحَ بنيانُ العلومِ مشيّدًا بهمتهِ العليا على اسّ تمكينِ
وفي مطلعِ الاقبال قد عقدت لهُ ثريّا الاماني عقد شكرٍ وتحسينِ
محبتهُ من كل قلبٍ تمكنت وسامي سجاياهُ الى المدح يهديني
فبدرُ محيّاهُ على الكونِ مشرقٌ بنورٍ بهيٍّ بالسعادة مقرونِ
أمولايَ هل فوق البسيطة سيّدٌ يضاهيك بالاقدام والحلمِ واللينِ
لايرانَ والايامِ يوم جلوسكم بشائر جاءتها على فم جبرينِ
كأنَّ اسمك الموضوع للحقّ والهدى اجلُّ نظامٍ في نوادي الدواوينِ
تزيد بكم ايران عزًّا وسؤددًا يلقّن عنهُ مجدكم ايَّ تلقينِ
اقمتَ بناءَ الملك بالحزم والنهى وعزّزتَ في الدنيا الحماية [illegible]ينِ
فللهِ فيكم يا أجلَّ مظفّرٍ خصائص سرٍّ بالكرامة مكـ[illegible]
وجارك من كيد الزمانِ ممنّعٌ بحرزٍ حريزٍ في ظلالك مأمو[illegible]
لاعتابك العليا اقدم خدمةً كتابيَ فاقبلهُ وذلك يكفيني
وشرّفهُ بالانظارِ جودًا ومنّةً فانظارك الحسنى عن الغير تغنيني
لخدمةُ ايرانَ السعيدة مقصدي وذا شرفٌ ان نلتهُ من يضاهيني
فجد كرمًا واشمل كتابي بحلمكم فحلمك من اسقام عجزيَ يشفيني
فلا زال بين الناس بدرك ساطعًا وروضك زاكٍ فوق نفح الرياحينِ
ولا زلت في ثوب السعادةِ رافلاً بعمرٍ طويلٍ من إلهك مضمونِ

عبدكم
شاهين مكاريوس



جغرافية ايران القديمة

ايران بلاد قديمة في تمدنها وتاريخها يغلب عليها اليوم بين كتّاب الافرنج اسم فارس مع ان اسمها ايران من أقدم الازمان واما فارس او فُرْس فاسم ولاية من ولاياتها الاولى وسيجيء الكلام عليها . ويسميها العرب بلاد العجم من جمشيد مؤسس الدولة العجميَّة ويعرف عند الافرنج باسم اشمينس

وكانت هذه السلطنة في ايام عزها السابق واسعة الاطراف يحدها من الشمال بحر الخزر وجبال قاف ومن الشرق نهر جيجون (اوكسوس) وحدود الهند ومن الجنوب خليج العجم وخليج عمان ومن الغرب نهر الفرات . غير ان حدودها تغيرت مرارًا وتكرارًا بتغير الدول عليها فاتسعت وضاقت على ما يجيء عند ذكر الملوك واعمالهم حتى صارت الى حالتها الحاضرة . ولما كان وصفها الجغرافي الحالي ممَّا يحتاج الى الشرح الطويل فسنفرد لهُ بابًا خاصًّا بعد الفراغ من الكلام عن التاريخ القديم

وصفها الجيولوجي

وهذا ايضًا يفيد فائدة كبرى في التاريخ اذ يبين للقارىء علاقة الارض بسكانها وتأثير الظواهر والاوضاع الطبيعيَّة في اهل البلاد . وخلاصة ما يقال في صفات ايران الجيولوجيَّة ان المعلوم عنها قليل بالنسبة الى غيرها من

البلدان لان سفر العلماء متعذر فيها . ومما يقال فيها بالاجمال ان هذه البلاد مجموع هضاب وبطاح او هي ربوة واحدة كثيرة الشعب والسهول . والظاهر ان هضبة اذربايجان بركانيَّة الاصل وتأثير النار وآثار البراكين ظاهرة في اماكن عديدة من ولاية البرز . والزلازل قليلة في بلاد ايران ما خلا بعض جهاتها مثل اراضي كيلان ومازندران حيث يكثر الارتجاج والاهتزاز وكذلك ما حول جبل طورس حدث فيهِ سنة ١٧٢١ ارتجاج هائل وخسف عظيم لم يسمع بمثلهِ في التاريخ الحديث . وفي اسك من ولاية مازندران الى جنوبي جبل دماوند ينابيع ماء حار معدني . واكثر جبالها مركبة من حجارة كلسيَّة وفي بعضها حجارة سمراء سماقيَّة اللون يدخلها شيءٌ من الكبريت والكوارتز . واما تربة الصحراء الملحيَّة فمعظمها طفل صلب تعلوهُ طبقة من الملح يبلغ سمكها في بعض المواضع قيراط او يزيد وفي بلاد ايران جزءٌ عظيم من هذه الصحاري وتكثر الصحاري الملحة بينها ولبعضها منظر يبهر النظر وفيها بحيرات تشبه الَّتي اكتشفها الباحثون في صحاري افريقيا او هي اكبر منها حجماً منها بحيرة الدرة تزيد مساحتها عن ١٤٠ فرسخاً مربعاً ويصب فيها نهر هندمند الشهير وطولهُ ١٥٠ فرسخاً . وفي بلاد ايران ما يزيد على ثلثين بحيرة راكدة منها كثير في جبال اذربايجان العالية . والظاهر ان معظمها كان يغمرهُ الماء وليس فيها اليوم نهر كبير يصلح للملاحة . واما ارضها فيدخلها انواع شتى من المعادن مثل الحديد والرصاص والنحاس والكبريت والانتيمون وفيها الرخام المشهور والفحم الحجري . ويكثر فيها الفيروز وبعض الحجارة الكريمة وللخليج العجم شهرة في ما يخرج منهُ من اللؤلوء النضيد وفي الخزائن الايرانيَّة اكبر لآلئ الارض واثمنها

هواؤُها

وهواءُ هذه البلاد كثير التقلب لا يثبت على حال فيكثر الحر الشديد في بعض انحائها ويشتد البرد القارس في البعض الآخر منها حتَّى اشتهر بين الاقدمين عن ابن احد ملوكها الاولين انهُ قال ان في بلاد ابيهِ من يذيبهُ الحر وفيها من يجمدهُ البرد . ولذلك تكثر في هذه البلاد امراض العيون والاستسقاء والم المفاصل . وسقوط المطر قليل في معظم الانحاء ومع هذا فالخصب فيها كثير في الهضاب والبطاح الكثيرة المشهورة عن هذه البلاد نخص منها بالذكر بلاد اذربايجان وهي مادي القديمة واحسن مدائنها في فصل الصيف اصفهان واحسنها هواءً بوجه الاجمال همدان وشيراز ومن احسنها في فصل الخريف طهران عاصمة الملك ولاكابرها ولعٌ بالتنقل وتغيير المقام بتغير الفصول فيقطنون الجبال والمدائن الشماليَّة في الصيف ويرحلون الى الجنوب والاودية الحارة مدة البرد والشتاء وكانت هذه عادتهم في اوائل عهدهم ايضاً . وسيأتي الكلام على زراعة هذه البلاد ومتاجرها وغير ذلك في حينهِ غير انهُ يقال بوجه الاجمال ان في بلاد ايران ثلثة اقاليم اولها سواحل بحر الخزر يشتد الحر فيها ويطول لانخفاضها كثيرًا عن سطح البحر . وثانيها الربوة الوسطى وهي الَّتي يصل فيها الهجير والبرد الى نهايتهما في الشدة تهب فيها الرياح الحارة مدة الصيف ويعلو قمم جبالها الثلج مدة الشتاء فيشتد البلاءُ على الساكنين . وثالثها انحاء خليج فارس وتكثر فيها الرياح الحارة السامة . وقد قال اسطرابونيس المؤرخ اليوناني ان اهل سوس لا يمكنهم الخروج من بيوتهم وقت الظهيرة او يموتون في الطريق من الحر وريح السموم

مدائنها القديمة

واما اشهر مدائنها القديمة فكانت پرسپوليس واسمها الفارسي اصطخر لم يبقَ منها اليوم غير آثار قليلة تدل على عظمتها السابقة وهي على مسافة ٤٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من مدينة شيراز ويسمون آثارها اليوم "چلمنار" اي الاربعين عمودًا "وتخت جمشيد" وهو الذي بناها وسيأتي ذكرهُ. وفيها من آثار القصور والكتابات والنقوش ما يدل على تقدم الذين بنوها ومن جاء بعدهم ومن غريب ما يروى عن آثارها ان في كتاباتها — وهي المعروفة بالكتابة المسماريَّة — الهيئة المعروفة في مصر باسم ابي الهول ولم يقف الباحثون الى الآن على سبب هذا التشابه مع بعد الدين الايراني القديم عن دين المصريين القدماء. واجمع اكثر المؤَرخين على ان الذي دمر مدينة اصطخر او پرسپوليس هذه هو الاسكندر المكدوني حرقها بعد رجوعهِ من غزواتهِ الشرقيَّة في الهند ونواحيها وهي رواية مؤَرخي اليونان ومن وافقهم ولكنَّ فريقاً من العلماء يقول انها ظلت عامرةً الى ايام الفتح الاسلامي فدمَّرها العرب في القرن السابع للميلاد. والرأْي الاول ارجح وكانت هذه المدينة عاصمة الملوك الايرانيين القدماء

واشتهرت مدينة سوسه اوشوشان في الولاية المعروفة اليوم باسم خوزستان وكانت عاصمة الملك مدةً من الزمان ولم يبقَ من آثارها اليوم الاَّ اقل من القليل لان اكثر البناء فيها كان من الآجر لا من الرخام مثل اصطخر وكان لها في ايام الدول الاولى شأْن عظيم كما سيجيء

واشتهرت في ايام ايران الاولى بلاد مادي وهي بلاد صخريَّة جبليَّة الى شمال ايران الاصليةَّ وغربيها تعرف اليوم باسم اذربايجان والعراق

العجمي وامتدت سطوة الماديين امتدادًا كبيرًا قبل ايام كورش حتّى انهم حكموا بلاد ايران وسموها باسمهم واختلطوا بالايرانيين اختلاطًا تامًّا حتّى صاروا معهم امة واحدة ولكن النفوذ ظلّ لهم مدةً طويلة وصارت السلطنة الايرانيّة تلقب باسم بلاد مادي وفارس على ما جاء في التوراة وكتب التاريخ القديم . ومن اشهر مدائن ميديا او بلاد مادي مدينة كادرس وهي المعروفة باسم تبريز اليوم ولكنها كانت دون العاصمة في المنعة والشهرة نعني بها مدينة اكباتانا الشهيرة واسمها اليوم همدان وهي الّتي قاربت اصطخر وشوشان في الابهة والزخارف وفاقتهما في المنعة والقوة الحربيّة . واشتهرت مدينة اريا في شرقي مادي وكان لها في التاريخ شأن واسمها اليوم هرات وهي الّتي اشتقّ منها اسم آري او ايران واطلق بعدها على القبائل الّتي تشعبت من الايرانيين الاول نعني بها القبائل الآرية

والى شمالي اذربايجان او بلاد مادي هذه كانت ولاية هركانيا (مازندران) وبارثيا (طبرستان) وكان ملوك ايران يقيمون احيانًا في مدينة زندركترا عاصمة هركانيا . واشتهرت صحراء قروان الى الشمال الشرقي من طبرستان هذه وهي الّتي عرف اهلها بحب التنقل والاعتداء على قوافل التجار واكثرَ الملوك القدماء من مهاجمتهم فلم يتمكنوا من قطع دابرهم

ومن ولايات هذه المملكة القديمة بكتريانا اشتهرت عاصمتها بكتريا واسمها اليوم بلخ وهي الى شرقي البلاد يفصلها نهر جيحون عن ولاية سوغديانا وكانت هذه ايضًا من الولايات الايرانيّة وعاصمتها مراكاندا وهي سمرقند الحاليّة المشهورة بتجارتها القديمة . وكل هذه الولايات الشرقيّة اليوم تابعة لروسيا وانكلترا او تحت سيادتها وهي المعروفة عند الجغرافيين باسم

اسيا الوسطى وبلاد التتر وافغانستان وبلوچستان وغير ذلك

واشتهر اهل ولاية غدروسيا (مكران) وولاية كرمانيا (كرمان) بعدم انقيادهم للحكومات الاولى وتوحشهم وبعدهم عن المدنيَّة· هذه هي اشهر المدائن والولايات الايرانيَّة القديمة ذكرنا خلاصة ما يعرف عنها حتَّى يحيط القارئ علماً بها وبمواقعها اذا جاء ذكرها في ما يلي من الفصول. والآن نتقدم الى تاريخ هذه المملكة وكيفيَّة نشأَتها وما تقلب عليها كما ترى في الفصول الآتية

الدولة البيشدادية

ان العلم بتاريخ ايران في اول امرها عسر لا يمكن الوصول اليهِ واكثر ما قيل عن هذه الدولة قبل ان حكمها الملك كورش الشهير يعد بعضهُ او اكثرهُ من قبيل الاوهام والخرافات ولكن مثل هذه الاقاصيص قد لا يخلو من الصحة وهي تفيد في الدلالة على حال الذين وضعوها وافكارهم ودرجة تمدنهم وغير ذلك ممَّا هو الهم الاكبر للمؤرخين اليوم · واول الكتب الَّتي نقل الناس عنها اخبار ايران الاولى كتاب فارسي قديم يسمونهُ زندافستا وهو عبارة عن مجموع عقائد الايرانيين الاولين ولكنهُ لم يسلم من التحوير والتحريف ولم يعثر الناس عليهِ باكملهِ وجلُّ ما سنذكرهُ عن الدولة البيشداديَّة مأخوذ عن هذا الكتاب وعن كتاب آخر كتب بعد الاسلام اسمهُ دابستان وعن الشاه نامه الشهيرة وهي قصائد بديعة للفردوسي حوت كل ما رقَّ وراق عن تاريخ ايران واحوال دولها واهلها كتبها هذا

الشهير في اواسط القرن التاسع للميلاد * واما الحوادث الَّتي نذكرها من ايام كورش وما بعدهُ فمعظمها منقول عن موَرخي اليونان مثل هيرودوتس واكتسياس وزنوفون وعن موَرخي الافرنج مثل بوب وشليل وبرنوف وغيرهم

والذي يحسن تلخيصهُ من اساطير الاولين هو ان اول من حكم بلاد ايران ملك اسمهُ كيومرث اوجيومرث وفي كتاب الدابستان السابق ذكرهُ انهُ حكم بعد دولة تولت الملك من قبلهِ قروناً عديدة . ويقولون ان كيومرس هذا كان حكيماً بين قومهِ واسع الادراك يزيد علماً عن معظم اهل ايامهِ فبدأَ بتعليم الناس وارشادهم فما نجح مع غير اهلهِ وابناء طائفتهِ وظلَّ معظم الناس من الخاضعين لهُ همجاً يحاربونهُ آونةً بعد اخرى وقتلوا ابنهُ سيامك في احدى المعارك فجرد عليهم جيشاً جرارًا وانتقم منهم وعاد الى اصلاح قومهِ حتى مات او تنازل عن الملك بعد ان حكم البلاد ثلثين عاماً وخلفهُ حفيدهُ هوشنك ابن سيامك المذكور وكان احكم اهل زمانهِ واكثرهم علماً وورعاً فعلم الناس عبادة الاله الخالق دون غيرهِ وبني المدن وانشأَ الترع والسواقي وهي تعرف باسمهِ في بلاد ايران الى هذا اليوم وقال الفردوسي انهُ هو الذي عرَّف الناس بالنار وفائدتها وكان اكتشافهُ لها اتفاقًا باحتكاك قطعتين من الصوان ولما رآها لاول وهلةٍ سماها "نورخدا" اي "نور الله"

وحكم هوشنك اربعين عاماً فلما مات خلفهُ ابنهُ طهمورث او تاهامرس وهو الذي بنى مدينة اصفهان على ما يقول البعض . و يروي ان عبادة الاصنام بدأَت في ايام هذا الملك اذ صار الناس يصنعون تماثيل اقاربهم ويحفظونها عندهم تذكارًا للمتوفين ثم صار اولادهم يوقرون هذه التماثيل

ويكرمونها حتى اتصلوا الى عبادتها . على ان عبادة الاصنام لم تطل مدتها في بلاد ايران اذ قام حكيم منهم اسمهُ زردشت او زوروواستر وعلم بوحدانيَّة الاله ووجوب العبادة الروحيَّة لا يدخلها اصنام وسنعود الى ذكر هذا الحكيم وتعاليمهِ . ومات طهمورث بعد ان حكم البلاد ثلاثين عاماً فخلفهُ ابن اخيهِ جمشيد الشهير وفي كتابات الاقدمين شيءٌ كثير عن هذا الملك ولم يزل الايرانيون يذكرونهُ اليوم ويسمون آثار پرسپوليس بتخت جمشيد زعماً منهم بانهُ بناها وقد تقدم الكلام عن هذه المدينة . ويقولون انهُ اصلح اموراً جمة في بلادهِ وعلَّم قومهُ كثيراً من الصنائع المفيدة . وقسم الناس الى اربع درجات الاولى طبقة الكهنة والعلماء واهل الدين والعبادة وكانت كل المعارف والعلوم محصورة فيهم . والثانية طبقة الكتَّاب وكانوا يحررون الكتب الاميريَّة ويقيدون كتابات الحكام ويحفظونها . والثالثة طبقة المحاربين ولم يكن لهم شغل غير الهجوم والدفاع . والرابعة طبقة العمال والزارعين . قيل وادخل جمشيد الى بلادهِ شيئاً من علم الفلك وعلَّم الناس حساب الايام والشهور والسنين ووضع طريقة السنة الشمسيَّة فجعل اول العام يوم دخول الشمس في برج الحمل وسماهُ يوم النوروز او النيروز ولم يزل الايرانيون يعتبرون هذا اليوم ويحتفلون بقدومهِ . ولكنهُ ضلَّ في آخر ايامهِ وطغى فسمَّى نفسهُ الهاً وامر الناس بالسجود لتمثالهِ فتذمر رعاياهُ وشقوا عصا طاعتهِ وهاجمهُ اميرٌ من امراء الشام او العرب يسميهِ مؤرخو العرب الضحَّاك فهرب جمشيد من وجههِ وظلَّ يفرُّ من اعوانهِ من بلاد الى بلاد حتى قبضوا عليهِ وقتلوهُ بعد العذاب الكثير

ويروون عن الضحاك هذا قصصاً هائلة منها انهُ كان عاتياً كثير الفتك

والظلم وكان لهُ على كتفهِ صلاَّن لا يعيشان الاّ باكل دماغ البشر فكان يقتل لهما الناس ويطعمهما ادمغتهم حَتَّى ضجَّ الناس من هول ظلمهِ وقاموا عليهِ بتحريض حداد اسمهُ "قعره" هاج الدم في عروقهِ لما أخذوا ولديهِ ليطعموا دماغهما للثعبانين وكان الحداد يطارد جيوش الملك الظالم والجماهير من ورائهِ تخفق فوق رؤوسهم راية هي رداءُ الحداد فانتصروا على الظالم وقتلوهُ وملكوا مكانهُ اميرًا من بيت كيومرث اسمهُ فريدون. ومن غريب ما يروى ان الايرانيين ظلوا يستعملون رداءَ الحداد راية لهم وعلامة لدولتهم الى ايام الفتح الاسلامي

وكان لفريدون هذا ثلثة ابناءٍ قسم مملكتهُ بينهم فاعطى اكبرهم واسمهُ سلم او شرم كل البلدان الواقعة اليوم في حكم الدولة العليَّة وللثاني واسمهُ طور او طوس كل البلدان الشرقيَّة وهي اراضي اسيا الوسطى واعطى الثالث واسمهُ ايرج بلاد ايران الاصليَّة فبعد ان تولى كلٌّ منهم بلادهُ اتفق الاثنان الاولان على حسد الثالث واضمرا لهُ الشر فارسلا الى ابيهما يطلبان اليهِ ان يرسل اليهما اخاهما الاصغر ليقضي معهما برهةً ولما وصل الى حيث يقطنان قاما عليهِ وقتلاهُ ولم يشفقا على صباهُ ولا رحماهُ بعد ما اتاهُ من التذلل والترجي والوعد بترك الملك لهما . فلما بلغ فريدون ذلك كثرت همومهُ واقسم الاَّ يستريح حتى ينتقم من ابنيهِ الظالمين وكان لايرج ولد صغير رباهُ جدهُ حَتَّى ترعرع وصار فارسًا وكان اسمهُ منوچهر فاحس الاثنان بسوءِ العقبى وبعثا بالهدايا الى والدهما فردها وداهمهما بالجيوش تحت قيادة منوچهر والتقى هذا الفتى بعميهِ فقتلهما في ساحة القتال واستتبَّ الملك لهُ مدة حياة جدهِ ومات فريدون بعد ان رأى السلام والامن عادا الى بلادهِ واوصى حفيدهُ ان يسوس الناس بالعدل وقال لهُ ما معناهُ "افرض ان كل يوم من ايامك

ورقة في تاريخ حياتك واحذر الاّ يكتب فيها شيءٌ لا يليق بك"

وكان منوچهر هذا ملكاً عاقلاً سار برأي كبير وزرائهِ سام الحكيم ولهذا الوزير مقام كبير في تاريخ الاقدمين لانهُ جد بطل من ابطال الزمان يسميهِ الايرانيون رستم ويروون عنهُ العظائم والكبائر واكثر ما قيل عنهُ ان ملوك التتر والعرب وغيرهم اكثروا من مهاجمة البلاد في ايامهِ فكان يردهم ويفل جيوشهم ويخلص ملك بلادهِ من ايديهم وقد اكثر الفردوسي من ذكر هذا البطل والاعجاب بهِ والاطناب بمدحهِ

ولما احسَّ منوچهر بقرب الوفاة اوصى ابنهُ ووليعهدهِ نوزر بالعدل في الرعيَّة واتباع نصيحة وزيرهِ الحكيم سام ولكن هذا المليك غض النظر عن وصيَّة والدهِ واتبع الاهواء فثار عليهِ الاهالي وارادوا خلعهُ فارسل وراء الحكيم سام ورجاهُ العون فاعانهُ وحمل الاهالي على السكون والخضوع ولكنهُ ما عتم ان تخلص من هذه البليَّة حتى وقع في اعظم منها اذ هاجمهُ ملك طوران (بلاد التتر) بثلثين الف محارب تحت قيادة ابنهِ الشهير افراسياب وسيكثر ذكر هذا الامير في تاريخ هذه الدولة. وحدث ان سام الحكيم مات في اثناء الحرب فتقوَّى جيش التتر وايقنوا بالنصر ومع ان نوزر اظهر بسالة في الحرب تليق باجدادهِ الاَّ انهُ لم يقوَ على افراسياب فوقع في يد اعدائهِ مرةً وقتلوهُ بعد ان حكم ايران سبع سنوات

وحكم افراسياب البلاد ١٢ سنةً بعد هذا النصر الى ان نهض زال ابن الحكيم سام لمقابلتهِ فجمع جيشاً بمساعدة احد الامراء من اقاربهِ وقاوم الفاتح وخابر اخاهُ اغراريس بالافراج عن الاسرى الايرانيين فينصبهُ ملكاً على ايران بدل اولاد نوزر فرضي الامير التتري بذلك واتم المطلوب ولكن

اخاهُ افراسياب احسَّ بخيانتهِ قبل ان يتمكن من الفرار فذبحهُ في حضور القواد والامراء ذبحاً . فلما اتصل خبر ذلك بالحكيم زال عيَّن اميراً اسمهُ زو على ايران فحكمها هذا الملك مدة أخضع في خلالها ولاية فارس وضمها الى مملكتهِ وخلفهُ ابنه كرشاسب ولم تطل مدة حكمهِ حتى ظهر عدم كفاءتهِ للملك فخلعهُ زال وولى مكانهُ كيقباد وبذلك انقرضت الدولة الايرانيَّة الاولى ونشأَت الدولة الكيانيَّة الَّتي سنجيء على ذكرها

هذه خلاصة ما جاء في تاريخ الفردوسي وغيره من مؤَرخي الشرق عن الدولة البيشداديَّة ولم يذكرها مؤَرخو اليونان في شيء وان يكن بعضهم ألمع الى ذكر بعض ملوكها . ويقول المؤَرخون الشرقيون ان هذه الدولة حكمت ايران نحو ٢٤٥٠ سنة ولم يذكروا من ملوكها غير اثني عشر وهذه مدة حكم الملوك الذين ذكرناهم على رواية الفردوسي

كيومرث	٣٠ سنة	
هوشنك	٤٠ سنة	
طهمورث	٣٠ سنة	
جمشيد	٧٠٠ سنة	
الضحاك	٨٠٠ سنة	وهي مدة استيلاء الاشوريين على ايران
فريدون	١٠٠٠ سنة	
منوچهر	١٢٠ سنة	
نوزر	٧٠٠ سنين	
افراسياب	١٢ سنة	

زو وكرشاسب عاشا مدة حكم افراسياب وحكما جزءًا صغيراً من البلاد

واما تاريخ قيام هذه الدولة وتاريخ انقراضها فمن الامور التي لا يمكن العلم بها ولكن العارفين يرجحون ان كيقباد اول ملوك الدولة الكيانية قام سنة ٧١٠ قبل المسيح واسمهُ عند مؤرخي اليونان ديوسس كما سيجيء

واشهر ملوك الدولة البيشدادية على رواية الذين ذكروها هو جمشيد الذي يقولون انهُ حكم سبعمائة سنة وهو مما لا يصدق على اي حال والمرجح ان مدة حكمهِ تشير الى الادوار التي مرت على ايران اذ تقدمت من الهمجية الى الحضارة وظهر من آثار تمدنها ما دل على عظمتها في هذه المدة. ومن المؤكد ان في رواية الضحاك شيئاً من الصحة وهو حكاية هجوم الاشوريين على بلاد ايران وامتلاكها ويقرب من الذهن ان البلاد ظلت تحت حكمهم الى ايام الملك ساردنابالوس الاشوري الذي اشتهر بالاهمال والتراخي والضعف حين قام امير من اهل ايران اسمهُ ارباسس ذكرهُ هيرودوتس وغيرهُ من مؤرخي اليونان وقالوا انهُ هاجم اشور في عاصمتها نينوى وامتلكها واهل البلدة لاهون في الملذات نخلص بلادهُ من ظلمهم وهذا ينطبق على ما قالهُ المؤرخون الشرقيون عن فريدون ولا يبعد ان يكون هو بعينهِ. ومما يزيد الحكاية تأكيداً مسألة الحداد "قعوه" الذي مر ذكرهُ وقيامهُ على اعداء بلادهِ ومساعدتهِ لفريدون او ارباسس على استرجاع الملك منهم وكان جراب الحداد هذا علامة الملك والوطنية عند الايرانيين يرفعونهُ رايةً في الملمات والشدائد وظلوا يعظمونهُ الى السنة الرابعة عشرة للهجرة حين هاجمهم العرب تحت قيادة ابن الوقاص وملكوا بلادهم وارسلوا رايتهم الى الخليفة عمر

وجاء ذكر منوچهر في بعض التواريخ اليونانية ايضاً وهي تسميهِ مندوسس ولكنها لم تروِ عنهُ ما يستحق الذكر. واما نوزر فاسمهُ عندهم سوسارمس

وزوارتكاس وكرشاسب اربيانس وكانت هذه عادة اليونان يغيرون اسماءَ الاماكن والاشخاص الغريبة ويجعلون لها اسماءً يونانيةً وقد اوجدت هذه العادة عناءً كبيرًا للذين اهتموا بدرس تاريخ ايران وموافقة ما كتبوهُ على ما كتبهُ المؤرخون الشرقيون من الايرانيين والعرب وغيرهم

الدولة الكيانية

قلنا ان الدولة الايرانيَّة الاولى انتهت بعزل آخر ملوكها لعدم جدارتهِ وانتخاب امير آخر بدلهُ اسمهُ كيقباد جد الدولة الثانية المعروفة باسم الكيانية ومن هنا يبتدئ تاريخ ايران الحقيقي واتفاق الرواية بين الذين دونوا هذه الحوادث في الغرب ايام الفتح اليوناني وبين مؤرخي البلاد الوطنيين . فقد اتفق هيرودوتس والفردوسي على ان كيقباد هذا رقي الى الملك بالانتخاب حتى يخلص البلاد بحكمتهِ ودرايتهِ من مشاكلها ومصائبها وكان ذلك عام ٧١٠ قبل الميلاد . وجاءَ في تاريخ هيرودوتس ان ديوسس او كيقباد هذا بنى مدينة اكباتانا عاصمة مادي واسمها اليوم همدان وانهُ اصلح في البلاد امورًا كثيرة حتَّى اذا هاجم بلادهُ البابليون وسار لردهم قتل في الحرب وخلفهُ ابنهُ فراورت وهو ثاني ملوك العائلة الكيانيَّة وليس لهُ ذكر في تواريخ الشرقيين

واما الفردوسي فما يقولهُ عن كيقباد هذا انهُ حالما استلم الملك سلمَّ الادارة لوزيرهِ زال الحكيم واقام ابنهُ البطل الشهير رستم قائدًا على الجيش ليرد عن البلاد هجمات التتر واميرهم افراسياب . قيل والتقى الاميران يومًا في ساحة القتال وبعد العراك الطويل مدَّ رستم يدهُ واقتلع افراسياب من

سرجهِ ولكنهُ افلت من يدهِ وتكاثر الاعوان حولهُ فخلصوهُ من يد رستم وفرُّوا مع مليكهم من وجه هذا البطل الصنديد ثم عقد بين المتحاربين صلح وعاد كلٌّ الى حالهِ . وعاش كيقباد بعد هذا الصلح مدةً قصيرة وكانت مدة حكمهِ على رواية الفردوسي ١٢٠ سنة . وكان عاقلاً عادلاً كثير الحلم والبر محبًّا لبلادهِ مكبًّا على اصلاحها فخلفهُ في الملك فراورت كما مرَّ وملك بعدهُ ابنهُ كياكسارس او كيكاووس وهو من أشهر ملوك هذه الدولة

واستهل كياكسارس حكمهُ في وسط الصعوبات الجمة فانهُ ما لبث ان تولى الملك حتى اضطرَّ الى محاربة الاشوريين وبينما كان يحاصر عاصمتهم نينوى هجم التتر على بلادهِ وملكوا بعض انحائها الشرقيَّة وظلوا فيها نحو ٢٨ عاماً يظلمون الايرانيين ويستعبدونهم حتى دبر لهم كياكسارس دسيسة وهيج الاهالي عليهم فقلبوهم وذبحوا اكثرهم . ونجا من التتر بعض الناس فالتجأُوا الى ملك ليديا (في الاناضول) وطلبوا مساعدتهُ فساعدهم باشهار الحرب على ملك ايران ودامت هذه الحرب خمسة اعوام حدث في اثنائها ان الشمس كسفت كسوفاً تامًّا فذعر الفريقان وفرَّ المتحاربون من ساحة القتال خوفاً ورعباً . ثم عقد الصلح بين الدولتين وعاد كياكسارس الى محاربة الاشوريين وشدد الحصار على نينوى مع ملك بابل الى ان فتحاها عنوةً ودمراها تدميرًا عام ٦٠١ قبل المسيح . ثم تقدم ملك ايران مع حليفهِ ملك بابل الى سوريَّة وقاتلا فرعون نيخو ملك مصر الذي ملك تلك البلاد بالسيف وفازا عليهِ في موقعة كركميش وتقدم كياكسارس منها الى الانحاء الغربيَّة من اسيا فاخضع اكثرها ونال عزًّا ومجدًا لم يسبقهُ اليهما احد قبلهُ من ملوك ايران وعاش طويلاً ثم مات وخلفهُ في الملك ابنهُ استياجس

هذه رواية هيرودوتس واما الفردوسي فيذكر عن كياكسارس هذا (او كيكاووس) انهُ سمع في اوائل حكمهِ ببلاد هركانيا (مازندران) وبلغهُ خبر هوائها الطيب ومائها العذب فاراد اخضاعها وكان يقطنها يومئذٍ قوم برابرة لا يقوى الغير على محاربتهم وتدويخهم فالحَّ عليهِ الامراءُ بالعدول عن رأيهِ فلم يرضَ وقام بجيشهِ لمحاربتها واناب عنهُ زال الحكيم في الملك فلم يرضَ زال بالنيابة ولكنهُ تعهد بمساعدة الذي يعينهُ الملك لهذه الوظيفة فاقام كيقاووس اميرًا اسمهُ ميلاد مكانهُ وسار للحرب

ولما بلغ اهل ما زندران خبر قدومهِ استعانوا بجارٍ لهم اسمهُ الشيطان الابيض فمدهم برجالهِ والتقى الجيشان فكُسر الايرانيون شر كسرة وأُسرْ كيكاووس وكان سبب انكسارهم اصابة كل رجالهم بالعمى في وسط احدى المواقع (ولعل هذا يوافق ما تقدم عن كسوف الشمس) وفرَّ بعض الايرانيين من الاعداء فأَخبروا اهل بلادهم بهذا المصاب العظيم وهبَّ البطل رستم في الحال لانقاذ مليكهِ فلما وصل الى بلاد الاعداء حاربهم وانتصر عليهم وخلص كيكاووس من الاسر بالبسالة وقوة السحر والطلاسم . ثم أَخضع هؤلاء الاعداء وعاد بملك ايران منصورًا الى بلادهِ فاقام كيكاووس بعد هذه الحرب مدة في اصفهان لا يأْتي عملاً حَتَّى خطر لهُ ان يتزوج ابنة ملك همفران (اشور) فخطبها من ابيها وظهر لهُ النجاح اذ دعاهُ هذا الملك الى مدينتهِ ورحب بهِ حين وصولهِ ولكنهُ القى القبض عليهِ وابقاهُ عندهُ اسيرًا بعد حين. فلما انتشر خبر هذا الاسر وقعت البلاد في المشاكل وصارت الى حال يشبه الفوضى فانتهز افراسياب امير التتر فرصة هذا الضعف وعاد الى مهاجمة ايران فعاد رستم الى النظر في خلاص بلادهِ وسار في الحال لانقاذ الملك فأَنقذهُ

بعد ان انتصر على اعدائهِ واضطرهم الى مخالفتهِ ومعاونتهِ على طرد افراسياب وجيشهِ من بلاد ايران فلما اجتمع المتحالفون على هذا الامير التتري رأى ان الرجوع أولى لمحارب ولم ينجح وعاد بالخيبة الى بلادهِ

وقد جاء في حكاية هذه الحروب ذكر حادثة مؤثرة عن البطل رستم اذ قتل ابنهُ في احدى المعارك وهو لا يعرفهُ فسبب لهُ الحزن والكدر الى آخر ايامهِ . وبيان ذلك ان رستم اغتصب فتاة تترية في اول عمرهِ ثم ضاعت منهُ ولم يعد يعلم محلها مع انهُ اكثر من البحث والسؤال عنها وولدت هذه الفتاة ولداً فائق الجمال زائد البسالة سمتهُ سهراب وارتقى هذا الفتى حتى صار من قواد التتر المشاهير وكان يعلم ان رستم ابوهُ ورستم لا يعلم ذلك . فبعد ان طالت احدى المعارك تقدم سهراب بين صفوف المتحاربين وطلب البراز من فرسان اعدائهِ فتقدم اليهِ كثيرون وفتك بهم ورأى رستم ان هذا الفتى لا يقهر الاَّ اذا تقدم لهُ بنفسهِ ولكنهُ ما اراد ان يبارز صبيًّا فغير زيهُ واسمهُ وتقدم لمبارزتهِ . وتقاتل البطلان ثلث مرات كان الفوز في الاولى قريبًا من سهراب ولكنهُ رضي بالانفصال والراحة بناءً على طلب خصمهِ مع انهُ لو الحَّ في اتمام البراز لامكن لهُ الفوز . وفي المبارزة الثانية انتصر سهراب على رستم انتصارًا تامًّا ولكنه عفا عنهُ وردهُ الى مقامهِ وسمح لهُ بمبارزتهِ ثالثًا وكانت المرة الثالثة هي القاضية على هذا الفتى الباسل اذ تمكن منهُ رستم وقتلهُ . فلما احسَّ الفتى سهراب بقرب الوفاة نظر الى قاتلهِ وحذرهُ من عاقبة فعلهِ وقال لهُ احذر ان يعلم البطل رستم يومًا انك قتلت ابنهُ . فوقع هذا الكلام على قلب رستم وقوع الصواعق وبهت مِنْ سماعهِ حتى اذا افاق من ذهولهِ سأل خصمهُ عن معنى قولهِ فأراهُ سهراب علامة

دلت على صدقهِ وحكى لهُ حكاية امهِ وهو يقاسي نزاع الموت فتأثر رستم تأثرًا خارق العادة ومد يدهُ الى سيفهِ ليقتل بهِ نفسهُ فمنعهُ ابنهُ قبيل وفاتهِ ورجاهُ ان يعقد صلحاً مع التتر ويسمح لهم بالعود الى اوطانهم لما عرف ان الذي قتلهُ هو ابوهُ رستم وتم الصلح بين المتحاربين

وحدث في عهد كيكاووس هذا امر نتج عنهُ عود التتر والايرانيين الى القتال والنضال . وكثر بسببهِ قتل الابطال وارتباك الاحوال . ذلك انهُ كان لهذا الملك زوجة تترية يتصل نسبها بافراسياب ورزق منها ولد سماهُ سياوش ووكل البطل رستم بأمر تهذيبهِ وتربيتهِ فنبغ سياوش في العلم والبسالة وامتاز بالجمال والذكاء على اهل عصرهِ حتَّى ان احدى زوجات ابيهِ وهي صدبه ابنة ملك اشور شغفت بحبهِ وراودتهُ عن نفسها فأبت نفسهُ الابيَّة الانقياد لاغرائها فشكتهُ الى ابيهِ واتهمتهُ بما لم يقع منهُ ولما تحقق الملك كذبها اراد الفتك بها فمنعهُ الفتى سياوش من ذلك ولكن هذه الخبيثة ما فتأت تدبر الحيل لسياوش وتكيد لهُ المكايد حتَّى اوقعت النفرة بينهُ وبين ابيهِ وحببت اليهِ هجر المنازل والربوع وكان على وشك البعد عنها حتَّى عادت الحرب الى حالها بين التتر والايرانيين بسبب طمع افراسياب وحقدهِ فتولى رستم وسياوش قيادة الجيش الايراني ولم تطل مدة القتال حتَّى حلم افراسياب حلماً اقلقهُ واضطرهُ الى طلب الصلح فرضي بهِ رستم وسياوش واشترطا على عدوهما شروطاً صعبة منها ارسال مائة رجلٍ من اعيان بلادهِ ليبقوا في ايران رهناً يمنعهُ من تجديد الحرب او يقتلون فرضي افراسياب وارسل الجماعة . ولما بلغ كيكاووس الخبر غضب وتكدر وولى قائدًا اسمهُ طور على جيشهِ وامرهُ باستمرار الحرب وقتل اعيان التتر الذين في قبضة ابنهِ ورستم .

فلما رأى سياوش هذا الغدر المشين من ابيهِ وكانت نفسهُ ملآنة غيظاً منهُ ومن امرأتهِ الاشورية بسبب دسائسها ترك ايران وذهب الى عدوهِ افراسياب فلاقاهُ الامير التتري بالترحاب الزائد واكرم وفادتهُ وساعدهُ على الاقتران بأجمل الفتيات في بلادهِ وهي ابنة وزيرهِ الاكبر بيران ويصا المشهور في الانحاء الايرانية بالحكمة شهرة لقمان في البلاد العربية . ثم اقترن سياوش بالاميرة فرنجيس ابنة افراسياب نفسهِ وعاش مع اقاربهِ هؤلاء زماناً طويلاً عزيزاً كريماً وتولى ادارة الولايات المجاورة للصين من بلاد التتر زماناً حتى وشى بهِ الولاة وزينوا لافراسياب انهُ كان يعمل على الاستقلال فبعث وراءهُ يريد ابعادهُ عن تلك الولايات ولكن الوشاة عادوا الى مكايدهم واضطروا افراسياب الى قتل صهرهِ الباسل بلا ذنب ولا سبب . واراد افراسياب ان يقتل ابنتهُ فرنجيس ايضاً لئلاَّ تعمل على الانتقام منهُ والاخذ بثار زوجها سياوش وكانت يومئذٍ حاملاً فاكتفى بقتل ابنها يوم ولادتهِ وامر وزيرهُ بيران ويصا الذي مرَّ ذكرهُ بانفاذ امرهِ فاشار بالطاعة ولكن الحنان منعهُ من قتل الطفل البريء فسلمهُ الى احد الرعاة وامرهُ بتربيتهِ وكتمان خبرهِ . ومرَّت الاعوام الطوال على هذا الامر حتى شاع بين الناس ان ابن سياوش حي يرزق وان اسمهُ كيخسرو (كورش وسيأتي ذكرهُ) فاقرَّ بيران ويصا لاميرهِ افراسياب بالواقع واخبرهُ ان الولد معتوه لا يخشى من شرهِ ولا يرجى منهُ خير وكان قد اوصى الفتى كيخسرو ان يتظاهر بالبله امام جدهِ واعلمهُ بالامر فلما مثل كيخسرو امام افراسياب اظهر من الجنون والبله ما حمل جدهُ على السكوت عنهُ واطلاق سبيلهِ

واما بلاد ايران فهاجت هياجاً عظيماً لقتل سياوش الباسل يوم سمعت

بهِ وجيَّش ملكها كيكاووس جيشاً جرارًا للاخذ بثار ابنهِ فلم يرضَ رستم بقيادة هذا الجيش الَّا على شرط ان تقتل الملكة صدبه الاشورية الَّتي كانت سبباً في بعد سياوش وما جرى لهُ فاتمَّ الملك الامر على كرهٍ منهُ ونقدم رستم بجنودهِ ومعهُ ابنهُ الباسل فرامرز وحارب الاعداء وانتصر عليهم في عدة مواقع واضطرهم الى الفرار بعد حرب عوان طال عليها المطال وكثر فيها عدد الذين قُتلوا من الابطال . وكان افراسياب يوم فرارهِ قد عوَّل على قتل كيخسرو فمنعهُ الوزير الحكيم مرةً ثانيةً من ذلك واقنعهُ بان ابعاد الفتى عن بلادهِ يكفي لنوال المطلوب فأُبعد كيخسرو ابن سياوش الى بلاد الصين ولم يعد يعرف مقرهُ . ولما انتصر الايرانيون وملكوا بلاد اعدائهم قصد الملك كيكاووس ان يعرف محل كيخسرو ويأْتي بهِ الى دارهِ ليتعزى بوجودهِ عن موت ابنهِ سياوش فارسل السعاة والرواد والقصاصين الى كل بلاد للبحث عنهُ وظلوا مدةً يجوبون الاقطار ويتنسمون الاخبار حتَّى وجدوهُ وجاؤُا بهِ الى جدهِ الملك كيكاووس ففرح بهِ فرحاً زائدًا وتنازل عن الملك لهُ في محفل حافل من اعيان بلادهِ فقام بعضهم واعترض على هذا العمل قائلاً ان ابن الملك برمرز احق بالملك بعد ابيهِ من ابن اخيهِ هذا وانحاز اليهِ بعضهم فطال الجدال بين الفريقين حتى عزم الملك على ارسال ابنهِ وحفيدهِ الى بلاد المردة او البرابرة الذين مرَّ ذكرهم وقال ان الذي ينتصر عليهم يكسب الملك فوافقهُ الامراء على هذا الاقتراح وتوجه الاميران للسعي وراء نوال الغاية المقصودة فخاب برمرز سعياً ونجح كيخسرو فتوج ملكاً على بلادهِ حال رجوعهِ

هذه حكاية كيكاووس او كياكسارس على ما رواهُ الرواة الايرانيون

وهم يقولون ان الذي خلفهُ على الملك حفيده كيخسرو المعروف باسم كورش الفارسي ولكن من المقرر ان الذي خلف كياكسارس هذا هو استياجس رابع ملوك الدولة الكيانيَّة واسمهُ في التوراة احشويروش (او اخشويروش ومعناهُ البطل القدير وهو لقب كان يعطى لاكثر ملوك ايران في هذه الدولة) ومما يذكر عنهُ انهُ زوَّج ابنتهُ لامير من امراء فارس (الولايات الشرقيَّة من ايران) فرُزقت منهُ ولد سمتهُ كورش اوخسرو ومعنى اسمهِ الشمس وهو الذي تقدم لنا ذكرهُ وكيفيَّة ولادتهِ حسب رواية الفردوسي وهي لا تختلف كثيرًا عن الرواية اليونانيَّة غير ان الايرانيين يقولون ان كورش كان ابن سياوش بن كياكسارس واليونان يذكرون انهُ كان ابن استياجس. وفي التواريخ اليونانيَّة ان الوزير رباهُ خفيةً فلما شأَ وظهر امرهُ ذهب الى بلادهِ (بلاد فارس) فوجد الناس يئنُّون من حكم جدهِ وظلم الماديين — اي اهل اذربايجان موطن ملوك ايران الاول الى قيام كورش هذا — فجيَّش منهم جيشاً وهجم به على الملك وخلعهُ ووضعهُ في السجن ولكنهُ لم يشأْ ان يحكم البلاد فنادى بخالهِ كياكسارس الثاني ملكاً. ولم يذكر المؤَرخون الايرانيون في ما كتبوهُ شيئاً عن استياجس ولا كياكسارس الثاني هذا

وحالما استتب الملك لكياكسارس الثاني ارسل جيش بلادهِ تحت قيادة كورش لمحاربة بابلونيا واخضاعها في سنة ٥٦٠ قبل المسيح. وكانت بابل مدينة عظيمة لها قوة هائلة فحاصرها كورش حصارًا طويلاً وكان ملكها بلشاصر قد ترك مهام الملك للانغماس في الرذائل وانتهاب اللذات وهيج سخط الداراوش[1]

---

(١) الداراوش (او داريوس على ما ورد في التوراة) لقب ملوك ايران الاول مثل لقب فرعون عند المصريين وقيصر عند الرومانيين.

ولكنهُ ازدرى بقوتهِ وسخر بمحاولتهِ اخضاع بابل فلما جاءها كورش وحاصرها هزأ بهِ واولم الولائم لاعوانهِ وهو يظن ان فتح مدينتهِ مستحيل وعمي بصرهُ عن تدابير كورش اذ حوّل مجرى النهر الذي كان يشق المدينة العظيمة وامر جنودهُ بالعبور اليها تحت جنح الظلام حالما ينقطع الماء ويمكن لهم السير في مجراهُ الى داخل المدينة ونجح في ذلك نجاحاً تاماً فدخل العاصمة العظيمة واهلها يسكرون ويطربون وملكها في وسط اعيانهِ يترنح مما شربهُ من الخمر في كؤوس من الذهب الخالص اختلسها ابوهُ من هيكل الله في القدس الشريف يوم بطش باليهود وسباهم فأهاج سخط الله القدير وظهرت لهُ في تلك الساعة يد انسان كتبت على حائط قصره بأزاء النبراس كتابة غريبة وكان يرى اليد تكتب والرعب ملء فؤاده حتى خفق قلبهُ واصطكت ركبتاهُ فصاح في من حولهُ ان احضروا الي كل ساحر ومنجم ليقرا هذه الكتابة فأتوا بهم وما قدروا على قراءتها ولا عرفوا الملك بتفسيرها وظلّ العاتي في حيرة حتى دخلت عليهِ الملكة واعلمتهُ بوجود حكيم من بني اسرائيل (هو النبي دانيال عليهِ السلام) يقدر على تفسير هذه الغوامض فأحضرهُ الملك وعلم منهُ ان الكتابة تقرأُ كما يأتي "منا منا تقيل وفرسين" ومعناها ان الله أحصى ملكك وانهاهُ ووزنت بالموازين فوجدت ناقصاً ولهذا قسمت مملكتك فاعطيت لمادي وفارس . وفي تلك الليلة استولى كورش على بابل وقتل ملكها بعد ان دافع عن نفسهِ دفاع الابطال لما افاق من غفلتهِ وسقط تحت اقدام الايرانيين فسقطت مملكتهُ بسقوطهِ في سنة ٥٣٨ قبل المسيح .

وبعد ان خلت اكباتانا عاصمة ايران مدة طويلة انتقل كياكسارس هذا الى بابل التي ملكها جيشهُ وجعلها عاصمة ملكهِ . وكان من امر هذا الملك

انهُ علم بدانيال النبي وحكمتهِ فقرَّبهُ منهُ وانعم عليهِ بكل هبةٍ وجعلهُ وزير دولتهِ الاول فحسدهُ الامراء الايرانيون وسعوا في نكايتهِ وزينوا للملك اصدار امرٍ عالٍ يقضي بالاَّ ترفع صلاة الاَّ اليهِ مدة ثلثين يوماً وكانوا يعلمون ان دانيال لا يصلي الاَّ الى الله عزَّ وجل تعالى عما يعملون . فاصدر الملك امرهُ بذلك ولما نمي اليهِ خبر دانيال وعصيانهِ امر ان يلقى في جب الاسود عقاباً لهُ على مخالفتهِ امر الملك وكان يظن ان هذه الضواري تلتهمهُ حال وصولهِ . الاَّ ان الاله القدير حرس نبيهُ وسدَّ افواه الاسود فما قربت منهُ ولا مستهُ بضرّ وندم الدراوش او الملك الايراني عما فرط منهُ فهرع الى جب الاسود يرثي دانيال ولما وقف فوقهُ سمع صوت النبي وعلم انهُ حي بقوة الله القدير فاخرجهُ في الحال وشدد الوطأة على حسادهِ الواشين ورفع مقامهُ واكثر من اكرامهِ وظل هذا النبي العظيم وزيرًا لكياكسارس الثاني الى آخر ايامهِ

وكان كياكسارس او داريوس هذا ملكاً عظيماً خضعت لهيبتهِ الملوك واطاعت رسلهُ الممالك وهو الذي بدأ بضرب النقود الايرانيَّة من الذهب وصارت هذه النقود واسطة التعامل والمتاجرة في اكثر الانحاء المعروفة في ايامهِ واسم القطعة منها "دارك" وكانت تقرب من الليرا عندنا في قيمتها . ويرجحون انهُ غنم ذهب هذه النقود من بابل يوم اخضعها حفيدهُ كورش وكانت خزائن هذه المدينة ملأى بما جمعهُ ملوكها من البلدان التي اخضعوها وبنوع اخص من هيكل سليمان في القدس . ومما يروى عن هذا المليك انهُ كان يميل الى اليهود ويحسن معاملتهم ويأمر برفع الظلم عنهم وتقدم بعضهم في ايامهِ وفي مقدمتهم النبي دانيال كما تقدم . وحذا اكثر ملوك الفرس حذو

داريوس او كياكسارس هذا في الاحسان الى الامة الاسرائيلية ورفع المظالم عنها خلافاً لغيرهم من ملوك الامم التي اخضعت هذه الطائفة واذاقتها البلاء الاكبر. ولعلّ السبب في ذلك قرب ديانة الايرانيين القدماء من ديانة اليهود كما سيجيء في الكلام على آداب ايران القديمة ولغاتها وعوائدها وعقائدها

ومات كياكسارس سنة ٥٣٤ ق. م. فخلفهُ في الملك كورش الفارسي الشهير واسمهُ في التواريخ الايرانية كيخسرو كما تقدم. روى المؤرّخون من اليونان عن كيفيَّة ولادتهِ ونشأَتهِ ما يقرب من رواية الفردوسي وزملائهِ اذ زعموا ان استياجس الملك الذي تقدم الكلام عنهُ كان لهُ ابنة اسمها مندان زوَّجها بالامير كمبيس من امراء فارس او الفرس وهي الولايات الشرقيَّة من ايران وتعرف اليوم باسم بلخ وحدث انهُ رأَى في منامهِ يوماً ما ازعجهُ واقلقهُ فأَرسل في الحال وراء السحرة والمنجمين وقصّ عليهم حلمهُ قائلاً انهُ رأَى في حديقتهِ شجرةً زرعها بيدهِ تمتد وتنمو حتى ظللت اغصانها اكثر انحاء مملكتهِ وما يجاورها فعبَّر السحراء الحلم بانهُ سوف يولد من ابنة الملك غلام ينمو ويعظم نفوذهُ حتى يغتصب الملك من جدهِ. فلما سمع الملك استياجس هذا التأْويل بعث وراء ابنتهِ وكانت حاملاً فلما وضعت الغلام سلمهُ الى وزيرهِ هارباغوس واوصاهُ بقتلهِ فأَخذهُ الوزير وما طاوعهُ القلب على اقتراف هذا الاثم الفظيع واعطاهُ الى أَحد الرعاة واوصاهُ أَن يرمي بهِ في الصحراء ويأْتيهُ بالادلة على موتهِ. فاخذهُ الراعي وكان لهُ امرأَة شديدة الحنو لم توافقهُ على قتل الطفل واتفق انها ولدت في تلك الليلة طفلاً ميتاً ففرحت بخلاص كورش واعطت زوجها الطفل الميت ليلقيهُ في الصحراء بدل الامير الصغير واعتنت هي بتربيتهِ حتى شبّ وظهرت عليهِ لوائح النجابة ودلائل الامارة وانتخبهُ اولاد قريتهِ

رئيساً عليهم يدير حركة الالعاب بينهم ويقاصُّ الذي يخالف اوامرهُ وكانوا يطيعونهُ راغبين . وخالفهُ في احد الايام ابن امير من امراء ايران فأمرَّ كورش على جلد الصبي وشدَّد عقابهُ فانسلَّ الصبي بعد هذا وقد كثرت اوجاعهُ وشكا الامر الى ابيهِ فقام الامير بابنهِ الى عاصمة الملك وعرض الامر على الملك استياجس فأمر باحضار الجاني في الحال فحضر اليهِ ولما سئل عن سبب فعلهِ أقرَّ بالحكاية وبيَّن الاسباب بلهجةٍ دلت على علو نفسهِ وشرف اصلهِ . وبهت استياجس من فصاحتهِ وجمال منظرهِ ومن مشابهتهِ الغريبة في الملامح لابنتهِ منذان وحدَّثهُ قلبهُ ان الفتى حفيدهُ فأرسل وراء وزيرهِ هارباغوس ودقق في البحث منهُ فاقرَّ الوزير بالحكاية وطلب الصفح . ولم يشأْ استياجس ان يقتل حفيدهُ ولكنهُ عاقب الوزير على مخالفتهِ الامر بقتل ابنهِ ورد كورش الى امهِ فما عتم كورش ان وصل الى بلاد ابيهِ حتى طفق يجنّد العساكر ويكثر من الاستعداد لمحاربة جدهِ الظالم وكان اهل فارس كلهم اعوانهُ في الامر . ولما احسَّ استياجس بالخطر جمع جيشهُ وارسلهُ لمحاربة كورش تحت قيادة وزيره هارباغوس الذي كان يريد الانتقام من ملكهِ العاتي ويراسل كورش سرًّا ويدلهُ الى ما يؤكد لهُ النصر فلما التقى الجيشان سلَّم القائد الايراني لكورش ودخل الشاب عاصمة جدهِ منصورًا فاسرهُ وابقاهُ في بلاطهِ اسيرًا الى آخر ايامهِ ولم يشأْ ان يحكم البلاد في ايامهِ فاقام مكانهُ خالهُ كياكسارس الثاني او داريوس وهو الذي تقدم الكلام عنهُ

ولما صار كورش ملك ايران انتقلت السيادة من ماذي او اذربايجان الى بلاد الفرس وكان كورش هذا اعظم ملوك ايران الاول واوَّل من وطد دعائم الملك فيها واشهرمن دوَّخ البلدان القاصية من ملوكها وهو الذي اخضع

معظم البلدان الواقعة الى غربي بلادهِ مثل مملكة اشور وبابل وليديا وممالك الاناضول قبل ان صار ملكاً. واستهلَّ حكمهُ باصدار امرٍ يقضي باعادة اليهود من السبي الى بلادهم بعد ان طال على اسرهم المطال فحقق بذلك ما أنبأَ بهِ النبي اشعيا قبل ايامهِ بمائة عام وظلَّ بعد ذلك سبعة اعوام يجاهد في اصلاح داخليَّة بلادهِ وتنظيم امورها وانتقاء الاكفاء من امرائهِ للولاية في انحائها وهو لا يحارب ولا يقاتل غير طائفة المجوس الذين كانوا اصحاب الامر والنهي في المملكة قبل ايامهِ وكان السبب في كرههِ لهم عبادتهم للنار على خلاف رأْي الفرس كما سيجيء عند الكلام على ديانة الايرانيين الأُول وتعضيدهم لجدهِ ومن حكم قبلهُ من الملوك الذين ظلموا العباد وخربوا البلاد . واختلف الرواة في كيفيَّة موت هذا الملك العظيم والمرجح انهُ قتل في الحرب مع اهل سكيثيا (التتر) ودفن كورش في مدينة بسارغاده حيث لم تزل آثار قبرهِ باقيةً الى هذا اليوم وقد كان عليهِ في ايام المؤَرخ سترابو هذه الكتابة " يا ايها الانسان انا كورش الذي أَسس المملكة الايرانيَة فلا تحسدني على هذا القليل من الارض الذي يضم عظامي "

وروى الفردوسي في الشاهنامه او اشعارهِ الشهيرة ان كيخسرو او كورش قضى معظم ايامهِ في مقاتلة افراسياب امير التتر الذي تقدم الكلام عنهُ وكان النصر في اول الامر للتتر فهبَّ البطل رستم لنصرة مليكهِ وردَّ التتر عنهُ وانتصر عليهم في مواقع كثيرة وهو في السنة الاربعمائة من عمرهِ. ولما كثر القتال بين التتر والايرانيين ارتأَى بعضهم ان يحسم الخلاف ويبطل القتال بمبارزة عشرة من كل فريق ينتخبون من اشهر الابطال المجربين فانتخب الفريقان نوابهم للمبارزة وانتصر كل فارس من الايرانيين على خصمهِ

التتري وقتلهُ وكان في جملة المقتولين من التتر بيران ويصا الوزير الحكيم الذي خلص كيخسرو من الموت مرارًا . قيل ان الملك كيخسرو او كورش لما رآهُ مضرجاً بدمهِ حزن على موتهِ حزناً مفرطاً وامر بتحنيطهِ ودفن عظامهِ في مدفن خاص بناهُ لهذه الغاية . ولما علم افراسياب بموت ابطالهِ عاد الى القتال كمن اسكرتهُ خمرة اليأس وحارب محاربة الذين لامطمع لهم في الحياة وتبعهُ الالوف من اعوانهِ ممن كان على شاكلتهِ فلاقاهم رستم ومن معهُ بقوة لم يقدروا على الوقوف امامها فقتل معظمهم واسر افراسياب فلما وقف امام كيخسرو امر بقتلهِ كما قتل سياوش ابوهُ من قبلهِ وبذلك انتقم الايرانيون لاميرهم الباسل ابي كيخسرو وبطلت الحرب. قال الفردوسي وحكم كيخسرو ستين سنةً ومات في التسعين من عمرهِ والمرجح انهُ حكم سبعة اعوام فقط . وخلفهُ ابنهُ كمبيس او لوهراسب سنة ٥٢٩ قبل المسيح

وكان كمبيس هذا اكبر اولاد كورش ولهُ اخ اسمهُ سمرديس فلما تولى الملك واراد الفتح والغزو خاف ان يترك المملكة وسمرديس بين الاحياء فقتلهُ وجيَّش جيشاً كبيرًا لمهاجمة مصر وكانت هي الوحيدة بين الممالك الشرقيَّة العظيمة التي لم تخضع لابيهِ تمام الخضوع. قيل انهُ كان يوماً سائرًا في مقدمة جيشهِ فاعترضهُ في الطريق شيخ قد جللهُ الشيب وطلب لهُ العز والنصر ثم رجاهُ في امر فقال الملك ما حاجتك قال الشيخ اني يا مولاي عاجز في آخر عمري ولي اولاد ثلثة في جيشك فاريد منك ان تشفق عليَّ وترد احد هؤلاء الثلثة اليَّ ليعولني فامر الملك باحضار اولاد الشيخ الثلثة وذبحهم امام عينيهِ جزاءً تعرضهِ لهُ وقال لهُ خذ اولادك الثلثة اني تركت الكل لك . ولم يذكر التاريخ حادثة تدل على قساوة اعظم من قساوة هذا العاتي الغشوم . ولما

وصل الى حدود مصر جاءهُ يوناني اسمهُ فانس هرب من ملك مصر وارشدهُ الى كل ما تهم معرفتهُ عن بلاد الفراعنة فما لبث كمبيس ان وصل الى حدود مصر حتى قاتل عساكرها على مقربةٍ من بلوزيوم (بورت سعيد) وانتصر على المصريين انتصارًا تامًّا واسر ملكهم بسامنتوس آخر الفراعنة . وكان ملك ايران يكره المصريين وديانتهم كرهًا شديدًا وينفر من عبادتهم للحيوانات وتكريمها ولكنهُ استفاد من خرافاتهم فائدة كبرى واستعمل آلهتهم واسطة للانتصار عليهم اذ كان يجمع الكلاب والقطط ويضعها في مقدمة جيشهِ فيتحاشى المصريون رمي سهامهم على الايرانيين خوف ان يصيبوا هذه الحيوانات المقدسة بضرٍّ وكانوا يتقهقرون في كل معركة حتى ملك كمبيس بلادهم واذلَّ اكابرهم واستعبد امرائهم ودمر هياكلهم وذبح الثور ابيس الذي كانوا يعبدونهُ ومحى الكثير من آثار فراعنتهم وهو أظلم من ظلم المصريين واقسى من عاملهم بالقسوة والامتهان سواء كان من ملوكهم او من ملوك الاجانب الذين فتحوا بلادهم . وورث خلفاؤُهُ هذا الكره عنهُ فشددوا الوطأة على المصريين واذلوهم وظلوا على استعبادهم الى يوم انقراض ملكهم ومجيء اسكندر المكدوني فقابلهُ المصريون بالترحاب وعدوهُ مخلصهم من الظلم ومنقذهم من العسف والجور . قيل واراد كمبيس هذا اخضاع الواحات التابعة لمصر وكان فيها هيكل جوبتر امون الشهير وآثارهُ باقية الى اليوم في الواحات الخارجة فبعث اليها بجيش عرمرم تحت قيادة احد امراء مملكتهِ فثارت عليهم ريح هوجاء ونسفت الرمل في وجوههم وكان الدليل الذي اعتمدوا عليهِ من ألد اعدائهم المصريين ظلَّ يتوغل بهم في الصحراء ويبعدهم عن مناهل الماء وظلت الرمال تعمي بصائرهم والشمس تحرق وجوههم والعطش والجوع يضنيانهم حتَّى انقرضوا عن

آخرهم ولم يرجع منهم واحد . وقد بالغ الرواة والشعراء في وصف ما اصاب جيش كمبيس في الصحراء بين النيل والواحات وفي متاعب جيشهِ الآخر الذي ارسلهُ لاخضاع قبائل البرابرة في الصعيد الاعلى (اثيوبيا) وعاد بالفشل التام

ولم تؤثر حوادث اثيوبيا والواحات في الملك كمبيس ولا ردت همتهُ عن الغزو والفتح فاراد اخضاع البلدان الافريقية الغربيَّة الى حد قرطاجنة (تونس) والغرب الاقصى ولما كانت الحملة لا تتم بغير القوات البحريَّة وكانت عمارتهُ كلها فينيقية من اهل البلاد التي اخضعها ابوهُ لم يتمكن من نوال بغيتهِ لان بحريتهُ الفينيقيين رفضوا محاربة اخوانهم في قرطاجنة وكانت مستعمرة سوريَّة كما لا يخفى. ولما كان في غزواتهِ جاءتهُ انباء الشر مخبرة ان احد المادبين من طائفة المجوس اختلس ملكهُ بدعوى انهُ اخوهُ سمرديس وكان يشبهُ اخاهُ المقتول شبهاً غريباً فصدقهُ الناس وبايعوهُ الملك فاسرع كمبيس في العود الى بلادهِ واندلق سيفهُ يوماً على فخذهِ وهو يجدُّ المسير فجرحهُ جرحاً بليغاً كان القاضي على حياتهِ وكان ذلك في سنة ٥٢٢ ق . م .

وهنا ينتهي حكم الدولة الكيانيَّة وهي الثانية من دول ايران الاولى ولكن المؤرخين الشرقيين يذهبون الى ان الذي خلف لوهراسب او كمبيس على الملك هو ابنهُ چوشتاسب وهو المعروف باسم داريوس هستاسبس الشهير ويزعمون ان كل ملوك ايران الذين حكموا البلاد الى ايام الفتح اليوناني كانوا من الدولة الكيانيَّة والمرجح او المؤكد ان رواية التواريخ اليونانيَّة اصح لان الذين كتبوها عاشوا في ايام حدوثها وقد عولنا على اتباعها في تاريخ هذه الدولة مدة امتداد النفوذ اليوناني عليها . ولم يذكر الفردوسي عن كمبيس

غير خرافات لا يمكن التعويل عليها

يرى القارئ مما تقدم ان الدولة الكيانيَّة حكمت ايران ١٨٨ سنة من ٧١٠ الى ٥٢٢ ق . م . وهذه اسماء ملوكها ومدة ولايتهم على رواية الفردوسي

كيقباد (ديوسس)	مدة حكمهِ ١٢٠ سنة
كيكاووس (كياكسارس الاول)	" " ١٥٠ "
كيخسرو (كورش)	" " ٠٦٠ "
لوهراسب (كمبيس)	مدة حكمهِ ١٢٠ سنة

واما الرواية اليونانيَّة — وهي الاصح فكما يأْتي

ديوسس	حكم ٥٣ سنة	من ٧١٠ — ٦٥٧
فراورت	" ٢٢ "	من ٦٥٧ — ٦٣٥
كياكسارس الاول	" ٤٠ "	من ٦٣٥ — ٥٩٥
استياجس	" ٣٥ "	من ٥٩٥ — ٥٦٠
كياكسارس الثاني	" ٢٤ "	من ٥٦٠ — ٥٣٤
كورش	" ٠٧ سنين	من ٥٣٤ — ٥٢٩
كمبيس	" ٠٧ "	من ٥٢٩ — ٥٢٢

الدولة الهستاسبية

قلنا ان الدولة الفارسيَّة او الايرانيَّة المعروفة باسم الكيانيَّة انقرضت بموت آخر ملوكها كمبيس ابن كورش وكانت اعظم الدول الايرانيَّة القديمة

واشهرها . وكان كورش وابنهُ يكرهان المجوس واهل مادي او اذربايجان كرهاً شديداً ويعملان على ملاشاة دينهم وتقليل نفوذهم فانتهز هؤُلاء الكهنة فرصة غياب كمبيس عن بلادهِ واتفقوا على تنصيب واحد منهم كان يشبه سمرديس بن كورش شبهاً غريباً بدعوى انهُ هو بنفسهِ لم يقتل كما اشاع اخوهُ الملك كمبيس ونجحوا بتنصيبهِ وساعدهم الحظ بموت كمبيس في الطريق فاعادوا نفوذهم الى البلاد ولكنهم لم يتمتعوا بالقوة زماناً اذ ظهر لامراء الفرس ان ملكهم الجديد كان مختلساً لاقرابة بينهُ وبين كورش فتآمر امراؤُهم على خلعهِ ودخل سبعة منهم يوماً الى قصرهِ على حين فجأَة فدهموهُ في مخدعهِ وقتلوهُ بعد ان حكم سنة واحدة واتفقوا على تولية واحد منهم يتصل نسبهُ بملوك الدولة الكيانيَّة اسمهُ چوشتاسب وهو دارا او داريوس هستاسبس الشهير فجعل همهُ الاول اضطهاد الماديين وسحرتهم او المجوس وقام في ايامهِ الفيلسوف العظيم والمصلح الشهير زردشت او زوراستر وهو صاحب الديانة الشهيرة التي علم فيها بعبادة الله الحي دون سواهُ وبابطال كل اشكال الاصنام والاوثان والخرافات الكثيرة وسنفرد لذلك باباً خاصاً في هذا التاريخ لاهميتهِ ولزومهِ لكل باحث عن احوال ايران الاولى . وكان داريوس يميل ميلاً شديداً الى زردشت وتعليمهِ وقيل انهُ كان يكرهها في اول الامر واستمالهُ ابنهُ اصفنديار (زركسيس) اليها فقبلها واوصى باتباعها وشدد الوطأة على كل من لم يعتنقها حتى صارت دين الايرانيين من بعدهِ وظلت كذلك الى ايام الفتح الاسلامي

وكان الملك داريوس يخاف على نفسهِ من الثورة وقيام الفرس فاقترن باثنتين من بنات كورش ولما احسَّ بثبوت الملك لهُ شرع في تأديب

الذين شقوا عصا طاعتهِ وابتدأ بمحاربة اهل بابل وردهم الى الخضوع لرايتهِ فتمنع اهل بابل في مدينتهم واغلقوا ابوابها العظيمة في وجه جيشهِ وظلَّ داريوس محاصرًا لهذه المدينة الشهيرة زهاء عشرين شهرًا حتى خطر لاحد قواده ان يمتلكها بالحيلة ويريح مولاهُ من عناء الحصار الطويل والقتال الكثير فجدع انفهُ وقطع اذنهُ وشوه سحنتهُ وانسلَّ من بين الجنود الايرانيَّة فدخل بابل وجاهر بعدوان داريوس مدعيًا انهُ ظلمهُ وشوَّه خلقتهُ وانهُ يريد الانضمام الى اعدائهِ لينتقم منهُ على توحشهِ وقسوتهِ فصدقهُ البابليون وجعلوهُ رئيس فرقةٍ كبيرة من جنودهم وسيروهُ لمحاربة داريوس وهم يؤملون الفوز على يدهِ فخانهم وسلم مدينتهم الى مولاهُ وعادت امتهم فخضعت لملك ايران واخنى عليها الدهر من ذلك اليوم

ولما انتهى داريوس من محاربة بابل واهلها طفق يهتم بالمدائن اليونانيَّة في اسيا الصغرى وكان كورش قد اخضعها من قبلهِ واغتصبها من كريسيوس ملك ليديا ولكنها ما فتأَت تطمع بالاستقلال وتعمل على التخلص من الايرانيين فتقدم اليها واضطرها الى الخضوع والسكينة بدون قتال ونضال وتوجه منها الى بلاد ثراقيا في شمالي بلاد اليونان فأَخضعها وضمها الى مملكتهِ الواسعة ومنها خطر لهُ ان يعيد الكرة على قبائل التتر (سكيثيا) التي حاربها كورش وقتل فيها اما لينتقم من اهلها على قتل ذلك الملك العظيم او ليظهر باخضاعها انهُ كان اعظم منهُ فنالهُ ما نال سلفهُ من قبلهِ من الكسرة والفشل بعد ان عبر نهر الدانيوب على جسر من القوارب ولقي من بسالة الاعداء ومثابرتهم على القتال ما لم يخطر لهُ ببالٍ وكانوا لا يحاربونهُ الَّا في الجبال والاماكن العسرة المسالك ولا يدخلون معهُ في قتال كبير بل يناوشونهُ

مناوشة مستمرة افنت عساكرهُ واضطرتهُ الى القهقرى سيما وانهُ كان قد تقدم
الى حيث لم يجد في البلاد مأكلاً لرجالهِ ولا علفاً لخيلهِ ورأى ان نساء
الاعداء يقربنَ من الرجال في البسالة والصبر على الشدائد ويحاربنَ نظيرهم
وكان بينهنَّ عدد ليس بقليل من اللواتي اشتهرنَ بطول القامة وضخم الجسم
وقوة العضل وشدة البسالة حاربنهُ وضايقنَ جيوشهُ مضايقة كبرى واسمهنَّ
في التاريخ "امازون" والنساء اللواتي يشتهرنَ بقوة الجسم او بضخامتهِ يعرفنَ
بهذا الاسم الى اليوم

ولما عاد داريوس عن هذه البلاد خطر في بال ملتيادس ملك ثراقيا
ان يقطع عليهِ خط الرجوع وخابر المدائن اليونانيَّة في اسيا برأيهِ واتفق معها
على هدم الجسر الذي اقامهُ داريوس على نهر الدانيوب ومضايقة الايرانيين
وقتلهم تخلصاً من حكمهم وكاد ينجح في هذا الامر ويميت داريوس وعساكرهُ
لولا ان يخون اليونان واحد منهم اسمهُ هستياس كان حاكم مليتوس من
مدن اليونان فهذا اخبر داريوس بالامر وعارض اهل وطنهِ في الدسيسة فحرمهم
لذة النصر على اعدائهم والاستقلال ولكنهُ جوزي بغير ما يستحقهُ من الاكرام
ولم يلتفت داريوس الى حسن صنيعهِ فكان ذلك عقاباً شديدًا لهُ على خيانتهِ.
وكان لهذا الخائن قريب اسمهُ ارستاغوراس هو ابن اخيهِ لما رأى ان ملكَ
ايران لم يحفل بامانة عمهِ ولم يكافئهُ بتوسيع ولايتهِ وزيادة امتيازاتهِ هاجَ
واشتدت فيهِ الاميال الوطنيَّة فجاهر بالعصيان وخابر كل الامارات اليونانيَّة
بنصرتهِ فأَجابتهُ المدائن والامارات التي كانت تطمع بالاستقلال من نير ايران
في الحال وضمت قوتها الى قوتهِ ولكن الفتى لم يقنع بها فأَراد ضم اثينا واسبرطه
أشهر المدائن اليونانيَّة المستقلة واعظمها اليهِ وذهب بنفسهِ الى اسبرطه ليستميل

ملكها الى تعضيده ومحاربة الايرانيين وكان اسمهُ كليومينيس عرف بالبسالة والاقدام ولكنهُ اشتهر ايضاً بالتروي واجتناب المخاطرة. فبذل ارستاغوراس كل جهده لاقناع كليومينيس هذا بالانضمام اليهِ وبالغ لهُ في وصف فوائد الحرب وغنى الايرانيين وضعفهم واكثر من مدح شهامة المدن الَّتي انضمت اليهِ والاطراء في وطنيتها واراهُ رسم الممالك الايرانيَّة ووعدهُ بها اذا رضي بقيادة المتحاربين فطلب اليهِ كليومينيس ان يمهلهُ ثلثة ايام ريثما يمعن النظر في الامر ويقدر عواقبهُ ولما انتهى الاجل سألهُ كم يلزم لجيش اليونان من الايام حَتَّى يصل الى عاصمة ايران ويملكها قال انهم يصلونها في ثلثة اشهر اذا ساروا ١٨ ميلاً كل يوم فاجابهُ كليومينيس ان اذهب يا ايها الغريب في سبيلك ولا تقم في هذه المدينة الى بعد غروب الشمس لانك عرضت على اهل اسبرطه امراً خطراً اذ زينت لهم البعد عن شطوط اليونان مسافة ثلاثة اشهر . فعاد ارستاغوراس عن اسبرطه بالفشل

ثم حول ارستاغوراس وجههُ الى اثينا وقصد مروءة تلك المدينة العظيمة وكان الاثينيون قد اكرموا ملتيادس امير ثراقيا الذي حرض اخوانهُ على خيانة الفرس ومعاداتهم وفرَّ من وجه داريوس بعد انفضاح امرهِ . فلما وصل ارستاغوراس اثينا ليهيج اهلها على محاربة ايران قابلوهُ بالترحاب والاكرام سنة ٥٠٠ قبل الميلاد وانشأُوا لهُ في الحال عشرين سفينة حربيَّة اضاف اليها خمسة من محالفيهِ الآخرين وسار بهذه القوة بلا امهال الى مينا مليتوس فانتصر في البحر على عمارة ايران وانزل جنودهُ الى البر وانتصر فيهِ ايضاً حتى وصل الى مدينة سرديس عاصمة ليديا فحاصرها وملكها وطرد الاعداء منها ودمرها عن آخرها . وكانت مدينة سرديس هذه اغنى مدائن

تلك الايام واشتهر ملكها كريسيوس الذي اسرهُ كورش بالثروة الطائلة حتى صارت تضرب بهِ الامثال واسمهُ دليل الغنى عند الاوروبيين الى هذا اليوم يضربون المثل بكثرة مالهِ كما نضرب المثل بقارون ويذهب بعضهم ان قارون محرف عن كريسيوس . قيل ان كريسيوس هذا نال من الحظ والنعمة ورأى من الخير واليسار ما لم يرهُ من قبلهِ بشر وكان يفتخر بثروتهِ حتى زارهُ يوماً احد حكماء اليونان واسمهُ صولون وسمعهُ يتباهى بجواهرهِ وذهبهِ ونعمهِ فنصحهُ ألاَّ يغتر بالدهر ولا يعد نفسهُ سعيدًا حتى يرى السعد مرافقاً لهُ الى آخر ايامهِ فلم يعبأ الملك بقول الحكيم حتى اذا داهمهُ كورش وملك مدينتهُ واسرهُ وامر بحرقهِ خطر في بالهِ صولون وتذكر نصيحتهُ واللهيب يتصاعد من حولهِ ليحرقهُ فصاح باعلى صوتهِ "آه يا صولون يا صولون" وسمعهُ كورش يقول ذلك فسأل اعوانهُ عن معناهُ ولما عرفهُ اخذتهُ الشفقة على هذا الملك ورأى الحرق كثيرًا عليهِ بعد ذلك العز العظيم فعفا عنهُ وابقاهُ اسيرًا الى ان مات في الاسر

قلنا ان عصاة اليونان دمروا سرديس هذه بامر قائدهم ارستاغوراس وكان النجاح الى حد ذلك الحين في جانب اليونان ولكنهُ لم يدم معهم اذ اختلف قوادهم بعد فتح سرديس وعاد اكثر الاثينيين واهل اوروبا من اليونان الى بلادهم وما بقي من العصاة غير اهل المدائن اليونانيَّة في اسيا فسحقهم داريوس سحقاً وبدد شملهم وشدد الوطأة عليهم وخرب مدينتهم مليتوس فلم يبقِ فيها حجرًا على حجر وذبح كل اهلها ذبحاً واصاب غيرها من المدائن ما اصابها وبذلك تمَّ النصر لملك ايران العظيم على اعدائهِ ولكنهُ ابقى في صدور اليونانيين كرهاً شديدًا لدولتهِ وميلاً الى الانتقام كان السبب في انقراض دولتهِ وخضوعها لليونان في ايام اسكندر المكدوني

وفرَّ ارستاغوراس من ساحة القتال بعد ان رافقهُ الفشل فلما وصل الى بلادهِ ذبحهُ بعض الهمج. واما عمهُ هستيوس الذي خان اهلهُ اليونان لخدمة داريوس وبقي عندهُ اسيرًا بدل ان يكرم والذي قام ابن اخيهِ ارستاغوراس هذا من اجل رد شرفهِ فحاول الفرار من الاسر ولم ينجح ثم صلب في ساردیس بامر الوالي الايراني

ثم حول داريوس نظرهُ الى الذين شقوا عصا طاعتهِ من اليونان يريد الانتقام منهم فبعث الى كل الجهات اليونانيَّة رسلهُ تطلب الخضوع لسلطانهِ وخصَّ اهل اثينا بهذا الطلب لان رئيس جمهوريتها هبياس الذي طرد منها من اجل ظلمهِ وجورهِ التجأ اليهِ وطلب معاونتهُ على العود الى الرئاسة. فلما وصل الرسل الايرانيون الى المدائن اليونانيَّة خاف اهلها وقدموا علامة الخضوع ما خلا مدينتي اسبرطه واثينا وكانت الثانية قد هاجت من التجاء الذي طردتهُ الى ملك ايران فعاد الرسل واخبروا مولاهم بالذي تمَّ وبدأ داريوس يستعد للزحف على اثينا واسبرطه وسحقهما وبدأت المدينتان بالاستعداد للدفاع كلٌّ منهما على حدةٍ وكانتا صغيرتين لا تذكران بالنسبة الى ملك الايرانيين الضخم وقوتهم الهائلة ولكنهما اظهرتا من البسالة ما لم يزل الناس يتحدثون بذكرهِ الى هذه الايام

ولما كمل الاستعداد في ايران سلم داريوس قيادة جيشهِ العظيم لصهرهِ ماردونيوس وسيرهُ الى بلاد اليونان وقام هذا الامير فاخضع جزيرة ثاسوس ومملكة مكدونيا وكانت من ضمن الولايات العاصية وضمها الى مملكة ايران في سنة ٤٩٣ ق . م ولكن العمارة الَّتي سارت معهُ رزئت بالانواء الهائلة على مقربةٍ من جبل اثوس فتحطم منها ثلثمائة سفينة وغرق

نحو عشرين الف رجل في يوم واحد وتسبب عن ذلك فشل الايرانيين وعدم امكان تقدمهم على المدينتين الباسلتين اللتين جاء ماردونيوس من اجل اخضاعهما فاضطرَّ الى العودة الى بلادهِ واعتذر بالبرد واخطار البحر فهاج داريوس من صنيعهِ هياجاً عظيماً وعزم على اعادة الكرة فنظم جيشاً كبيرًا غير الاول وارسلهُ تحت امرة القائدين الشهيرين داتس وارتغرنس وسيرهما لمحاربة اليونان سنة ٤٩٠ ق . م فتقدم القائدان واخضعا الجزائر المنفردة الّتي هبت الى العصيان ثم استولى الايرانيون على ارتريا وغيرها من الانحاء اليونانيّة ونكلوا بأهلها وسبوهم وظلوا يتقدمون حتَّى اتوا على سهل مرثون الشهير وهو على مسافة ثلثين ميلاً من اثينا فاستعدوا هناك للبطش بالمدينة العظيمة وكان الاثينيون في هياج عظيم يريدون التقدم للقتال حتَّى ان الشيوخ والنساء والاولاد كانوا ينضمون الى المقاتلين لما علموا ان عدد الايرانيين في سهل مرثون يقرب من خمسمائة الف مقاتل وبلغ عدد الذين تهيأُوا لرد الهاجمين ثلثين الف مقاتل منهم عشرة آلاف من اهل اثينا وعشرين الفاً من القرى المجاورة والعبيد وغيرهم . وعين اهل اثينا عشرة رؤساء على هذا الجيش رتبتهم واحدة وكان امهرهم ملتيادس فلما رأى بقيّة القواد انهُ يفوقهم علماً ودرايةً تنازلوا لهُ عن الرئاسة وجعلوهُ قائدًا على جيشهم فامرهم في الحال بالمسير الى مرثون لمقاتلة الفرس قبل ان يزحفوا على المدينة ويحصروها فيموت الناس فيها جوعاً واطاعوا امرهُ وهجموا على جيوش ايران ففازوا عليها بعد حرب وقتال شديدين اظهر فيها ملتيادس واعوانهُ ما لم يعهد لهُ نظير من البسالة والاقدام حتَّى ذعر الايرانيون وتقهقروا وهرب الذي نجا منهم الى السفن الراسية على مقربةٍ من ساحة القتال وكان

من رأي داتس السفر في هذه السفن في الحال الى اثينا قصد مفاجأتها وامتلاكها قبل عود جنودها اليها فلحظ ملتيادس منهُ ذلك واسرع في الرجوع بجيشهِ الى المدينة ووصلها قبل السفن فاحبط مساعي الايرانيين وردهم عنها خاسرين فعادوا الى اسيا بعد كل هذا العناء . كل هذا ولم تشترك اسبرطه في القتال وافتخرت مدينة اثينا وحدها بهذا النصر العظيم ولكن داريوس ظلَّ الى آخر عمرهِ يتحسر ويتمرمر من خيبة قوادهِ وعدم تمكنهم من اخضاع اليونان قبل سائر الامم الَّتي خضعت لهيبتهِ وكان ينوي مهاجمة بلاد اليونان بنفسهِ وسحقها لولا ان تهب مصر الى الثورة وتجاهر بالعصيان ويكثر الخلاف بين اولادهِ على الخلافة من بعدهِ فلما تمكن من حسم هذا الخلاف توفي سنة ٤٨٥ ق . م بعد ان حكم ٣٧ سنة اظهر في خلالها انهُ كان اعظم ملوك ايران واشهرهم بعد كورش ومدَّ نفوذهُ من بلاد اليونان في الغرب الى بلاد الهند في الشرق فكانت مملكتهُ اعظم الممالك وسيدة الامم في ذلك الحين

وفي الروايات الايرانيَّة ان داريوس هستابس هذا او جوشتاسب كان ابن لوهراسب (كمبيز) بن كورش ويقولون ان الحسد داخلهُ في حياة ابيهِ المذكور من الامراء الذين كان يودهم والدهُ فحاول خلعهُ من الملك ولم ينجح في الامر واضطرَّ الى الفرار فقصد بلاد الروم (كل البلاد الواقعة الى غربي الفرات كانت تسمى بهذا الاسم من بعد الفتح الاسلامي) وظلَّ زماناً متنكراً بصفة سائح فقير الحال حتَّى سمعت بهِ ابنة ملك الروم يوماً ووقع نظرها عليهِ ففتنت بجمال طلعتهِ واعتدال قامتهِ وفضلتهُ على كل من خطبها من اكابر الملوك والامراء فرمت اليهِ بتفاحةٍ من نافذة قصرها وكان

ذلك عندها علامة القبول بالخطبة واقترنت بهِ فاشتد غيظ والدها من عملها هذا وطردها من قصرهِ وتبرأ منها فعاشت مع زوجها زماناً عيشة الذل والخمول الى ان ذاع في البلاد ان الملك يعطي ابنتيهِ الباقيتين الى اللذين يقتلان اسدًا وتنيناً كانا في ذلك الحين سبب الرعب والقلق لجميع اهل البلاد ولم يقدر جبابرة الغرب على التخلص منهما . فلما سمع جوشتاسب بالخبر هبَّ لقتل هاتين الآفتين بناءً على طلب اثنين من امراء المملكة كانا يريدان ان ينسب اليهما هذا الفعل ويأخذا الاميرتين . ونجح جوشتاسب في امرهِ فخلص المملكة من التنين والاسد وبلغ الملك ان الذي قتلهما الاميران اللذان مرَّ ذكرهما فزوجهما ابنتيهِ ولم يطل الحال حتَّى انكشف الامر وعلم الملك ان الذي قام بهذه الفعال صهرهُ الاول جوشتاسب فرضي عنهُ وقرَّبهُ اليهِ وجعلهُ قائد جيشهِ وسيرهُ لمحاربة ايران والاستيلاء عليها . فلما وصلت اخبار الحملة الى لوهراسب ملك ايران وعلم ان ابنهُ الباسل هو قائد الجيش المهاجم خاف عاقبة الامر وحشد جيشاً جرارًا برئاسة ابنهِ الثاني زورير واوصاهُ ان يعلن اخاهُ بتنازلهِ عن الملك لهُ حالما يلتقيان فلما التقى الجيشان اسرع جوشتاسب الى زيارة اخيهِ فاعلمهُ بالامر وسار الجيشان تحت قيادتهِ الى اصطخر عاصمة ايران حتَّى اذا قربت العساكر منها خرج ملك ايران لملاقاة ابنهِ وهنأهُ بالملك على ايران فتأثر الشاب من صنيع ابيهِ واقسم انهُ لا يرضى الملك في حياتهِ ولا يخالفهُ الَّا ان لوهراسب كان يحب الراحة ويؤْثر الاعتزال في آخر ايامهِ فالحَّ على ابنهِ بالقبول وهكذا صار جوشتاسب او داريوس هستابس ملكاً على ايران واصلح بينها وبين سلطنة الروم

واشتهر امر زردشت او زورواستر المصلح الشهير في ايام هذا الملك كما تقدم فاعتنق اسفنديار ابن الملك الدين الجديد واقنع اباهُ بصحتهِ فقبلهُ واضطرَّ اهل المملكة الى التدين بهِ ولذلك عمت عبادة النار على طريقة زردشت في ايامهِ وصار لهذا المصلح مقام عظيم وكتبت تعاليمهُ على جلود البقر وحفظت في سراديب أمر الملك بحفرها في صخور اصطخر لهذه الغاية وعين الكهنة والجند لحراسة هذه الكتابات وكان من نتائج انتشار الدين الجديد عود التتر والايرانيين الى الحرب والعدوان ذلك ان ارجاسب ملك التتر احتدم غيظاً من خروج ايران وملكها عن طاعة الآلهة القديمة فجمع اليهِ امراء مملكتهِ وخاطبهم بما معناهُ ان جارنا ملك ايران قد ضلَّ وغوى فاتبع ضلال ساحرٍ ادعى النبوة وجرَّ اهل بلادهِ معهُ الى فقد السعادة واللذة التي تحق للذين يتمسكون بالدين الاول المنزل . فقرَّ قرار الامراء على ان يكتب مولاهم الى ملك ايران بالرجوع الى دينهِ او يدهمهُ بخيلهِ ورجلهِ وفعل ذلك فأهان جوشتاسب الرسول وهبت الأمتان الى الحرب ففعل اسفنديار ابن الملك فعال الابطال وفرق جموع الاعداء وفلَّ جيوشهم وطردهم من بلادهِ طرداً فعادت ايران الى السكينة وعظم قدر اسفنديار واشتهر امر بسالتهِ حتَّى حسدهُ بعض الامراء على ما نال من رفعة المقام وبدأوا بالدسائس التي اضطرَّتهُ الى المجاهرة بالعصيان فقبض عليهِ الملك واودعهُ السجن وظلَّ فيهِ زماناً حتَّى اذا سمع ملك التتر بما جرى على الذي كسرهُ عاد الى القتال واقتحم جيوش الفرس بمن عندهُ من الابطال فأسر ابنة ملك ايران واوشك ان يمتلك البلاد لولا ان يعود الملك الى رشدهِ ويطلق سبيل ابنهِ من السجن بعد الترضي والترجي والوعد بالتنازل لهُ عن الملك اذا هو

خلص اختهُ من التتر وردهم عن البلاد فرضي اسفنديار بهذا الشرط واثار
على الاعداء حرباً عواناً لم يقووا على البقاء معها ففرّوا من وجه هذا الاسد
الغضنفر وهو يتعقبهم حتَّى وصلوا الى عاصمة ملكهم رويندة واستقرّوا فيها
وكانت اخت اسفنديار اسيرة معهم فجعل هذا الباسل يهتم بخلاصها واخضاع
التتر وسيَّر جيشاً كبيرًا على المدينة المذكورة وكانت المسافة بين بلادهم وبينها
شهرين وسلَّم قيادة هذا الجيش الى احد اخصامهِ واما هو فعزم على الوصول
الى المدينة المذكورة من طريق اخرى كانت توصل اليها في مدة اسبوعٍ
واحد ولكن الناس لم يعتادوا سلوكها لكثرة افاعيها وضواريها وسمومها القتَّالة
وانتخب ستين بطلاً من الذين يعوَّل عليهم والبسهم مثلهُ ملابس التجار
واخترق الصحراء الهائلة بهم حتَّى اذا وصل الى المدينة دخلها بمن معهُ ولم
يعارضهُ احد وشاع فيها ان تجارًا من الاجانب جاؤوا ومعهم السلع الفاخرة
والاشياء الثمينة فاستدعاهم الملك اليهِ وابتاع منهم اشياء كثيرة ولم يتعرض
لهم احد في امورهم وكانت النار علامة بينهم وبين جيشهم الذي سيروهُ من
ناحية اخرى كما تقدم فلما شاع خبر وصول هذا الجيش الى البلاد وصار
على مقربةٍ من رويندة اوقد اسفنديار ومن معهُ نارًا عرف الايرانيون منها
ان مولاهم في المدينة فهجموا عليها في الحال وشددوا القتال حتَّى اذا كان
الكل في شغلٍ شاغل بالدفاع ثار الامير الايراني واعوانهِ الستون ثورة
الاسود الكاسرة وهجموا على قصر الملك فملكوهُ وخلصوا اخت الامير من
الاسر وقتلوا ارجاسب ومن حولهُ وفتحوا الابواب لاخوانهم وكان انتصار
الايرانيين في ذلك اليوم عظيماً

ولما اتمَّ اسفنديار هذه العظائم وارسل الى والدهِ الاميرة وتاج بلاد التتر

مع ما ملك من الغنائم اقامهُ الملك والياً على بلخ بذل التنازل لهُ عن الملك كما وعدهُ فرضي الامير بذلك ولم يعارض والدهُ في الامر ولكن الامر لم يطل عليهِ حتى دعاهُ والدهُ الى اصطخر ليزورهُ بدعوى الشوق الى رؤياهُ وكان جوشتاسب لم يزل يخشى شر ابنهِ فلما وصل اسفنديار الى قصر ابيهِ القي عليهِ القبض وارسل مكبلاً بالقيود الى احدى قلاع اذربيجان فعادت البلاد في الحال الى الفوضى وعاد التتر الى مهاجمتها واخذ الثار منها فنجحوا نجاحاً كبيرًا وكسروا جيوش ايران في كل معركةٍ حتى انهم قتلوا كل كهنة ايران ومن جملتهم الملك لوهراسب الذي كان معتزلاً للعبادة كما مرَّ واستولوا على راية الايرانيين العظيمة وهي رداء الحداد "قعوه" واخذوها معهم الى بلادهم فعدَّ ذلك مصاباً كبيرًا في كل بلاد ايران لما تقدم من احترامهم لهذه الراية وحفظها الى اوقات المصائب والملمات وفرَّ ملك ايران من وجه اعدائهِ وهم يطاردونهُ وكانوا على وشك الظفر بهِ وبما بقي من مملكتهِ لولا ان يلحَّ عليهِ وزيرهُ العاقل جاماسب بالرجوع عن معاداة ابنهِ ويضطرهُ الى اطلاق سبيلهِ مرة اخرى والاستعانة بهِ على الاعداء فرضي جوشتاسب بذلك على كرهٍ منهُ وذهب الى سجن ابنهِ فعانقهُ وطلب اليهِ الصفح وتعهد لهُ بالولاء والوفاء واعلمهُ بما صارت اليهِ البلاد من الذل وكان اسفنديار شديد الغيرة على دين زردشت وشرف الراية القعوانيَّة فلما علم ان التتر ملكوا الراية وذبحوا كهنة ديانتهِ لم يمكن لهُ الاباء عن القبول بطلب والدهِ فعاد الى رئاسة الجيش وهبَّ في وجه الاعداء هبوب الريح العاصف وانقضَّ على جموعهم انقضاض الرعد القاصف فاعمى بصائرهم بنار حربهِ ودوَّخهم بسمّ ضربهِ وردهم عن بلادهِ كما ردهم من قبل خاسئين خاسرين

واسترجع الراية منهم ونكل باكابرهم وحطم قواتهم تحطيماً وفعل بالجملة ما لم يفعلهُ اشهر ابطال ايران نعني بهِ رستم الشهير الذي مرَّ ذكرهُ وكان على قول التواريخ الايرانيَّة لم يزل الى ذلك الحين حيًّا واميرًا على سيستان منقطعاً الى العبادة والاحسان في آخر ايامهِ لا يجسر عدو على القرب من امارتهِ لما اشتهر عن بطشهِ وبسالتهِ

وكان اسفنديار كلما خدعهُ ابوهُ ينخدع نظرًا لكرم نفسهِ وطيب جبلتهِ فلما سحق الاعداء سحقًا وهدأ روع البلاد واتمَّ كل ما طلبهُ الملك منهُ جاء الى ابيهِ وطلب اليهِ الوفاء بالوعد والتنازل عن الملك فعاد جوشتاسب الى الحيلة واتى كل ما عندهُ من الفصاحة والدهاء لاقناع ابنهِ بما يريد وقال لهُ ما معناه اني كنت اود لو يمكنني التنازل عن سلطنة واسعة يسود فيها الامن ولا يعارضك في جهاتها معارض ولست اريد ان يقال اني سلمتك المملكة وفيها لنا من الاعداء من نخشى بأسهُ . فبهت اسفنديار من ذلك وقال لابيهِ ان قل من لك من الاعداء بعد هذا حتَّى اخضعهُ على شرط ان تفي بوعدك قال الملك ان عدوي الاكبر هو رستم امير سيستان فقد قوي نفوذهُ وتعاظم شرَّهُ حتَّى لم يعد في وسعي ان آمرهُ امرًا واريد منك الآن ياولدي ان تتم اعمالك العظيمة باسرهِ وتأتيني بهِ اسيرًا مشدود الوثاق فاذا انت فعلت ذلك وخلصت بلادك من رستم اقسمت لك بحق النور والنار وتربة اجدادنا الاخيار اني اتنازل لك عن الملك والنفس مني راضية . فوقع هذا الكلام على اسفنديار وقوع الصواعق لانهُ كان يحب رستم ويوقرهُ وحار في امرهِ فطفق الملك يزين لهُ ما يريد ويخدعهُ بالاقاويل حتَّى رضي بذلك وذهب ليستعد لهذا القتال العظيم فاختار جيشاً صغيرًا

كل افرادهِ ابطال بواسل وزحف بهم الى سيستان فاثار على رستم الحرب العوان وكان هذا البطل المجيد قد صار شيخاً ولم يشأ ان يكون اسفنديار خصمهُ في القتال شفقةً منهُ عليهِ فاتى لمسالمتهِ كل حيلة ولم ينجح وظلّ اسفنديار يطلبهُ للمبارزة حتّى برز اليهِ فلما التقى البطلان قال الامير لرستم انهُ سوف يقاتلهُ على كرهٍ منهُ ورجاهُ ان يسمح لهُ بتقييدهِ واخذهِ الى اصطخر ويتعهد لهُ بالاكرام والترضية حال وصولهِ ذلك لانهُ وعد بقضاء هذا الامر ولم يرَ منهُ بدًّا فلم يمكن لرستم القبول بهذا الطلب الغريب وعرض على اسفنديار ما يريد من المال او المساعدة لنوال الملك من ابيهِ فاصرّ الامير على طلبهِ ودخل الاثنان في القتال فتجاولا وتضاربا واظهرا من القوة والبسالة ما حيَّر العقول واذهل الابصار وظلاَّ على ذلك اياماً كثيرة وكان رستم لا يعلم كل هذا الاقتدار من خصمهِ فلما رأَى انهُ لا يقدر عليهِ بغير محاولة قتلهِ خطرهُ بالامر وحذرهُ فلم يحذر اسفنديار وظلّ على المقاتلة حتّى استلّ البطل رستم من سرجهِ سهماً قتالاً ورماهُ بهِ فاصابهُ بين عينيهِ واحس اسفنديار بقرب الاجل فوقع على الارض وقال «هذه آخرة الاعمال الوخيمة الّتي ساقني اليها طمع والدي» ومات بعد القليل فحملهُ رستم وسلمهُ الى آلهِ ولما علم جوشتاسب بذلك ندم على ما اتاهُ وطالت مدة حزنهِ وانتحابهِ على هذا البطل الصنديد الذي جرهُ الى حتفهِ وخسر بموتهِ خسارة لا تعوض

هذه هي رواية الايرانيين ترى منها انهم حكموا بوفاة اسفنديار مدة ملك ابيهِ ولم يذكروا انهُ ملك في دورهِ لان معظم تاريخ اسفنديار او زركسيس حروب مع بلاد اليونان وكان النصر فيها كلها لاعدائهِ وسننقل ما يجيء من تاريخ هذا الملك عن التواريخ اليونانيَّة وان تكن لا تخلو من المبالغة في وصف

جبن الايرانيين وبسالة اليونانيين وانتصارهم في كل معركة هائلة وهذه خلاصة الذي رواهُ كتَّاب اليونان عن الملك زركسيس الذي يسميهِ الايرانيون اسفنديار

لما قضى داريوس هستاسبس نحبهُ عام ٤٨٥ قبل المسيح خلفهُ في الملك ابنهُ زركسيس فجعل همهُ الاول اخضاع الثائرين ومعاقبة الذين حاربوا والدهُ من قبلهِ او شقوا عصا طاعتهِ وسير جيشاً جرارًا على مصر فأَخضعها بدون عناءٍ كبير وشدد الوطأَة على اهلها مثل من تقدمهُ من ملوك الايرانيين من بعد كورش وفرح بهذا النصر فعزم على الاخذ بالثار من اليونان وبدأَ بجمع الكتائب والجيوش الجرارة والاهبة الوافرة والذخائر الزائدة حتى اجتمع لديهِ ما لم يجتمع لدى مليك من قبلهِ ولا سمع بمثلهِ البشر من بعدهِ الوف مؤَلفة من الابطال والمقاتلين جاءُوا عاصمتهُ من كل اقطار مملكتهِ الواسعة حتى ضاقت بهم الارض على رحبها وبلغ عددهم على ما روى المؤَرخون نيف وثلاثة آلاف الف مقاتل وقد يكون في هذا مبالغة كبرى ولكن المؤَكد الذي لا ريب فيهِ هو ان جيش زركسيس الذي زحف بهِ على بلاد اليونان بعد ان قضى خمسة اعوام في جمعهِ واتمام معداتهِ اكبر جيشٍ سمع بهِ البشر من قبل هذا الملك العظيم ومن بعدهِ ولم يزل الناس يضربون المثل الى هذا اليوم بجيش زركسيس وعددهِ الهائل

واتحد زركسيس مع اهل قرطاجنة وفينيقية على محاربة اليونان بحرًا وكانت الاولى في ذلك الحين اقوى الممالك البحريَّة وخصَّ سفنها بمحاربة الجزر والمستعمرات اليونانيَّة وتقدَّم هو بجيشهِ العظيم الطامي على البلاد الَّتي ارجعت والدهُ من قبلهِ بالذل والفشل . وما صدَّق هذا الملك ان وصل الى

باب البلاد اليونانية بعد ان اخضع ثراقيا ومكدونيا حتى اعترضهُ في سبيلهِ جيش صغير من اسود اليونان الكواسر لا يزيد عددهم عن ثمانية آلاف تحت امرة الليث الضرغام والبطل الهمام ليونيداس ملك اسبرطه الذي تضرب ببسالتهِ الامثال الى هذه الايام وقف لهُ في الطريق وسدَّ عليهِ باب الدخول الى بلادهِ في ممرٍّ ضيق صار اسمهُ من بعد تلك الايام أشهر من نار على علم نعني بهِ مضيق ثرموبولي الشهير الواقع في شمالي بلاد اليونان والفاصل بينها وبين ولاية ثساليا . فلما علم ملك الفرس بوجود هؤلاء الاعداء وقلة عددهم بعث اليهم في الحال برسولٍ من قبلهِ يأمرهم بالتسليم واعطاء ما في ايديهم من السلاح فهزأ الاسبرطيون بهذا الطلب وردوا الرسول خائبًا مدحورًا بعد ان علموهُ ان يقول لمولاهُ ان تعال وخذ ما في ايدينا من السلاح وطفقوا يتزينون ويمشطون شعورهم ويطربون استعدادًا للحرب على عادتهم فلما رأى الملك الايراني منهم ذلك وسمع جوابهم هاج وماج وامر بعض قوادهِ في الحال ان يهاجمهم ويقتلهم عن بكرة ابيهم او يأتيهِ بهم اذلاء خاسرين ففعل ذلك وقتل مع الفريق الاكبر من رجالهِ ثم تلاهُ آخر من القواد وتحت امرتهِ جيش كبير ففعل بهِ اولئك الابطال ما فعلوا بالذي تقدمهُ ولم تقوَ عليهم تلك الجيوش الجرارة العظيمة لانهم كانوا في حصنٍ حصين ولم يمكن للايرانيين الاحاطة بهم والتغلب عليهم بقوة العدد والعَدَد ورأى زركسيس انهُ اذا ظلَّ الحال على هذا المنوال قتل جيشهُ عن آخرهِ ولم يصب اعداؤهُ القليلون بضرٍّ فعوَّل على الرجوع عنهم واوشك ان يأمر عساكرهُ بالقهقرى اذ جاءهُ خائن من اليونانيين فرَّ من بين اخوانهِ ودلهُ على سكة يصل بها الى رأس الجبل من فوق مضيق ثرموبولي فتحيط عساكرهُ بشرذمة

ليونيداس من كل جانب ويضطروهم الى الطاعة او الموت في ذلك المحل من العطش والجوع ففرح الملك بهذا الرأي وامر بالعمل بهِ في الحال وبان لهُ وجه النجاح عند ما رأى خصومهُ على هذه الحال فلما أحسَّ ليونيداس بالامر علم ان الموت قرب منهُ ومن رجالهِ واشار على الذين معهُ من غير الاسبرطيين ان يتخلصوا من الموت بالانسحاب واما الاسبرطيون فلم يمكن لهم الرجوع عن القتال لان عوائدهم وشرائع بلادهم كانت تحتم عليهم بغير ذلك . فسمع الجنود رأيهُ وودعوهُ ورجالهُ وفرُّوا بأنفسهم وما ظلَّ في تلك الساحة الشهيرة غير ليونيداس والف بطل من ابطال اسبرطه . وكان هذا القائد الباسل ينوي الهجوم ليلاً بمن بقي معهُ على جيش الفرس والتوصل الى زركسيس حتَّى اذا قتلهُ او اسرهُ فاز بالمراد واضطرَّ الاعداء الى الرجوع عن بلادهِ فأعلن رفاقهُ بذلك وبدأوا يتهيأون لهذا العمل الخطر الشاق حتَّى اذا جاء الليل وشرعوا فيهِ وجدوا امامهم سورًا بعد سور من الرجال فضاعوا بين الفرس وجموعهم كما يضيع الجدول الصغير في البحر وظلوا يقاتلون ويحاربون حتى اذا جاء الصباح وتكاثر عليهم الاعداء يجيئونهم جيشاً بعد جيش خارت قواهم وضاعت حيلتهم فلم يعد الواحد منهم يقوى على تحريك يدهِ من التعب والجوع وسقطوا عن آخرهم وهم يقاتلون الى آخر رمق من حياتهم ولم يروِ التاريخ ان جماعة اشتهرت بالبسالة الى هذا الحد او ان القتال جرى بين فريقين على مثل هذا الحال

وتحارب الفريقان بحرًا عقيب معركة ثرموبولي هذه فانتصر اليونان انتصارًا تامًّا على عمارة الفرس ولكنهم اضاعوا لذة النصر وفائدتهِ بخسارة المضيق الذي ذكرناهُ وفقد الابطال الذين كانوا يعوّلون عليهم في ساحة

النزال . وكان زعيم اليونان ورئيس حكومة اثينا وقتئذٍ رجل شهير في الحرب والسياسة اسمهُ تمستوكلس فاشار على اهل بلادهِ بالانسحاب الى الجهات الجنوبيَّة وكتب الى المستعمرات اليونانيَّة في اسيا يحرضها على عدوان الفرس ومقاتلتهم والامتناع عن تقديم السفن لهم فلما سمع زركسيس بهذه المخابرة امتنع عن استخدام هؤلاء القوم وكانوا احسن الذين يمكن لهم نفعهُ بما لديهم من السفن وما عندهم من الخبرة في مياه اليونان وثغورها وعلم ان الانتصار على الاعداء في البحر من اصعب الامور فوجه اهتمامهُ الى البر وما لديهِ من القوات الهائلة وهجم على هيكل شهير لليونان في بلدة دلفي كانوا يحجون اليهِ ويقصدونهُ من اقصى الجهات وكان كهنتهُ على جانب عظيم من العلم والذكاء يستشيرهم الناس في امورهم الحاضرة والمستقبلة فيجيبونهم اجوبةً مبهمة تحتمل المعاني الكثيرة وتوافق معنى السؤال وتمكَّن الاعتقاد عند اليونانيين بصحة الانباء الَّتي تفوه بها الالهة في هيكل دلفي حتَّى جعلوا يعملون بها في كل حال ويسيرون على اشارتها في كافة الاعمال. فلما قرب عساكر الفرس من هذا الهيكل الشهير ثارت عليهم العواصف وانهالت من فوقهم الامطار وكثر الرعد والبرق فتوهموا ان الالهة غضبت عليهم وبدأَت بمعاكستهم فصغرت نفوسهم وتضعضعت احوالهم وكان بعض اليونان قد علموا بقدومهم واستعدوا لمقاتلتهم ففاجأُوهم وهم يضربون اخماساً لاسداس بعد ذلك المصاب وبددوا شملهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً فعاد الباقون بالذل والخيبة الى مولاهم واخبروهُ بما كان من امرهم فزاد الهم على قلبهِ وتقدم بجيشهِ العرمرم على مدينة اثينا فلما صار على مقربةٍ منها ورأَى تمستوكلس ان المدينة لا تقوى عليهِ ولا تتمكن من ردهِ وخاف ان هو حاصرها ببعض

من عنده يمنع ابطالها من رد الباقين من الايرانيين عن الولايات اليونانيَّة اشار على اهل مدينتهِ بهجرها وعملوا باشارتهِ فذهب كل طفلٍ وعاجز منهم الى احدى المدن المجاورة وسار المقاتلون والمقاتلات من ناحية اخرى الى جزيرة سالاميس وهي من الجزر الكائنة على مقربةٍ من مدينة اثينا . فلما خلت هذه المدينة العظمى من اهلها ووصلها جيش ايران امر الملك بايقاد النار فيها فأُحرقت عن آخرها ولم يبقَ فيها شيءٌ من آثار صناعها ورجالها الاقدمين وبكى الاثينيون بكاءً مرًّا على منازلهم وآثار اجدادهم ومشاهد عظامهم ولكنهم صبروا على الضيم وعولوا على الاخذ بالثار وايثار الموت على الرجوع عن عناد الفرس ومحاربتهم اينما كانوا . ولما تمَّ ذلك للملك زركسيس وذاق طعم النصر من بعد فرار الاعداء من وجههِ عوَّل على محاربتهم في البحر وقطع آمالهم من الحياة وكان القائد العام للسفن اليونانيَّة يوربيادس ملك اسبرطه فتغلب عليهِ الجبن واراد الانسحاب من موضعهِ والاقتصار في محاربة الفرس على الدفاع عن نقط معلومة وترك ما بقي من البلاد لعساكرهم الى ان تتغير الاحوال وتمد اليهم الظروف يد الاسعاف فلم يوافقهُ رجل ذلك العصر ثمستوكلس وتغلب عليهِ في الرأْي فاضطرهُ الى المخاطرة والاقتحام وعول اليونان من بعد ذلك على الحرب العوان والموت في سبيل المجد والدفاع عن الاوطان وكانت قوات البحر اليونانيَّة كلها في سلاميس فخشي ثمستوكلس الاَّ يهاجمهم الفرس فيضطر الى مبارحة ذلك المركز المنيع واحتال على ملك الفرس اذ ارسل اليهِ رسولاً ادعى انهُ عدو قومهِ فرَّ من ظلم اكابرهم وخدع الملك بالمحال فزين له الهجوم على عمارة اليونان في الحال وانطلت الحيلة فنال زعيم الاثينيين مرادهُ ولما انتشب

القتال بين العمارتين صعد الملك زركسيس الى مرتفع في البر يشرف على محل الواقعة ليرى كيف تفتك سفنهُ بالاعداء فخابت آمالهُ وحبطت اعمالهُ ورأى بعينهِ الموت الاحمر يحيط برجالهِ من كل جانب واعداؤهُ البأسلون يحطمون السفن ويهلكون الابطال في كل حركةٍ يأتونها واستولى الرعب على قلوب الفرس ومحالفيهم وساد الاضطراب على جموعهم فجعلت سفنهم تنطح بعضها بعضاً وهي تحاول الفرار وابطال اليونان يوالون عليها الضربات القاضية حتى كسروها شر كسرة واضطروا مليكها الى الفرار خوفاً من وصول الاعداء اليهِ فلحظ ثمستوكاس على شهرتهِ في الذكاء ان ملك الفرس كان يفكر في الفرار واراد ان يحقق هذه الامنيَّة ويعجل رحيلهُ عن بلادهِ فبعث اليهِ من دسَّ اليهِ ان جماعة اليونان شرعوا في سد المسالك في وجههِ وقطع خط الرجوع عليهِ فخاف الملك ان يصحَّ القول ويبلى بالقوم في طريقهِ فيتعذر عليهِ الرجوع الى بلادهِ والتنعم باطايب قصرهِ واسرع في الرحيل والفرار بعد ان ابقى مع الامير ماردونيوس الذي مرَّ ذكرهُ ثلثماية الف مقاتلٍ وعاد هو الى بلادهِ يحرق الأَرم وينوي لجماعة اليونان كل ضرٍّ وشر

وبقي ماردونيوس مدة الشتاء بعد سفر مولاهُ لاَ يبدي حراكاً حتى اذا جاء الصيف بدأَ بالحركات وبعث رسولاً الى اهل اثينا يعرض عليهم اعادة بناء مدينتهم والرضى عنهم وغمرهم بالاحسان الكثير على شرط ان يعدلوا عن محاربتهِ وينقلبوا على بقية اعدائهِ من اليونان فرفضوا هذا الطلب رفضاً باتًّا خلافاً لما كان يظنهُ البعض فيهم فعاد جيش الفرس الى مهاجمة البلاد وانحط بكلكلهِ على القرى التابعة لاثينا فدمرها عن آخرها وكان اهل اسبرطه الى ذلك الوقت لم يدخلوا في الحرب دخولاً تامًّا من بعد واقعة ثرموبولي

وسقوط ملكهم ليونيداس حسدًا من اهل اثينا وميلاً منهم الى خرابها واذلال اهلها ولكنهم اضطروا في آخر الامر حياءً الى التقدم لمعاونة الابطال الذين كانوا يجاهدون في الدفاع عن البلاد برمتها فلما انضم جيشهم الى جيش اثينا بدأوا بمهاجمة الفرس والتقوا بهم في ساحة بلاتيا فحاربوهم يوماً كاملاً وكان يوماً يذكر سالت فيهِ الدماء من الجانبين ونعق فوق الرؤوس غراب البين وكثر الكر والفر وفعل اليونان فعال الابطال حتَّى اوقعوا الرعب في قلوب اعدائهم وكسروهم شر كسرة وظلوا مدة ذلك اليوم بطولهِ والذي يليهِ يقتلون منهم ويأسرون ويحببون الى جموعهم سبيل الفرار حتَّى بلغ عدد ما خسرهُ القائد الايراني في هذه المعركة العظيمة مايتا الف رجل او تزيد فزاد بهِ القنوط وتولاهُ الفشل وجعل يهتم بسلامتهِ ورجوعهِ من بلاد اليونان بعد ان تكفل لمولاهُ باخضاعها وفرَّ بمن بقي من رجالهِ بعد ان ترك الذخائر الوافرة والغنائم الكثيرة للفائزين وكان ذلك في اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٤٧٩ ق . م

وحدث في ذلك اليوم بعينهِ ان انتصرت العمارة اليونانيَّة على عمارة الفرس في شمالي الاناضول وسحقتها سحقاً وغنمت منها الذخائر والمؤَن فتم بذلك النصر لليونان وتسنى لهم السيادة التامة على البحار واستقلت كل المستعمرات اليونانيَّة الَّتي كانت تابعة لايران ما خلا الَّتي آثرت البقاء على حالها منها لان الايرانيين كانوا يعاملونها بالحسنى ويعطونها الامتيازات الكثيرة . وهكذا تمَّ النصر لليونان في هذه الحرب العظيمة في البر والبحر وعادت جيوش ايران او ما بقي منها الى بلادها ولم تذق مِنْ قبل تلك الايام ذلاً وويلاً قدر ما ذاقت في حروبها مع اهل اثينا واسبرطه

ويرجحون ان زركسيس او اسفنديار هو الملك احشويروش المذكور في سفر استير من التوراة لان القصة الموضحة في ذلك الموضع تنطبق عليهِ وتدل على انهُ كان ضعيف الرأْي يميل مع الاهواء ويصبو الى الانغماس في الشهوات والرذائل شأن الملوك في كل بلادٍ اذا قربت آخرة دولتهم. وحكم ١٥ سنة قتلهُ في آخرها احد قوادهِ واسمهِ ارطبانوس مع ابنهِ نخلفهُ في الملك ابنهُ الاصغر ارتكزركسيس واسمهُ في التواريخ الايرانيَّة اردشير بهمان بن اسفنديار وكان ذلك في سنة ٤٧٠ ق . م. وكان ارطبانوس الذي نصب اردشير بهمان على الملك يطمع في السيادة والنفوذ والتسلط على الملك الجديد لصغر سنهِ نخاب ظنهُ وانتقم منهُ الملك بالتعذيب والقتل في اول فرصة جزاء خيانتهِ لوالدهِ من قبلهِ . وكان اردشير ملكاً عادلاً محبًّا لرعيتهِ غيورًا على صالحها فجعل يهتم في اصلاح شؤُونها ولم شعثها لانها اوشكت ان تسقط مدة حكم ابيهِ من الكسرات المتوالية في حروب اليونان واغفال امر الملك واظهر اشفاقاً على الامة اليهوديَّة وميلاً الى انصافها فارسل النبيين عزرا ونحميا الى بلاد فلسطين لاعادة بناء القدس وما حولها وكان اليهود الى ذلك الحين في ذل الاسر ونكاية الاعداء الذين كانوا كل يوم ينوون اعدامهم عن آخرهم بامرٍ جديد. ووجه هذا الملك كل اهتمامهِ الى بقيَّة ولاياتهِ الواسعة فنجح في اصلاحها بعض النجاح ولكن آثار الانحلال والخراب كانت باديةً على هذه المملكة فلم تثمر مساعيهِ الثمرة المقصودة. ولم تبطل الحرب في ايامهِ مع اليونان ومن سوء حظ المملكة الايرانيَّة انها بليت في آخر ايامها باعداء اشد من رجالها بأْساً وأعلى همةً واوفر ذكاءً وعلماً ظلوا يحاربونهم ويقاتلونهم حتَّى سطوا عليهم سطوة الجبار وملكوا منهم البلدان والامصار في عهد الاسكندر المكدوني كما سيجيء. فلما

كثر انتصار اليونان في كل جانب اضطرَّ الملك اردشير بهمان الى عقد صلح مع هؤلاء الاعداء الباسلين اشترط فيهِ على نفسهِ اخلاء البحار اليونانيَّة وكل مستعمراتها وشطوط اسيا الصغرى الغربيَّة من جنودهِ وكان هذا الصلح ضربةً قاضيةً على هناء ملك ايران ولكنهُ لم يرَ منهُ بدًّا وتمَّ امرهُ سنة ٤٤٩ ق . م .

وكثرت الدسائس والثورات في داخليَّة المملكة الايرانيَّة ايضاً مدة حكم هذا الملك وكان في جملة الذين شقوا عصا طاعتهِ اخوهُ هستاسبس ثار بجيش من اهل اذربايجان يريد خلعهُ والاستئثار بالملك من بعدهِ ولم يقدر الملك على اخضاعهِ الاَّ بعد الجهد الجهيد . وثارت مصر سنة ٤٦٣ ق . م تريد الحريَّة والاستقلال فساعدها ملك ليبيا واتت عمارة يونانيَّة لمعونتها وكان المصريون كما قدَّمنا اكثر الناس كرهاً للايرانيين واشدهم ميلاً الى الانتقام منهم والبعد عنهم فأرسل اليهم اردشير جيشاً تحت قيادة اخيهِ وبعد القتال الكثير انتصر العصاة عليهِ وقتلوهُ مع العدد العديد من رجالهِ فأمر اردشير عاملهُ في سوريَّة ان يزحف عليهم ويأخذ بثار اخيهِ وعساكرهِ منهم ففعل الوالي ذلك وبدد شمل العصاة فسلمَّ لهُ انأروس ملك ليبيا وفرَّ حليفهُ اميرتيوس الى نواحي البحيرة فاختبأ في مجاهلها وتحصن بمستنقعاتها وظلَّ مدة طويلة يناوش جيوش الفرس ويضايقهم ويعود الى مكامنهِ فلم يتمكنوا من اخضاعهِ وحدث ان ام ملك مصر ارادت الانتقام من ملك ليبيا على استسلامهِ للايرانيين وتمكينهم من قتل ولدها فطلبت من اردشير ان يسلمهُ الى رجالها حتَّى تنتقم منهُ ومانع الملك في اول الامر الاَّ ان الالحاح الكثير تغلب عليهِ فأجاب سؤْلها وامر بتسليم الذي اعانهُ عليها الى يدها وكان والي سوريَّة مغابيزوس

الذي اخضع البلاد واضطرَّ اناروس الى التسليم يعلم ان تسليم الرجل بعد دخولهِ في طاعة ايران ذل فمانع في الامر وجاهر بالعصيان سنة ٧٤٧ ق.م فجاءتهُ جيوش الملك وكسرها مرارًا حتَّى اضطرَّ اردشير الى مصالحتهِ وقبول مطالبهِ فسكت مغابيزوس وسلَّمَ نفسهُ لمولاهُ الذي اظهر لهُ الرضى وغمرهُ بالاحسان واستدعاهُ الى عاصمتهِ فما عتم ان وصلها حتَّى القى عليهِ الملك القبض واماتهُ في السجن بعد العذاب الكثير فسبب ذلك غيظًا كثيرًا بين اقارب مغابيزوس واعوانهِ وظلوا مدة طويلة يقلقون الملك بدسائسهم وعصيانهم فعمَّ الاضطراب في مملكة ايران عند آخر حكم اردشير بهمان كما عمَّ العدل والاصلاح في اولهِ ومات هذا الملك من كثرة همومه عام ٤٢٤ ق . م بعد ان حكم مدة طويلة لم يذق في خلالها الراحة ورأى بعينهِ قرب انحلال مملكتهِ وسقوطها . وخلفهُ في الملك ابنهُ الوحيد زركسيس وليس لهُ ذكر في التواريخ الايرانيَّة

وبعد ان تولى زركسيس الثاني الملك في سنة ٤٢٤ ق . م حاول ان يصلح البلاد ويلم شعثها فلم يمهلهُ الزمان وقام عليهِ اخوهُ صوغديانوس فقتلهُ بعد ان حكم ٤٥ يومًا فقط وتولى القاتل الملك من بعدهِ ولكنهُ لم يهنأ بهِ زمانًا اذ قام عليهِ امير آخر وقتلهُ وقبض على زمام الملك وسمَّى نفسهُ داراب وهو المعروف في التاريخ باسم داريوس نوثوس

وكانت دولة الفرس تنحط وتتقهقر يومًا بعد يوم وآثار الاضمحلال تبدو عليها فانتهز الولاة فرصة تولي داريوس نوثوس وضعفهِ واستبد معظمهم بولاياتهم حتى ان امرتيوس المصري عاد الى العصيان وفاز بالاستقلال فاعاد المملكة المصريَّة الى ما كانت عليهِ قبل ان اخضعها الفرس ولكنهُ كان

يعترف بسيادة ملك ايران عليهِ ولا يدفع لهُ جزيةً . وكان اليونان في ايامهِ لاهين في حرب اهليَّة فلم يتعرضوا لدولة ايران وكان الامير كورش اخو الملك والياً على الولايات اليونانيَّة في اسيا الصغرى فانتهز فرصة اشتغال الاعداء بمحاربة بعضهم البعض وساعد اهل اسبرطة على اهل اثينا فاضرَّ بهم ضررًا بليغاً

ومات داريوس نوثوس سنة ٤٠٥ ق . م . فخلفهُ ابنهُ ارتكزركسيس منيمون سمّي بذلك لقوة ذاكرتهِ ولم يستتب لهُ الملك حتى هبَّ اخوهُ كورش لمعارضتهِ وكان هذا الامير والياً على القسم الغربي من المملكة الايرانيَّة كما مرَّ فتقدم على عاصمة المملكة بجيش من الايرانيين واليونان ونجح في بادئ الامر نجاحاً كاد ينيلهُ المطلوب الاَّ ان السعد خانهُ فقتل في معركة كوناكس سنة ٤٠١ ق . م . واستبدَّ ارتكزركسيس بالملك من بعدهِ وكان المحاربون اليونان الذين جاءُوا مع كورش لمحاربة اخيهِ الملك يبلغون عشرة آلاف عدًّا تحت قيادة رجل شهير من اهل اثينا اسمهُ زنوفون فلما قُتل اميرهم عادوا الى بلادهم بعد ان حاربوا جيوش الفرس طول الطريق وذاقوا الاهوال وكان قائدهم زنوفون من الكتَّاب والمؤَرخين وهو صاحب التاريخ الشهير الذي نقل عنهُ الافرنج الشيء الكثير من الاقاصيص والحكايات عن تاريخ ملوك ايران الأُوَل . وكانت ام هذا الملك تحب ابنها الاصغر كورش الذي قُتل في الحرب وتريد ان يكون هو الملك فلما مات المذكور جعلت تنتقم من كل من اشترك في قتلهِ وتمكنت من التسلط على عقل هذا الملك الضعيف والتلاعب بهِ كيف شاءَت فكثر القتل وعمت الدسائس في ايامها وكانت هي الحاكمة الحقيقيَّة في المملكة وابنها رهين اشارتها لا يعصي لها امرًا .

وانتهز اجسلاوس ملك اسبرطه فرصة انهاك البلاط الايراني بهذه الدسائس والمشاكل فتقدم على الولايات الغربيّة وبطش بعساكر الملك الايراني وكان على وشك تجزئة المملكة وامتلاكها كما فعل الاسكندر من بعدهِ لولا ان يخونهُ بعض قومهِ طمعاً بمال الفرس وهدايا ملكهم وكان هذا الملك قد عمد الى المال والرشوة لانفاذ مآربهِ فنجح في اول الامر واضطرَّ ملك اسبرطه الى الرجوع عن قصدهِ والعود الى بلادهِ

وكثرت القلاقل والثورات في ايام هذا الملك حتى عجز عن تدبير المملكة وحاول ان يعيد مصر الى دولتهِ فلم ينجح وعادت عساكرهُ بخفي حنين لخلاف طرأَ بين القواد والمحاربين وكانوا خليطاً من اليونان والايرانيين وهبت قبرص الى الثورة فاستقلت بعد ان ملكها الفرس زماناً طويلاً وقامت الولايات اليونانيَّة عن بكرة ابيها تطالب بالاستقلال وتمرَّد ابنهُ الاكبر عليهِ وشقَّ عصا طاعتهِ فاضطرَّ الى الحكم عليهِ بالاعدام وكان لهُ ابن اصغر اسمهُ اوخوس يريد نوال الملك من بعد ابيهِ فقتل اخاهُ الآخر وزاد هموم الملك زيادةً عجلت وفاتهُ فمات سنة ٣٦٠ ق . م . حزين القلب كثير الهموم

ولما استتبَّ الملك لاوخوس سمَّى نفسهُ ارتكزركسيس الثالث وكان يخاف على نفسهِ من امراء عائلتهِ ويحسب حساب كرههم لهُ فأمر بقتل الكل عن آخرهم وذبح ثمانين اميرًا منهم في يوم واحد فنفر الناس من فظائع هذا الملك نفورًا كبيرًا واوعز فريق منهم الى ارتبازوس امير اسيا الصغرى ان يتقدم لمحاربتهِ فقام هذا الوالي على مليكهِ وساعدهُ بعض اليونانيين ولكن اوخوس كان شديد العزم كثير البسالة اشتهر بشجاعتهِ قدر ما اشتهر بقساوة قلبهِ فتغلب على ارتبازوس واضطرهُ الى الفرار من المملكة

والالتجاء الى اعوانهِ في بلاد اليونان ولما تمَّ لهُ النصر على هذا العدو الكبير تقدم لمحاربة بلاد الشام الّتي كانت قد جاهرت بالعصيان وتمكنت من الاستقلال بمساعدة اهل مصر وقبرص فسحق جيوشها وفلَّ جموعها وخرب صيدا وكانت اشهر مدائنها ودمر قراها ونهب اموالها وعاد منها بالغنائم بعد ان مكن قدم دولتهِ فيها وتقدم منها الى قبرص ففتك باهلها وانتقم منهم على عصيانهم ومساعدتهم الثائرين عليهِ وظهر للملإِ ان هذا الملك سيعيد المملكة الايرانيَّة الى سابق عزها ولكن القدر المحتوم عاجلهُ على يد احد اعوانهِ كان ناقمًا عليهِ يريد قتلهُ جزاء قسوتهِ وفظائعهِ فدسَّ لهُ احد الخصيان السم في طعامهِ ومات سنة ٣٣٥ ق . م. ولم يقم بعدهُ ملك باسل على المملكة الايرانيَّة

وكان الخصي الذي قتل اوخوس يريد الاستبداد بالامر فنصب اصغر اولاد مولاهُ على العرش واسمهُ ارسس ولكن هذا الفتى لم يهنأْ زمانًا بالملك حتى فعل بهِ الخصي الخائن ما فعل بابيهِ وولى مكانهُ داريوس قودومانوس وهوآخر ملوك هذه الدولة الايرانيَّة وكان ذلك في سنة ٣٣٦ ق . م. وكان الخصي يريد ان يحكم في البلاد على ما يريد فلما رأَى ان داريوس لا يوافقهُ على رغائبهِ عزم على دس السم لهُ وقتلهِ كما قتل الملكين السابقين من قبلهِ فعلم داريوس بالامر والزم هذا الخائن ان يشرب السم الذي كان قد حضرهُ لمولاهُ فشربهُ ومات غير مأسوفٍ عليهِ . واستبدَّ داريوس بعد هذا بالحكم ولكن ايام دولتهِ كانت معدودة وجاءت آخرتها يوم ظهر الاسكندر ذو القرنين وهاجم مملكة الفرس الواسعة بجيش صغير من ابطال اليونان سحق قوات الفرس ومحقها وجعل قوتها السابقة هباءً منثورًا وكان الاسكندر ينتصر في كل معركةٍ حتَّى ملك البلاد وفرَّ داريوس قودومانوس من وجههِ فقتلهُ احد

الخصيان وانتهى بذلك حكم هذه الدولة الايرانيّة ودخلت البلاد في حوزة الدولة اليونانيّة . وهذا جدول ملوك الدولة المستاسبيّة على رواية هيرودوتس

داريوس هستاسبس	من	٥٢٢	— ٤٨٦	ق . م
زركسيس الاول	"	٤٨٦	— ٤٦٥	"
ارتكزركسيس لونجمانوس	"	٤٦٥	— ٤٢٣	"
زركسيس الثاني } صوغديانوس	"	٤٢٣	— ٤٢٢	"
داريوس نوثوس	من	٤٢٢	— ٤٠٥	ق . م
ارتكزركسيس منيمون	"	٤٠٥	— ٣٥٨	"
اوخوس	"	٣٥٨	— ٣٣٨	"
ارسس	"	٣٣٨	— ٣٣٦	"
داريوس قودومانوس	"	٣٣٦	— ٣٣١	"

وهذا جدول اسمائهم على رواية التواريخ الايرانيّة

كشتاسب (داريوس هستاسبس)	حكم	٦٠	سنة
بهمن (داريوس لونجمانوس)	"	١١٢	سنة
هماي (ملكة)	حكمت	٣٢	"
داراب الاول (منيمون)	حكم	١٢	"
داراب الثاني (قودومانوس)	"	١٢	"

الدولة اليونانية

يبتدئ تاريخ هذه الدولة بحكاية الاسكندر المكدوني الملقَّب بذي القرنين اعظم من قام على وجه هذه الارض واشهر من قاد الجيوش وفتح البلدان في الطول والعرض . ولما كان هذا الفاتح العظيم من أشهر الذين حكموا ايران وغيَّروا شؤُونها رأَينا ان نأْتي هنا على طرفٍ من تاريخهِ نوردهُ بالاختصار فنقول

جلس هذا الملك الكبير على عرش مكدونيا في سنة ٣٣٦ ق . م . واستهلَّ حكمهُ باخضاع القبائل الَّتي شقت عصا طاعتهِ في شمالي بلادهِ وما عتم ان أَخضع هؤُلاء حَتَّى عصتهُ بلاد اليونان الَّتي ضمها والدهُ فيلبس الى املاكهِ فأَسرع الاسكندر بخيلهِ ورجلهِ الى مدينة ثيبس وهي الَّتي كانت في مقدمة المدائن الثائرة فدمَّرها عن آخرها وقتل اهلها او باعهم عبيدًا وشدَّد الوطأَة عليها حَتَّى انهُ ندم بعد حين على افراطهِ في القسوة ولكن ذلك افادهُ وأَخر بقيَّة اليونان عن القيام عليهِ ولما كان هذا الملك ينوي الغزو والفتح فرح بسكوت اليونان عنهُ والَّف منهم ومن اهل بلادهِ مملكة قويَّة وكل عليها انتيباطر احد قوادهِ وتقدم هو بجيش صغير من البلادين لمحاربة الدولة الايرانيَّة الَّتي كان ينوي فتح بلادها ساعة جلوسهِ على العرش وما عتم ان وصل الى اسيا الصغرى حَتَّى حارب ولاتها مع كثرة عدد عساكرهم وانتصر عليهم انتصارًا تامًّا فصارت الولايات الايرانيَّة في الغرب من املاكهِ في الحال وتقدم على بلاد الشام وهو يفل الجيوش ويبطش بقوات الملك الايراني حَتَّى وصل الى صور وحاصرها طويلاً حَتَّى ملَّ من طول الصبر عليها ولما فتحها

بعد العناء الكثير فتك بها فتكاً ذريعاً ونكل بحكامها واهلها وتقدم منها على بقيَّة مدائن الشام فخضعت لهُ من غير قتال ما خلا غزة فانهُ ملكها بعد القتال الشديد . ولما انتهى من اخضاع الشام قصد القطر المصري وكان اهلهُ كما تقدم يريدون الخلاص من الايرانيين على اي حال فرحبوا بالاسكندر وسلموهُ البلاد بلا حرب ولا قتال واكرموهُ اكراماً زائدًا وجاهر كهنتهم بان اصلهُ من اولاد الالهة وعدوهُ منقذ مصر ومخلصها من جور الايرانيين الذين ظلموهم وأذلوهم كل تلك الاجيال الطوال

واسرع الاسكندر من مصر الى بلاد ايران ليخضع بقيَّة املاكها وظلَّ يتقدم وينتصر في كل معركة حتَّى لقيهُ داريوس قودومانوس آخر الملوك الايرانيين بجيش عظيم على مقربة من اربلا وهي بلدة في سهول الجزيرة وانتشب القتال الهائل بين الفريقين فانتصر الاسكندر انتصارًا عظيماً وفرَّ داريوس ثم قُتل على ما مرَّ وتقدم الاسكندر الى خراسان وبلاد التتر وسيستان وغيرها من املاك الفرس فضمها الى مملكتهِ في الحال ثم عزم على فتح بلاد الهند في سنة ٣٢٧ ق . م فاخضع بعض اجزائها ولما طالت مدة غيابهِ ومال افراد جيشهِ الى الراحة في الاوطان اضطرَّ الى الرجوع ووصل بابل وكانت مدينة عظيمة لها موقع بديع يصل الشرق بالغرب فعزم على نقل الملك اليها وجعلها عاصمة سلطنتهِ الواسعة ولكن المنيَّة عاجلتهُ من افراطهِ في السكر عادة كانت في المكدونيين يكثرون من شرب الخمر بعد القتال والنصر فتوفي في بابل في اليوم الثامن والعشرين من شهر ماي سنة ٣٢٣ ق . م . وتجزأت مملكتهُ من بعدهِ فأُعطيت الاجزاء الشرقيَّة الى سلوقوس احد قوادهِ العظام وكانت بلاد ايران في جملتها

ويروي المؤرخون الايرانيون ان ملوك ايران كانوا يتقاضون الجزية من أمارة مكدونيا فلما توفي فيلبس وعقبهُ الاسكندر جاء رسل الملك الايراني يطلبون الجزية على عادتهم وكان ملك مكدونيا من قبل ذلك اليوم يدفعها سبايك من الذهب الخالص على شكل البيض فقال لهم الاسكندر ان عودوا الى ملككم واخبروهُ ان الطير الذي كان يبيض الذهب فرَّ وطار الى غير هذه الدنيا ولعلهُ أفهمهم انهُ كان ينوي مهاجمة بلادهم واخذ المال منهم بدل اعطائهِ اليهم . وكان من امرهِ ما تقدم فلما فتك بجيوش الفرس وفرَّ داريوس بعد موقعة اربلا التي اتينا على ذكرها علم الفاتح العظيم ان ملك ايران في قبضة بعض اللئام من قومهِ فاسرع في الحال الى انقاذهِ ولكن القوم ظنوا انهم ينالون النعم من الفاتح اذا علم انهم قتلوا خصمهُ فطعنوهُ بالحراب ووصلهُ الاسكندر وهو على آخر رمق فشقَّ عليهِ الامر وكثر حزنهُ واقسم لهُ الايمان المغلظة انهُ ما كان يريد لهُ غير الاكرام والاحترام ولم ينوِ قتلهُ ولا تعذيبهُ فشكرهُ داريوس ورجاهُ ان ينتقم لهُ من الذين قتلوهُ فوعدهُ الاسكندر بذلك ثم رجاهُ داريوس ايضاً الاَّ يحكّم غريباً على بلاد ايران من بعدهِ فقال الاسكندر اني اعدك بذلك ايضاً واقترن بابنتك فاولي على ايران الولد الذي ارزقهُ منها فمات داريوس بين يديهِ وهو يشكرهُ وقام الاسكندر في الحال يجد في طلب الخائنين الذين قتلوا ملكهم فادركهم وشدد في تعذيبهم وقتلهم وتزوج روكسانا ابنة داريوس وكان يحبها حباً كثيراً

ويظهر من كتابات المؤرخين الايرانيين ان الاسكندر احسن معاملة البلاد التي اخضعها وخصَّ باللين منها بلاد ايران نفسها فقد رووا عن حسن تدبيرهِ وسياستهِ اموراً كثيرة منها انهُ ظفر يوماً باحد اعدائهِ بعد الحروب

الطويلة واسره فلما مثل الاسير بين يديهِ اكرم مثواهُ وقابلهُ باللطف والترحاب فقال لهُ احد قوادهِ لو كنتُ انا موضع الاسكندر لما اظهرت مثل هذا الاحسان لهذا العدو فأجابهُ الاسكندر على الفور وانا عاملتهُ بالحسنى لاني الاسكندر . وقيل انهُ غضب على احد ضباط جيشهِ يوماً ونزلهُ الى رتبة دنيئة وذهب اليهِ يوماً فسأَلهُ كيف حالك في هذا المنصب الجديد قال بألف خير ونعمة ان الرجل يزين المنصب ليس المنصب يزيّن الرجل فسرَّ الاسكندر من هذا الجواب واعاد الرجل الى سابق حالهِ . وغير هذا كثير يروونهُ عن هذا الملك العظيم للدلالة على سعة مداركهِ وحلمهِ واقتدارهِ

وقد كتب الرواة الشرقيون المؤلفات الضخمة عن الاسكندر وفعالهِ ورووا عنهُ الاقاصيص الغريبة والامور العجيبة مما لم نشإِ التعويل عليهِ في هذا الكتاب لانهُ لا ينطبق على رواية اصحابهِ اليونانيين الذين كانوا معهُ وكتبوا سيرتهُ من بعد وفاتهِ . ويروي هؤُلاء الكتَّاب ان الاسكندر رزق ابناً من زوجتهِ روكسانا ابنة داريوس قودومانوس سماهُ اسكندروس ولكن هذا الفتى لم يخلف اباهُ في الملك لانهُ انقطع الى الدرس والمطالعة تحت يدي الفيلسوف ارسطوطوليس . ويقولون انهُ جزَّأ ايران قبيل وفاتهِ وحكَّم عليها امراء كثيرين كان كلٌّ منهم مستقلاً في امارتهِ وعرف عنهم الاتحاد حين هجوم عدو على بلاد ايران والعود الى الشقاق بعد خروج العدو وظلوا ثلثمائة عام على هذا الحال من بعد وفاة الاسكندر

واما تواريخ اليونان الَّتي يعوَّل عليها فيؤْخذ منها ان مملكة الاسكندر الواسعة تجزَّأَت عقيب وفاتهِ وتقاسمها قواد جيشهِ فكانت بلاد ايران من

نصيب القائد سلوقوس الذي أسس الدولة السلوقيَّة في بلاد الشام وسمَّى نفسهُ سلوقوس نيكاتور اي الظافر . واما بقيَّة الممالك والامارات الَّتي كانت تابعة لايران فأُعطيت لغيرهِ من القواد وانقطعت كل علاقة بين اجزاء تلك السلطنة الواسعة . وكان سلوقوس هذا من الرجال العظام حارب زملاءهُ السابقين ووطد اركان سلطنتهِ وجعل نفسهُ ملكاً على كل البلاد الواقعة بين شطوط الشام وحدود الهند وبلاد ايران في جملتها . وكان ينوي نيَّة الاسكندر فهاجم الهند وحاربها ونجح فيها اكثر من سيدهِ العظيم وعاد منها بالغنائم والافيال فحارب قواد اليونان وانتصر عليهم مرةً اخرى وهو الذي بنى مدينة انطاكية الشهيرة في بلاد الشام وجعلها عاصمة ملكهِ وحكم الى سنة ٢٨١ ق . م حين قتلهُ يوناني فخلفهُ في الملك ابنهُ انطيوخوس سوتر اي المنقذ فكان مثل ابيهِ في حب الغزو والفتح ولكنهُ لم يضف الى املاكهِ شيئاً كثيرًا وخلفهُ ابنهُ انطيوخوس الثاني في سنة ٢٦٢ ق . م . وكان جبارًا عاتياً اراد ان يضطر صفوف رعاياهُ الى عبادتهِ وعبادة آلهتهِ فنفروا منهُ وكان الايرانيون في مقدمة العاصين تحت قيادة امير اسمهُ ارزاسس فقتلوا اغاثوكليس نائبهُ وتأسست من ذلك اليوم دولة ايرانيَّة يسميها الافرنج دولة البارثيين او الفارسيين

ملوك الطوائف

ولم تطل مدة الدولة اليونانيَّة بعد الاسكندر كما يظهر من الفصل الاخير حتى عقبتها دولة أُخرى ايرانيَّة ولكنها لم تفعل فعال الدول الايرانيَّة الاولى وقلما يعرف الناس عن هذه البلاد شيئاً في مدتها ولذلك فنحن سنذكرها في هذا الكتاب بالاختصار

وكان اسم الذي اسس هذه الدولة ارزاسس كما مرَّ وهو الذي قام على وكيل انطيوخوس ديوس وقتلهُ وحكم موضعهُ واسم هذا البطل في التواريخ الايرانيَّة عَشْق قيل انهُ كان من سلالة الملوك الايرانيين القدماء واذاع بين الناس ان الراية القعوانيَّة الشهيرة كانت في حوزتهِ فاجتمع بين يديهِ جيش كبير تمكن بهِ من طرد جيش الملك انطيوخوس وارسل الى كل امراء ايران يقول لهم انهُ لا يريد ان يصير ملكاً مطلقاً على البلاد ولكنهُ يتمنى ان يراها مستقلة من نير الاجانب وتعهد لكل واحد منهم بان يحافظ لهُ على امارتهِ فجاءُوا لمعونتهِ ونصروهُ على الاعداء وظلَّ كل واحد على حالهِ وكان عشق رئيس هذا التحالف الذي تألفت منهُ دولة تعرف باسم "ملوك الطوائف" والاخبار عنها قليلة ومتناقضة اهمها حكاية عشق التي مرَّت وهو على قول هذه الروايات حكم في البلاد خمسة عشر عاماً وخلفهُ ابنهُ عشق الثاني ولم يروَ عنهُ شيءٌ يذكر . وخلفهُ ابنهُ شاه بور ويعرف في التواريخ الايرانيَّة باسم ارطبانس وهو الذي حارب ملوك سوريَّة زماناً طويلاً واضطر انطيوخوس الكبير الى الاعتراف لهُ بالسيادة على بلاد ايران واذربايجان

وعقب حكم هذا الملك زمان طويل لم تذكر فيهِ ايران بشيء لان

علاقتها بالغرب انقطعت ولم يعد المؤرخون من اليونان يذكرونها ولا اتى ملوكها في كل تلك المدة شيئاً يذكر حتى كان يحفظ لهم الذكر. واول من جاء ذكرهُ من ملوك هذه الدولة بعد شاه بور واحد اسمهُ بهرام جدرز واسمهُ عند الافرنج جوتارزس وهو الذي حارب اليهود في ايام المسيح ولا يعرف عن هذه الحرب الاَّ القليل . وخلفهُ في الملك ابنهُ ڤولاس وقد جاء ذكرهُ في تاريخ الرومانيين لانهُ حارب الامبراطور نيرو وارسل سفارة الى رومية في عهد الامبراطور فسباسيان لتقرير شروط الصلح بين البلادين ولم يعرف عنهُ غير هذا الاَّ ان الدلائل تدلُّ على انهُ كان من الابطال لانهُ كسر جيوش الرومانيين وارجعها عن بلادهِ خاسرة وهي التي ملكت كل بلاد معروفة وكسرت كل جيش في تلك الايام . وخلفهُ هرمز وهو ارطبانس الرابع في حساب الافرنج وعقبهُ اخوهُ نارسي ثم اخوهُ الآخر فيروز ثم خسرو او كسرى وهو الذي حارب الامبراطور تراجان الروماني وتقهقر امامهُ وفرَّ من وجههِ ولكن الامبراطور المذكور مات لحسن حظهِ بعد النصر بقليل فعقد خسرو محالفة مع الذي خلفهُ وهو الامبراطور ادريان وعادت اليهِ املاكهُ . وقام بعدهُ ملوك آخرون لم يشتهر منهم غير واحد اسمهُ اردشير وهو الذي حارب الرومانيين مرارًا وردهم عن بلادهِ خائبين

وخلاصة الامر ان تاريخ ايران في ايام هذه الدولة اي من بعد موت الاسكندر الى ما بعد التاريخ المسيحي بمائتي سنة تقريباً لا يذكر في شيء غير كثرة حروب امرائهِ مع الرومانيين وانتصارهم على جيوش رومية بمساعدة الجبال وبعد المسافة على الرومانيين وهذا جلُّ ما يعرف عن ايران قبل حكم الدولة الساسانيَّة وهي التي سنذكرها في الفصل القادم

الدولة الساسانيَّة

ولم تعد بلاد ايران الى الظهور بعد الخفاء الَّا لما تولت امورها الدولة الساسانيَّة الّتي نحن في شأْنها وكان ذلك بعد ان مرَّت عليها القرون والاجيال وهي بلا ذكر بين دول الاقدمين تعرف عند الرومان ومن والاهم باسم بارثيا فعادت الى اسمها الاول في عهد هذه الدولة وصار الناس يعرفونها باسم دولة الفرس ويعدونها من الدول العظيمة . وقد امتازت ايام هذه الدولة بالحروب الكثيرة الّتي جرت في ايامها بين الرومان والايرانيين وسنأْتي على تفصيلها واطلق العرب عليها اسم دولة الاكاسرة ذلك لان بعض ملوكها كانوا يسمون انفسهم خسرو وعند العرب كسرى فصار هذا الاسم بمثابة اسم قيصر عند الرومانيين وفرعون عند المصريين يطلق على كل ملوك هذه الدولة كما كان اسم دارا يطلق على معظم ملوك ايران في عهد الدولة الهستاسبيَّة الّتي مرَّ ذكرها

واول ملوك هذه الدولة اردشير بابجان تولى الملك في سنة ٢٢٦ م. في عهد الامبراطور اسكندر سفيروس الروماني . وكان اردشير هذا ابن ضابط صغير في ولاية داربجرد من ولايات ايران اسمهُ بابك وهو من بيت رجل شهير اسمهُ ساسان قيل انهُ كان ابن بهمن بن زركسيس المعروف في التواريخ الايرانيَّة باسم اسفنديار ولهذا سمّيت العائلة بالساسانيَّة نسبةً الى ساسان اشهر افرادها . وسمع بيري والي داربجرد ان بابك عندهُ ابن نجيب لهُ شهرة في الذكاء والبسالة فاستقدمهُ ورفع منزلتهُ على صغر سنهِ وكان كلما غاب عن مركز الولاية يقيمهُ نائبًا عنهُ حتَّى اذا مات اوصى لهُ بالولاية من بعدهِ فقام اردشير باعبائها خير قيام ولكن ملك ايران الذي كان على ايامهِ (اردوان)

عين والياً غيرهُ على البلاد فتمكن اردشير بواسطة والدهِ بابك من قتل هذا الوالي وبدأ يفكر في توسيع امارتهِ ومدّ سطوتهِ ويروون انهُ كان كثير التصديق باحلام جمة يراها وعلم منها انهُ سوف يعظم قدرهُ فتشددت عزيمتهُ وشرع في ما اوصلهُ الى أرفع الذرى وكان والدهُ اكبر اعدائهِ لانهُ مال الى توظيف ابنهِ الاكبر وسعى في اقامتهِ والياً على فارس او الولاية الغربية من البلاد ومات بعد هذا الصنيع بمدة وجيزة فزحف اردشير على اخيهِ وغلبهُ وهرب شابور اخوهُ من وجههِ ولكنهُ وقع في قبضة اناس قطعوا رأسهُ طلباً للانعام والمكافأة من اردشير فكافأهم بالقتل على هذه الخيانة . ثم تقدم هذا الشاب الفاتح على ولاية كرمان وانحاء العراق العجمي فاغتصبها من اردوان وكان الملك في جبال همذان لما بلغهُ خبر هذه الامور فجمع جيشهُ في سهل هرمز واستعدّ لمقاتلة اردشير وجاء المذكور لمقاتلتهِ فحصلت بين الاثنين معركة هائلة كان النصر فيها لاردشير وقتل اردوان مع اكثر اعوانهِ فنودي باردشير ملكاً على ايران في الحال وسمي "شاهنشاه" اي ملك الملوك ولم يزل ملوك ايران يعرفون بهذا اللقب الى اليوم

ولما استتبَّ الملك لاردشير وخضعت لهُ بلاد ايران عن بكرة ابيها شرع في الفتح والغزو وكان همهُ الاكبر ارجاع مملكتهِ الى ما كانت عليهِ في ايام كورش وداريوس الكبير فزحف على ما بين النهرين واخضعها وبنى فيها مدينة المدائن او اكتسفون التي صارت بعد ذلك عاصمة الملك في عهد الاكاسرة ثم حوّل نظرهُ الى جهة الشرق فأعاد فتح خوارزم وما يليها من اواسط اسيا وتوطدت دعائم ملكهِ وعظمت هيبتهُ فصار بعد امبراطور رومية اعظم ملوك الزمان في عصرهِ وملك ١٤ سنة على مملكة ايران من

بعد خلع اردشير حتّى اذا رأى من نفسهِ الكبر ومن بلادهِ الارتياح الى دولتهِ استقال من الملك وتنازل لابنهِ شاه پور واعتزل ليقضي بقيّة ايامهِ في الراحة

وكان اردشير بابجان المذكور (واسمهُ عند الافرنج ارتكزركسيس) من احكم الملوك الذين حكموا ايران واقواهم جناناً وابعدهم نظراً في الامور ولهُ شهرة في الحكمة والبيان تحكي شهرتهُ في البسالة والادارة ولهُ اقوال صارت مثلاً بين الناس من جملتها قولهُ " ان العدل اساس الملك " ذلك ان الملك لا يقوم بغير الجند ولا يقوم الجند بغير المال ولا مال بغير الزراعة ولا تقوم الزراعة بغير العدل فالعدل اساس الملك ولهُ اقوال اخرى من هذا القبيل تشهد باتساع مداركهِ وسلامة ذوقهِ . وكان لهُ اناس من الخفية والاعوان يقدمون اليهِ التقارير اليوميّة عن كل ما يتم في بلادهِ واشتهر بتعصبهِ لدين زردشت وعبادة النار لانهُ قصد ان يعيد الجامعة الايرانيّة الى البلاد ويحيي العواطف الوطنيّة الاولى التي فقدت في ايام ملوك الطوائف فشدد الوطأة على كل مارق عن دين زردشت وكان يقول لابنهِ كل يوم ان الدولة لا تقوم بغير الدين ويوصيهِ بالحرص على دين ايران قدر حرصهِ على دولتها

وملك بعدهُ ابنهُ شاه پور على ما تقدم فكانت فاتحة اعمالهِ الزحف على بلاد خراسان واعادتها الى الخضوع فانتهز العرب الخاضعون لهُ فرصة غيابهِ وشقوا عصا طاعتهِ تحت قيادة امير منهم اسمهُ منيزن فعاد اليهِ شاه پور وحاربهُ فغلبهُ وقتلهُ وقيل انهُ تمكن منهُ بواسطة ابنةٍ لهُ قادها الطمع الى اغتيال ابيها حتى تتقرب من شاه پور وتصير قرينتهُ فعلم الملك بامرها وابعدها عنهُ ثم امر احد الجلادين باعدامها جزاء ما عرف عنها من القسوة والخيانة .

ثم تقدم على اراضٍ في الجزيرة كانت تابعة لقياصرة الرومان فاخضعها وجاء الامبراطور ڤاليريان لمحاربتهِ فكسر ووقع اسيرًا في يدهِ وظن شاه پوران في امكانهِ امتلاك السلطنة الرومانية بالتدريج فأقام امبراطورًا رومانيًا من عامة الناس اسمهُ كيريادس واضطرَّ الرومانيون الذين كانوا في قبضتهِ الى المناداة بهِ قيصرًا والاحتفال بتتويجهِ ففعلوا ذلك على كرهٍ منهم ولكن ذلك لم يدم زمانًا وعاد الرومانيون الى محاربة شاه پور فانتصروا عليهِ في مواقع عدة . وحكم شاه پور ٣١ عامًا بنى في خلالها المدن وشاد العمائر منها مدينة نيسابور في بلاد خراسان وهي باقية الى اليوم ومدينة شابور في فارس على مقربةٍ من كازرون ولم يبقَ لها اثر وفي متاحف التاريخ الآن آثار كثيرة من ايام هذا الملك وفي اكثرها حكاية انتصارهِ على الرومانيين واسر امبراطورهم وتقدمهِ على مدينة انطاكية وغيرها من مدائنهم ولكن هذه الآثار لا تذكر انهُ لم ينل كبير نفع من ذلك النصر لقصر مدة بقاء الرومانيين على ذلك الانكسار ولانهُ عند عودتهِ من بلاد الشام بعد ان جمع الغنائم من الرومانيين لقي في طريقهِ جيش اوذناتوس امير بلميرا (تدمر) وخذل في محاربتهِ فاضطرَّ الى الرجوع الى ايران في الحال وترك الغنائم لخصمهِ الباسل مع ان تدمر كانت امارة صغيرة وجيشها صغير لا يذكر

وخلفهُ ابنهُ هرمز واسمهُ في التواريخ الافرنجيَّة هرمزادس وكان مثل ابيهِ في الخَلق والخُلق وامهُ ابنة مهرك احد امراء ايران الذين نكل اردشير بهم لان احد المنجمين اخبرهُ ان واحدًا من نسلهم سيخلفهُ في الملك فخاف ان يقوم احدهم عليهِ او على ابنهِ من بعدهِ ويعزلهُ واتى معهم ما تقدم ففرَّت منهم فتاة ولجأَت الى بيت احد الرعاة اواها وربَّاها حتَّى اذا كبرت رآها

شاه پور بن اردشير فشغف بحبها وتزوجها سرًّا ورزق منها ولد هو هرمز الذي نحن في شأنهِ . وحدث ان اردشير زار ابنهُ شاه پور في بيتهِ يوماً فرأى هرمز وهو طفل واستوضح ابنهُ عنهُ فاقرَّ الرجل لابيهِ وحينئذٍ تذكر اردشير قول المنجمين وفرح بذلك الاتفاق فرحاً كبيرًا . وكان هرمز في مدة ابيهِ والياً على خراسان فانصف في الناس واصلح احوال البلاد ولكن بعض الاعداء من المقربين الى الملك الذين لا يخلو بلاط شرقي منهم بدأ يدس الدسائس عليهِ ويوحي الى الملك ان ابنهُ كان يعد البلاد للثورة عليهِ وقتلهِ فصدَّق شاه پور ذلك واحسَّ هرمز بالدسيسة قبل ان يجزم والدهُ في كيفيَّة معاملتهِ ولم يخطر في بالهِ ذلك الامر فأراد ان يثبت لوالدهِ صدق ولائهِ فقطع يدهُ وارسلها اليهِ علامة الخضوع التام فتأثر شاه پور لهذا الامر المنكر وزالت من صدرهِ الوساوس واعتقد بصدق ابنهِ فبعث بطلبهِ وطيب خاطرهُ وبالغ في اكرامهِ ورفع قدرهُ وظلَّ هرمز مكرَّماً من ابيهِ حتى ورث الملك عنهُ بعد وفاتهِ على ما تقدم . وكان طيب القلب حميد الخصال ولكنهُ لم يحكم الاَّ سنة واحدة بنى فيها مدينة دام هرمز وكان اسف الناس على وفاتهِ كثيرًا

وخلفهُ ابنهُ بهرام وكان ملكاً صالحاً كثير الدعة والحلم وقام في ايامهِ مضلل اسمهُ معني ادعى الوحي والالهام والف كتاباً يعرف باسم اوتان نشرهُ بين الناس وجمع فيهِ بين أشهر الديانات المعروفة يومئذٍ وهي ديانة الهنود وعبادة النار والنصرانيَّة وتبعهُ كثيرون من الناس فشدد بهرام عليهم الوطأة ونكل بجموعهم وقتل صاحبهم مع انهُ على قول بعض المؤرخين كان كثير الميل في اول امرهِ الى اعتناق هذا الدين الجديد ولكن ملوك هذه الدولة "الساسانيَّة" جروا على خطة واحدة رسمها لهم جدهم اردشير وهي اتحاد الحكومة

بالدين وجعل الملك رئيس القوتين والمحافظة على امور ايران وعوائدها وعقائدها حتى تعود الى ما كانت عليهِ في ايام دولها الاولى من الصولة والسؤدد. وحكم بهرام في البلاد ثلاثة اعوام وثلاثة اشهر أظهر في خلالها كل حلم واعتدال وعمَّ الامن وسادت السكينة في ايامهِ حتَّى صارت الجرائم من الامور النادرة في بلاد ايران على عهده

وخلفهُ ابنهُ بهرام الثاني وكان نقيض ابيهِ في الاخلاق فجار وطغى وبغى حتى نفر الناس منهُ واتحد امراء المملكة على خلعهِ والتخلص من شرّهِ الَّا ان رئيس الكهنة من عبَّاد النار رجاهم الانتظار ريثما يسعى في اصلاح سيرة هذا الملك فاذا اصطلح واعتدل في اموره ابقوهُ او لا عزلوهُ ورضي الاشراف معهُ بذلك فاختبأُوا في جوانب القصر يوماً بمقتضى اشارة الكاهن وابعدوا عنهُ كل خادم اوحارس حتى اذا افاق الملك من نومهِ ودار في غرف القصر رآهُ يصفر لا انيس فيهِ ولا جليس واخذهُ الرعب وتولاهُ الضيق فظهر لهُ الكاهن وحدهُ ولهُ هيبة ووقار ولكن على وجههِ علامة الكرب الشديد فسأَلهُ الملك عن معنى تلك الامور واقرَّ لهُ بالحكاية من اولها إلى آخرها ورجاهُ ان يصطلح في امورهِ او تكون العاقبة شرًّا وبيلاً . فتأَثر بهرام لهذه الحكاية ووعد الكاهن وعدًا صادقًا بانهُ يتوب ويندم على ما فات ويصلح سيرتهُ ويعدل في احكامهِ فصفر الكاهن حينئذٍ المختبئين وظهروا في الحال فداروا بالملك من كل جانب واغلظ لهم الايمان بانهُ لا يعود الى شيء ممَّا يكرهون وكان صادقًا في وعدهِ . على ان امتناعهُ عن الظلم لم يفد البلاد كثيرًا في ايامهِ لانهُ كان ضعيف الرأي عديم السداد وتقدم الرومان في ايامهِ على مملكة ايران تحت قيادة امبراطورهم كاروس فملكوا بلاد الجزيرة

وفي جملتها المداين (اكتسفون) واضطربت البلاد اضطراباً كبيرًا فلم تخلص منها الَّا بموت الامبراطور كاروس وكان يخالف ملك ايران في كل الامور لان بهرام اعتاد الكسل والخمول وحب الترف واشتهر كاروس بالبساطة في العيش والاقدام الغريب حتَّى ان سفراء بهرام لما قصدوا الدخول عليهِ يوماً ليخابروهُ في امرٍ من الامور بامر مليكهم جاءوا معسكر الرومانيين وطلبوا ان يؤذن لهم في الدخول على الامبراطور العظيم فقادهم الضباط الى جندي قاعد الى الارض وامامهُ قطعة من اللحم المقدَّد وشيءٌ من الفول يغتذي بهِ وعليهِ رداءٌ بسيط احمر اللون لا شيءَ يميزهُ عن بقيَّة العساكر غير الشجاعة الَّتي تلوح على وجههِ فحدَّثهم بما جاءوا في شأنهِ واشترط عليهم اموراً صعبة وتهدَّد بلادهم بالخراب اذا لم تقبل فخرجوا من حضرتهِ وهم يعجبون لبساطة هذا الامبراطور واقتدارهِ

ومات بهرام بعد ان حكم البلاد سبعة عشر عاماً فعقبهُ ابنهُ بهرام الثالث على كرهٍ منهُ لانهُ كان يميل الى الوحدة والاعتزال ولم يقبل التاج والصولجان الَّا بعد الالحاح الكثير من امراء مملكتهِ ولم تدم مدة ملكهِ الَّا اربعة اشهر وملك بعدهُ اخوهُ نارسي

وليس لنارسي هذا ذكر كثير في التواريخ الايرانيَّة غير انهُ حكم بالقسط والانصاف مدة تسعة اعوام تنازل في آخرها عن الملك لابنهِ هرمز الثاني ومات بعد هذا التنازل بزمان قصير . غير ان الرومانيين ذكروا هذا الملك لانهُ حارب امبراطورهم جاليريوس وانتصر عليهِ في اول الامر انتصاراً عظيماً ولكنهُ عاد وانكسر في عدة مواقع جرح في واحدةٍ منها وفرَّ من وجه خصمهِ بعد ان ترك لهُ الخزائن والعيال غنيمة باردة فأحسن الامبراطور

معاملة الاسرى ولكنهُ ظلَّ ينتصر على جيوش الفرس حتى عقد معهم معاهدة أظهرت ان بلاد ايران تأَخرت عن ايام اردشير في مدة نارسي اذ سلمت كل ولاياتها الغربيَّة الى الرومانيين واضطرَّت الى التنازل عن اذربايجان لامير ارمينيا تيريداتس الذي جعل تاوريس (تبريز) عاصمة ملكهِ وزينها بالقصور والزخارف

واما هرمز الثاني ابن نارسي فحكم البلاد سبعة اعوام وخمسة اشهر لم يحدث في خلالها امرٌ ذو بال ومات بلا عقب فوقعت البلاد في الفوضى ولكن احد عقلائها جاهر بين الناس بأَن احدى نساء الملك كانت حاملاً وان الظواهر كانت تدلُّ على ان الجنين ذكر فاقرَّ الناس على الاعتراف بالملك لهذا الطفل من قبل ان يولد واحتفلوا بتتويجهِ وهو في بطن امهِ ولعلهُ الملك الوحيد الذي توّج ونودي بهِ رسميًّا من قبل الولادة. ولما وُلد الطفل ذكرًا على حسب الانتظار عمت الافراح في البلاد وكثر السرور وسموهُ شاه پور باتفاق الآراء واعتنوا بتربيتهِ اعتناء كبيرًا حتَّى قيل انهُ لم يربَّ ملك من ملوك الاوائل مثل شاه پور الثاني وظهرت عليهِ دلائل النجابة والذكاء من ايام طفوليتهِ وكان من اعظم ملوك هذه الدولة

على ان اعتناء الايرانيين بملكهم الصغير لم يمنع الاعداء من الطمع ببلادهم في اول عهدهِ فحاربها الرومان والتتر والعرب وكانت قبائل اليمن خاضعة لايران فشقت عصا الطاعة وثارت للحرب تحت قيادة امراء بني عيار وعبد القيس وهي من قبائل العرب الَّتي اشتهرت في تلك الايام فدخلوا بلاد ايران من ناحية خليج العجم ودمروا عمائرها ونكلوا باهلها وتقدَّم شاه پور بجيش كبير لمقاومتهم فبطش بهم وفلَّ جموعهم وشدد في معاقبتهم حتَّى جعلهم

عبرة لمن اعتبر وكان يربط اسراهم كتفاً الى كتفٍ بحبال وثيقة يدخلها في اجسامهم فيجرهم الى التعذيب جماعات ويسومهم الخسف والذل ولهذا سماهُ العرب في تواريخهم بذي الاكتاف واشتهر بهذا الاسم. ثم ارسل قوادهُ لمحاربة التتر الثائرين فاخضعوهم وهاجم الرومانيين فحارب امبراطور الشرق كونسطانتيوس وكسرهُ ثم جاءَهُ يوليانوس امبراطور الغرب (رومية) فانتصر عليهِ ايضاً بعد قتال شديد وارجع بلاد ايران الى منزلتها الاولى واعاد الولايات التي سلخت منها واخصها بلاد الجزيرة والعراق وزهت بلاد ايران وتقدمت في ايام هذا الملك العظيم وكانت مدة حكمهِ ٧١ سنة وهي اطول من مدة حياتهِ ببضعة اشهر واشهر اعمالهِ الانتصار على جيوش الرومانيين واسترجاع العراق واذلال ارمينيا بعد استقلالها واعادتها الى الوضوخ لاحكام ايران حتَّى صارت ولاية من الولايات الايرانيَّة في ايامهِ. واشتهر هذا الملك بالحكمة والاقوال التي ضربت امثالاً مثل اقوال جدهِ اردشير ولا محل لايرادها هنا وهو من اكبر ملوك الدولة الساسانيَّة

وخلفهُ اردشير الثاني وكان ملكاً عاقلاً اختلفوا في نسبهِ فقال بعضهم انهُ ابن شاه پور وقال غيرهم انهُ اخوهُ وليس في تاريخهِ شيءٌ يذكر غير انهُ حكم اربع سنوات عزلهُ بعدها شاه پور الثالث ابن شاه پور ذي الاكتاف وقعد على العرش مكانهُ خمس سنوات ثم مات بالقضاء والقدر وخلفهُ اخوهُ بهرام الرابع ويعرف باسم كرمان شاه لانهُ كان في مدة اخيهِ والياً على بلاد كرمان وهو الذي اسَّس مدينة كرمانشاه المعروفة الى هذا اليوم. ومات بعد ان حكم البلاد ١١ سنة من سهم اصابهُ وهو يحاول اخماد ثورة في جيشهِ

وملك ايران بعد ذلك يزدجرد الاثم سمي بذلك لكثرة خطاياهُ

واثامهِ وقال قوم انهُ اخو بهرام وقال غيرهم انهُ اخوهُ وقد جاء في تاريخ "روضة الصفاء" و"زينة التواريخ" وهي التي يعوَّل عليها في اخبار هذه المدة انهُ كان اثماً ظالماً كثير الشرور وحكم ١٦ عاماً قتل في آخرها من رفس حصانهِ ففرح الناس لموتهِ وطربوا للخلاص من ظلمهِ وكان لهُ اولاد كثيرون لم يعش منهم غير واحد اسمهُ بهرام وكَّل ابوهُ نعمان بن امرئ القيس بتربيتهِ وكان نعمان هذا ملكاً في الحيرة على قبائل العرب من قبل اكاسرة العجم يحكم العربان باسمهم ويؤدي لهم الجزية ويجمع العساكر لاعانتهم وقت الحروب وفعل يزدجرد ذلك باشارة احد المنجمين. والاقوال متناقضة عن هذا الملك فالايرانيون يتهمونهُ بالظلم والخبائث والافرنج يعدونهُ من افضل الملوك واحسنهم حتَّى ان ثيودوسيوس امبراطور المملكة الشرقيَّة عهد اليهِ تربية ابنهِ وولي عهدهِ وفي هذا دليل عظيم على اعتبارهم لهُ

ولما مات يزدجرد خشي امراء ايران ان تكون تولية ابنهِ بهرام داعياً لغير ما يحبون لانهُ ربي على يد ملك العرب فاقاموا ملكاً غيرهُ عليهم اسمهُ كسرى ولكن شجاعة بهرام واقدامهُ وهمتهُ ذللت المصاعب ففر الخصم من وجههِ حال ظهورهِ واستتبَّ الامر لهُ بدون حرب ولا قتال

ويعرف بهرام الخامس في التواريخ الايرانيَّة باسم بهرام جور (ومعناهُ حمار الفلا) ذلك لان هذا الملك كان مغرماً بصيد هذا الحيوان وتربيتهِ وكانت فاتحة اعمالهِ الانعام على مربيهِ نعمان والمبالغة في اكرامهِ ثم الصفح عن الذين حاولوا تنصيب غيرهِ على العرش فاكتسب بذلك القلوب واشتهر عنهُ حميد الخصال

وكان بهرام يهتم لراحة بلادهِ ورعيتهِ ويحب ان يعم السرور بينهم فحدث انهُ مرَّ بجماعة من عساكرهِ يوماً يرقصون ويطربون وليس بينهم واحد

يضرب على آلة موسيقية فسألهم عن سبب ذلك قالوا انا بحثنا في كل جهة ودفعنا مالاً كثيراً فلم نلقَ مغنياً ولا ضارباً على آلة للطرب فأمر الملك في الحال بارسال الاعوان الى بلاد الهند لاستخدام المغنين والمطربين وجاء بالعدد الكثير منهم الى بلادهِ وهم كثار في بلاد ايران الى هذا اليوم. على ان امياله هذه اطمعت الاجانب فيهِ وفي بلادهِ اذ ظنوا ان مملكة ايران اضاعت كل ميل للحرب ومالت للغناء والطرب فتقدم خان التتر على البلاد يقصد فتحها بجيش لا يقل عدد افرادهِ عن خمسة وعشرين الف بطلٍ وكان الايرانيون على غير استعداد لمثل هذه الحرب ففرّوا من وجه التتر وتركوا لهُ البلاد وما فيها واختفى بهرام من بين جيشهِ فحسب الناس انهُ هرب خوفاً على نفسهِ من الاسر او القتل وعلماً منهُ بان خصمهُ اقوى منهُ. وصار رؤساء ايران يأتون لامير التتر ويقدمون لهُ الخضوع حتى لم يبقَ ريب في ان ايران صارت الى قبضة الامير التتري ولكن الرجل لم يهنأ بهذا النصر طويلاً لان بهرام دهمهُ بجيش صغير في ليل كثير الظلام فكسرهُ وقتل الوفاً كثيرة من جيشهِ وكان امير التتر في جملة القتلى فاستراحت بلاد ايران من اعدائها وعاد بهرام الى الهناء والراحة. ويقولون انهُ ساح في بلاد الهند متنكراً بعد هذه الحرب قصد التفرج والاطلاع على احوال الناس ولما عاد منها عاد الاعداء الى الحرب فحارب العرب والرومانيين وكسرهم ولكنهُ لم يستفد فائدة تذكر من محاربة الرومانيين فلما رأى هو والامبراطور ان الحروب بين البلادين لم تجدِ نفعاً عقدا محالفة وتعاهدا على السلم مدة قرن كامل

ولا ريب ان بهرام جور هذا كان من اعظم ملوك ايران واعقلهم وان همهُ الاول كان راحة اهل بلادهِ وهناء بالهم ولهُ نوادر كثيرة تدلُّ على

عقلهِ وذكائهِ منها انهُ كان لهُ ولد خامل بليد لم تفد فيهِ التربية ولا فهم من امور الدنيا شيئاً مع كل ما أتى الحكماء لتهذيبهِ وتعليمهِ حتى صار شابًّا ورأى في احد الايام فتاةً ابنة احد الفقراء فعلق بحبها وجعل يقضي اوقاتهُ في النظر اليها والجري ورائها وجاء الوزير يوماً الى بهرام فشكى لهُ ابنهُ واظهر استياءهُ من ان هذا الفتى اضاف الى بلادتهِ وجمود فكرهِ رذيلة الحب والفساد وكان يظن ان الملك يأمر بسجنهِ ويقطع الامل من اصلاحهِ ولكنهُ خاب ظنًّا اذ رآهُ يسرُّ لهذا الخبر سروراً عظيماً . وارسل الملك وراء والد الفتاة وقال لهُ ما معناهُ انهُ يريد ان يكون كل واحد من رعاياهُ سيد نفسهِ ولا يطيق ان يعبث واحد بشرف المستظلين بظلهِ ولكنهُ علم ان ابن الملك يحب ابنة ذلك الفقير وهو يرجح ان الحب ينبّه في الشاب الذكاء الجامد ويكون علة اصطلاحهِ وواسطة الخير لهُ ولبلادهِ ونصح الرجل ان يرغب ابنتهُ في مشاغلة الشاب واظهار الحب لهُ وقال لهُ قل لابنتك ان تشترط على ابني اتباع الفضيلة والانتباه للعلم حتَّى تحبهُ انها اذا فعلت ذلك أحيت ولدي من الموت العقلي الذي نشكو منهُ في هذه الايام . فأجاب الرجل بالقبول ورضيت ابنتهُ بنصيحتهِ فاتبعت رأي الملك وشاغلت الشاب حتَّى لم يعد يهنأُ بالعيش وهو بعيد عنها وكانت هي تراقبهُ وتقرأُ افكارهُ فلما علمت ان حبها تمكن من قلبهِ اعرضت عنهُ واشترطت عليهِ التعلق على العلم وطلب المعارف حتَّى تعود الى حبهِ ففعل ذلك اكراماً لخاطرها واشتعلت نار ذكائهِ بعد ان كانت خامدة كل تلك السنين فتعلم وتثقف وتهذب وصار الى درجة تذكر من العلم والمعرفة والفهم بسبب حبهِ لتلك الفتاة . وحكم بهرام البلاد ١٨ سنة كان فيها مثال الاستقامة والعلم بالامور وحب الرعيَّة وكان يصيد حمار الفلا

يوماً فوقع في بركةٍ وغرق فيها وخسرت البلاد بموتهِ خسارة لا تعوض

وخلف بهرام في الملك ابنهُ يزدجرد الثاني وكان حكيماً عاقلاً باسلاً جرى على خطة والدهِ في الاعتناء براحة الاهالي وصيانة مصالحهم وحكم مثل والدهِ ١٨ سنة اشتهر فيها بحروبهِ مع الرومانيين لان امبراطور القسطنطينية خان عهودهُ ولم يقم بشروط الصلح الَّتي عقدت بينهُ وبين بهرام وابطل دفع الجزية الَّتي كان يرسلها كل عام الى المداين (على رواية الشرقيين) ولكن هذا الامبراطور عاد الى العمل بمقتضى المعاهدة المذكورة بعد انتصار جيوش ايران على جيوشهِ . وكان يزدجرد يحب عساكرهُ ويأتي كل امر لمنع الظلم عنهم ولهذا لقبهُ الناس بلقب "صباحد وست" اي صديق الجندي وهو يعرف في اكثر التواريخ بهذا الاسم

وحكم بعد يزدجرد هرمز ابنهُ الاصغر وكان أحب الناس عند ابيهِ ولهذا ولاَّهُ الملك من بعدهِ وحرم منهُ فيروز ابنهُ الاكبر . ولكن فيروز لم يطق الصبر على هذا الامر وبدأ في الحال يسعى وراء اخذ الملك وقلب اخيهِ فاستعان بأمير التتر وكانت هذه البلاد من اقدم الازمان عدوَّة ايران لم تعدل عن محاربتها ولم تنفك عن عدوانها كلما رأت الى الحرب سبيلاً وهي المعروفة اليوم ببلاد التركمان وبخارى والتتر الصينيَّة وقد تقلبت عليها شؤون كثيرة وسكنتها طوائف مختلفة وآخر الطوائف الَّتي ملكتها واشتهرت فيها طائفة الاتراك وهي البلاد الَّتي قام منها افراسياب وحارب فيها ملوك ايران الاول على ما مرَّ في الفصول السابقة . وكان اسم الامير التتري الذي استعان فيروز بمروءتهِ خوش نواز ومعنى هذا الاسم "الملك المحسن" ويسميهِ بعضهم خانش وخاقان وغير هذا من الاسماء . وكان خوش نواز ملكاً

عاقلاً كثير الحلم واسع العقل طيب القلب فلما قصَّ عليهِ فيروز قصتهُ ورأى ان أباهُ ظلمهُ في ما أتى من تفضيل اخيهِ الاصغر عليهِ وعدهُ بالمساعدة وارسل معهُ جيشاً قويًّا مركباً من ثلاثين الف محارب لمساعدتهِ على استرجاع الملك مِنْ اخيهِ . ودخل فيروز بهذا الجيش الى بلادهِ وكان فيها عدد كبير من الناس يرى رأيهُ ويظاهرهُ على امورهِ فانضموا اليهِ وانتصروا على اخصامهِ وظهر في الحال ان الملك هرمز لا يقوى على محاربة اخيهِ ومن معهُ ففرَّ من قصرهِ ولكن التتر ادركوهُ واسروهُ فأمر فيروز في الحال بخلعهِ واعدامهِ وكانت مدة حكمهِ سنة واحدة

وما حكم فيروز زماناً حتَّى ندم الناس على مساعدتهِ وتحسروا على ايام ابيهِ واخيهِ لانهُ كان دنيء الطبع خواناً للعهد لا يهتم للبلاد والعباد ولا يحفل بامور الملك الاَّ ما يختص منها بنفسهِ واشتهر بمعاداتهِ للامير التتري خوش نواز الذي كان السبب في توليتهِ وعلة نعمتهِ فاظهر بذلك لؤماً كثيرًا . وكانهُ رأى في بلاد التتر ما حببها اليهِ فجعل همهُ الوحيد اخضاعها وضمها الى مملكتهِ ونسي كرم مولاها الذي اواهُ واعانهُ بمالهِ ورجالهِ فادَّعى ان خوش نواز كان ظالماً عتيًّا يفتك بالناس وينهب اموالهم وسيَّر عليهِ جيشاً كبيرًا كان هو في طليعتهِ . فلما علم خوش نواز بالامر ورأى ان قوة الايرانيين تزيد عن قوتهِ خشي العاقبة وفرَّ من وجه خصمهِ وكان على وشك الخروج من البلاد وتركها للملك الايراني الذي نكر الجميل وكفر بالاحسان لولا ان يخلصهُ واحد من وزرائهِ المخلصين ذلك ان هذا الشهم الفاضل قطع يدهُ ورجلهُ واذنيهِ وشوَّه خلقتهُ واشار على خوش نواز ان يظل في مكانهِ وهو يذهب الى فيروز على تلك الحال ويدعي العداء الشديد لامير التتر ويدل الملك العاتي الى ما بهِ

الخراب التام فشكره خوش نواز واتبع رأيه . ثم ان هذا الوزير الغيور القى نفسه على قارعة الطريق في مكان كان يعلم ان ملك ايران سوف يأتيه وصح ظنه اذ مرّ به نفر من جيش فيروز وسألوه عن حاله فقال ما حملهم على نقله في الحال الى حضرة ملكهم فلما صار بين يديه سأله ملك ايران من انت ايها الرجل قال شريف من اشراف هذه البلاد يا مولاي حسدني خوش نواز على كرم اصلي واكرام الناس لي واراد تعذيبي وقتلي ففعل بي هذه الفعال . فاظهر فيروز الغيظ والحنق وسأل الرجل ان هل لم يكن لك ذنب آخر وهل يقتل خوش نواز الاكابر لغير سبب وبلا ذنب قال ان ذنبي الآخر هو اني نصحته بالعدول عن محاربتكم يا مولاي واشرت عليه بالرضوخ لاوامركم وابنت له عاقبة الظلم في الناس ومعاندة بطل مثل جنابكم صعب المراس وهذا هو ذنبي الكبير يا مولاي فان شئتم ان تستعينوا بي على الانتقام من هذا الظالم الغاشم فاني ادلكم إلى طريق تصلون بها في مدة قصيرة الى حيث يقيم وتحيطون به من كل جانب فتخفون آثاره وتمحون اخباره . فسرّ فيروز لهذا الاتفاق وانطلت عليه الحيلة لاسيما وانه رأى الوزير التتري يتألم ويتوجع من تقطيع اعضائه وكثرة جراحه الدامية وامر جيشه في الحال بالاستعداد للزحف في الجهة التي يدل اليها الوزير المذكور فقادهم الرجل في صحار وقفار وعرة المسالك لم يجدوا فيها ماء ولا طعاماً وهلك اكثرهم من الجوع والتعب حتى اذا خلصوا منها بعد العناء الوافر واطلوا على بلاد طيبة رأوا فيها جيش التتر متحصناً في المراكز المنيعة فهجموا عليهم وقتل جيش ايران عن آخره تقريباً واسر فيروز وكان يظن ان هلاكه محتم فرأى في هذه المرة ايضاً من مروءة خصمه وكرم اخلاقه ما لم يره في غيره من اهل ذلك الزمان

فانهُ صفح عنهُ وبالغ في اكرامهِ وقال لهُ انهُ يريد مساعدتهُ وراحتهُ على شرطٍ
ان يقسم فيروز بعدم العود لمحاربتهِ فاقسم ملك ايران بذلك وعاد الى بلادهِ
من بلاد التتر مزودًا بالهدايا النفيسة وكان من ساعة خروجهِ من حضرة
خوش نواز يضمر لهُ السوء والخيانة فما عتم ان وصل بلادهُ حتَّى شرع في
الاستعداد وحشد العساكر للزحف على بلاد التتر مرة اخرى والخلاص من
عار الدناءة وتعيير الناس بقتل خوش نواز الذي صان حياتهُ وردَّ لهُ الملك
مرتين فقام عليهِ الاكابر وخدمة الدين وحذروهُ من عاقبة البغي ونكث العهود
فلم يصغ الى قولهم ولا سمع نصيحتهم وعاد الى الحرب وكان خوش نواز قد
علم بخيانتهِ واستعدَّ لمحاربتهِ فجمع جيشهُ في اطراف مملكتهِ وارسل الى فيروز
يرجوهُ العدول عن هذا العدوان ويبين لهُ عواقب الاعتداء على المحسنين
فظن فيروز ان ذلك كان من خوفهِ وامر عساكرهُ بالهجوم في الحال على
عساكر التتر وكان خوش نواز قد حسب هذا الحساب وحفر حفرًا عميقة في
محل المعركة وامر فرسانهُ بالتقهقر والهرب من وجه فرسان ايران اذا هجموا
عليهم في ذلك المكان ففعلوا ذلك وتأخروا والايرانيون يطاردونهم وهم
لا يعلمون ما وراء الاكمة فكانوا يصلون تلك الحفر على حين فجأة وهم يجدون
في المطاردة فلا يقدرون على ايقاف الخيل ويقعون فيها فلا يقومون وهلك
بذلك الوف من اشجع ابطال الفرس فخاف الباقون وانهزموا وتبعهم التتر فقتلوا
اكثرهم وذبحوا ملكهم واسروا اختهُ وكانت مدة حكم فيروز ٢٦ سنة

وحكم بلاس البلاد من بعد ابيهِ فيروز فرأَى في الحال من كرم الامير
التتري ما رآهُ والدهُ من قبلهِ ذلك ان خوش نواز بعث يهنئهُ بالملك وردَّ
اليهِ اختهُ بعد ان بالغ في اكرامها مدة الاسر وفك الاسرى الايرانيين

الذين في بلاده من القيود وامر بارجاعهم الى بلادهم وقضاء حاجاتهم . وكان لبلاس اخ اسمهُ كوباد يطمع في الملك فاستعان بخوش نواز ولم يفلح سعياً ولكنهُ جمع بعض المحاربين ونقدم بهم لمقاتلة اخيهِ وحدث انهُ عاق بحب فتاة حقيرة مدة سياحتهِ ورزق منها ولدًا جميل الطلعة فبين كان يوماً يتطلع في وجه هذا الطفل ويتأملهُ جاءتهُ الاخبار تنقل اليهِ موت اخيهِ واستعداد البلاد لحكمهِ ففرح بهذا الخبر فرحاً كبيرًا واعتقد ان نجاحهُ كان من حسن طالع هذا الطفل فسماهُ انوشروان . ولهُ في تاريخ ايران ذكر كبير كما سيجيء . وحكم بلاس اربعة اعوام فخلفهُ اخوهُ كوباد الذي ذكرناهُ

وكانت مهام الملك في ايام پلاس في يد الوزير سوكرا فاراد الوزير ان يكون غباد في قبضتهِ مثل الذي سلفهُ ولكن هذا الملك لم يرضَ بذلك فاوعز الى شاپور قائد جيوشهِ ان يقتلهُ وفعل القائد بامر مولاهُ

وظهرت في ايام غباد بدعة دينيَّة جديدة كان لها شهرة كبيرة وجعلت حكم هذا الملك على عدم اهميتهِ من الاحكام الشهيرة . ذلك ان رجلاً اسمهُ مزدك ادعى الوحي والالهام وعلَّم امورًا تخالف عقيدة الايرانيين في ذلك الحين فأمر بابطال الاحترام للنار وعلَّم أن المرءَ لا يحق لهُ امتلاك العقار وحسبانهُ لهُ دون سواهُ من العالمين وقال مثل هذا في النساء فلما رأى اصحاب الجشع والشره ان هذا الدين يجيز لكلّ واحدٍ مشاركة جارهِ في مالهِ وفي حريمهِ ايضاً تبعوهُ بالالوف وصاروا طائفة قويَّة . ونهى مزدك عن اكل اللحم وكان ورعاً كثير التقشف يلبس الجلود ويعيش ابسط العيشات وكان الملك غباد من جملة اتباعهِ ولولا ذلك لما قامت لهُ قائمة. وكان هذا المدعي محتالاً ماهرًا في التصنع فلما علم ان الملك يميل الى دينهِ

جاءهُ واخبرهُ انهُ لا يريد من احدٍ ايماناً بتعاليمهِ الاَّ اذا رأى منهُ اعجوبة او شيئاً يقنعهُ بصحة الدين الجديد وادعى انهُ يكلم الآلهة التي تحل روحها في النار فاراد غباد ان يمتحن ذلك وكان الرجل في استعداد لذلك ووضع رجلاً وراء اللهيب في الهيكل الذي علم ان غباد يزورهُ فلما جاء ليكلم النار صار الرجل المختبئ يجاوبهُ والملك يظن انها الآلهة تكلم ذلك المدعي النبوة فصدقهُ وصار من اشهر انصاره . وتغلب مزدك على عقل الملك فصار آلة في يدهِ حتى انهُ طلب اليهِ يوماً ان يدفع زوجتهُ ام انوشيروان الى اخوانهِ في الدين ليشاركوهُ بها حسب ذلك الاعتقاد الجديد وكان غباد على وشك ان يفعل ذلك لولا ان يجيء انوشيروان والدمع في عينيهِ ويرجو اباهُ ألاَّ يعرّض امهُ الى هذا العار العظيم . وانتشرت الفوضى في ايام هذا الملك اذ صار الذين يدينون بدين مزدك يضعون يدهم على مال غيرهم اينما حلوا ولا حرج عليهم في ما يفعلون لان الملك كان على رأيهم ولم يرضَ بمجازاتهم فثار اعيان المملكة وهجموا على غباد في احد الايام فكبلوهُ بالقيود وسجنوهُ في مكان مظلم وولوا اخاهُ جاماسب محله

ولكن غباد لم يبقَ في السجن طويلاً اذ خلصتهُ احدى اخواتهِ بالحيلة ففرّ من البلاد خوفاً من اخيهِ والاشراف وقصد خوش نواز سلطان التتر وهو الذي ساعدهُ على ارتقاء العرش فلم يتأخر هذا السلطان عن مساعدتهِ مرَّةً أُخرى وعاد غباد الى بلاده بجيش من التتر فخشي الاشراف سوء العاقبة وسلموا لملكهم المعزول وطلبوا اليهِ الصفح فصفح عن كل واحد منهم وعن اخيهِ جاماسب ايضاً وعاد الى الملك كعادتهِ وسلَّم مهام الاعمال الى وزيره بزرگمهر ابن سوكرا الذي مرّ ذكرهُ وحكم هذا الملك ٤٣ سنةً اشتهر فيها بضعف

الرأي والاعتقاد بدين مزدك وقد حارب اناستاسيوس امبراطور رومية وانتصر عليهِ. وبنى بعض المدن اشهرها مدينة برده وقد خربت ومدينة كنجه وهي باقية الى اليوم في القفقاز وفي قبضة الدولة الروسيَّة

ومات قباد ولهُ أولاد كثيرون اشهرهم واهرهم ابنهُ الاول انوشيروان وكان والدهُ يحبهُ حبًّا مفرطًا ويفضلهُ على سائر اخوتهِ لانهُ اعتقد السعد في طالعهِ والحق يقال ان انوشيروان كان اعظم ملوك الارض في ايامهِ ومن اعظم سلاطين الشرق الذين حكموا في القرون الماضية. ولما صارت المملكة الى يد انوشيروان رفض قبولها وتنازل عنها الى احد اخوتهِ بدعوى ان الادارات كلها مختلة وامور الملك معتلة وقال للاعيان الذين جاءُوا لتنصيبهِ انهُ يريد الاعتزال لانهُ لايطيق ان يحكم بلادًا تأصل الفساد في مصالحها واحكامها ويخشى إذا هو حكمها واراد اصلاحها ان يكون التغيير والانقلاب عظيماً ويأُول ذلك الى الثورة والقلاقل وكان اولئك الاعيان يعلمون بوجود الخلل ويريد كلٌّ منهم ان تقل سطوة الآخر فحلفوا لهُ انهم يعضدونهُ في ما يريد من التغيير والاصلاح و يكونوا معهُ يدًا واحدة على كل موافق على الحالة القديمة ولهذا قبل المملكة وبدأ حكمهُ الشهير

ولمَّا استتبَّ الملك لانوشيروان جمع قوَّاد مملكتهِ واعيانها وخطب فيهم بما معناهُ انهُ قد عزم على اصلاح كل خلل وتقويم كل عوج في مملكتهِ وافهمهم انهُ يحب حريَّة الافكار والاديان ولا يريد التعرض لاحدٍ في ايمانهِ وامورهِ. فأقسموا يمين الطاعة لهُ وخرجوا من عندهِ حامدين شاكرين وكان اتباع مزدك كثيرين والملك في اول الامر لا يعارضهم حتَّى لم يعد لهُ صبر عليهم وكان يكرههم في ايام ابيهِ كرهاً شديدًا وينوي الانتقام من نبيهم

الكاذب على ما كان منهُ من طلب امرأة الملك وهي ام انوشيروان فبدأ يفكر في طريقةٍ لقلع آثار تلك الطائفة . وحدث ان احد الاعيان شكا الى انوشيروان ان مزدك اغرى امرأتهُ على اتباعهِ واخذها من بيتهِ وهو يريد ان يعطيها الى اعوانهِ بعد قضاء المطلوب لنفسهِ منها فارسل انوشيروان وراء مزدك وامرهُ برد المرأة الى زوجها في الحال فامتنع الرجل بدعوى ان الدين المنزل يأمر بذلك فثار سخط انوشيروان وامر بذبح ذلك المتنبي فذبحوهُ في وسط السراي ثم ارسل جنودهُ في الحال الى الاماكن الّتي يجتمع فيها اتباع مزدك ففتكوا بهم قبل ان يعلم المذكورون شيئاً من الحكاية فظلّ الاضطهاد وراء هذه الطائفة حتى انقرضت واختفت آثارها في ايام هذا الملك (يقال ان مذهب الاشتراكيين المنتشر الآن في اوربا مأخوذ عن هذا الرجل)

ثم حوّل انوشيروان نظرهُ الى اصلاح البلاد على ما اراد فعزل كل حاكم لا يليق لوظيفتهِ واصلح الطرق والجسور ورمم القصور وساعد الناس على تحسين منازلهم وتزيين مدائنهم وبني المدارس فتقاطر اصحاب العلم والمعارف على عاصمتهِ المداين من كل صوب حتّى ان فلاسفة اليونان جعلوا هذه المدينة مقرهم في ايامهِ . وكتبت الكتب المشهورة في ايام هذا الملك العظيم مثل كتاب كليلة ودمنه واخترعت لعبة الشطرنج والنرد والذي اخترعها هووزيرهُ بزرگمهر وسوف يأتي ذكرهُ . ثم انهُ قسم المملكة اربعة اقسام . اولها قسم خراسان وسيستان وكرمان . وثانيها قسم قم واصفهان والاراضي التابعة لها وثالثها قسم فارس والاهواز . والرابع قسم العراق والبلدان الغربيّة وعيّن المفتشين لمراقبة الاحكام في هذه الاقسام الاربعة وسنّ النظامات العادلة

وكان يسمع القضايا بنفسهِ وينصف الناس فيها وساعدهُ على كل ذلك وزيرهُ الحكيم بزركمهر وكان من عائلة حقيرة فارتقى بذكائهِ واجتهادهِ الى ارفع المناصب وكان صديقاً حميماً لانوشيروان

واشتهر هذا الملك بفتح البلدان والانتصار في الحروب قدر ما اشتهر باصلاح حكومة بلادهِ فانهُ حارب الامبراطور الروماني جوستنيانوس وانتصر عليهِ في عدة مواقع واضطرهُ الى عقد معاهدة مجحفة بحقوق الرومانيين كثيرة الفائدة للايرانيين . ثم انهُ اخضع سوريَّة وملك انطاكية عاصمتها وتقدم منها على ضواحي القسطنطينيَّة وهي يومئذٍ عاصمة السلطنة الرومانيَّة الشرقيَّة فأَخضع كل بلاد حلَّ فيها وكان على وشك امتلاك المملكة كلها لولا ان يتدارك الامر بلساريوس وهو من اشهر قواد الامبراطور الروماني ردَّ انوشيروان واوقفهُ عن ابتلاع المملكة برمتها مع قلة عدد عساكره وكثرة جيوش انوشيروان . ولما عاد ملك ايران عن مملكة الروم صار امبراطورها طوع امره ورهين اشارتهِ فكان يخاطبهُ كما يخاطب المرؤُوس رئيسهُ وجعل يدفع لهُ جزية قدرها ثلثون وزناً من الذهب كل عام وهي قليلة ولكنها تكفي للدلالة على ما صارت اليهِ مملكة ايران في ايام انوشيروان . وظلَّ هذا الملك الى آخر ايامهِ يقود جيشهُ بنفسهِ في الحروب وينتصر على الاعداء حتى انهُ لما حارب الامبراطور طيبيريوس قاد الجنود بنفسهِ يوم كان في الثمانين من عمره وانتصر على عادتهِ ولم يروَ ان ملكاً غيرهُ من ملوك ايران اخذ الجزية من ملك الروم وهو يومئذٍ سلطان الغرب واقوى ملوك الزمان. ولم يقتصر في حروبهِ على مملكة الروم ولكنهُ اخضع لهيبتهِ كل البلدان المجاورة لهُ وفي جملتها بلاد العرب والاراضي الواقعة بين نهر جيحون ونهر الهند واتى

بالاموال الوافرة منها كلها وعظم قدرهُ حتى صار مثلاً في الاقتدار ولم يزل ذكرهُ الى هذا اليوم دليلاً على السؤدد والعظمة ولا سيما في كتابات العرب الذين زاد اعتبارهم لهُ ولعظمتهِ بداعي ولادة النبي العربي محمد صلعم في ايامهِ

ولم يحدث في البلاد مدة حكم انوشيروان ما ينغص عيشهُ غير حادثةٍ واحدة هي عصيان احد اولادهِ وقيامهُ لمحاربتهِ ذلك ان هذا الامير واسمهُ نوشزاد كان ابن انوشيروان من اميرة نصرانيَّة فشبَّ على حب النصرانية اقتداءً بامهِ وكان يكره النار وعبادتها كرهاً شديدًا فلما رأى انوشيروان منهُ ذلك وضعهُ في السجن خوفاً منهُ مع شدَّة ميلهِ الى ام هذا الشاب . وكان الملك يحارب الروم في بلاد الشام يوماً فاشاع بعضهم انهُ مرض ومات وسمع ابنهُ نوشزاد بالحكاية فخرج من السجن وجمع جيشاً صغيرًا اكثرهُ من النصارى الذين كانوا في بلاد ايران وبعضهم من العرب ونادى بنفسهِ ملكاً ثم علم ان اباهُ لم يزل حيًّا فلم يعدل عن رأيهِ واراد اغتصاب الملك منهُ فوجه اليهِ انوشيروان اشهر قوادهِ واكبر ابطالهِ واسمهُ رام فرزين واعطاهُ جيشاً عظيماً لمقاتلة ابنهِ واوصاهُ ان يجتهد باسر الامير لا بقتلهِ ولكنهُ شدَّد عليهِ بقتلهِ اذا حاول الفرار او اذا كان لا بدَّ من القتل وامرهُ باعدام قواد جيشهِ الصغير ووضع الباقين في السجن واما اذا خضع نوشزاد وناب عن اعمالهِ فيعاد الى قصر ابيهِ ويبقى فيهِ تحت المحافظة وتعطى اليهِ كل لوازمهِ على شرط ألاَّ يخرج من القصر . ولما التقى جيش الامير بجيش هذا القائد الشهير تقهقر اعوان الشاب في الحال لانهم كانوا اقل عددًا وسلاحاً من جيش الملك غير ان معظمهم من الفتيان والشيوخ كانوا لا يعرفون صناعة الحرب في حين ان الجيش الذي انتخبهُ انوشيروان لمحاربة ابنهِ كان نخبة

ابطالهِ المجربين ولم يرضَ الامير بالتسليم ولكنهُ حارب ودافع عن نفسهِ حتَّى وقع قتيلاً وانتهى الامر

وكانت الجزيات والهدايا تتوارد الى قصر انوشيروان كل عام من جميع الانحاء وقد بالغ المؤرخون في وصف الهدايا الَّتي كانت ترد اليهِ من ملك الصين وسلاطين الهند ولو صدقت روايتهم لكانت الهديَّة الواحدة لا تقل في ثمنها عن عشرين مليون جنيه وفي هذا مبالغة وان يكن ملوك الشرق وسلاطين الهند بنوع اخص قد اشتهروا بالثروة الطائلة وحب التظاهر بالنعمة الكثيرة وكانت واردات ممالكهِ تضاهي مائة مليون جنيه

واما النظامات الداخليَّة الَّتي سنها انوشيروان فكانت مثالاً في العدل والفائدة واشهرها تنظيم الاموال وكيفيَّة دفعها فانهُ جعل مالاً معلوماً على العقار والمال يدفع الى خزانة الحكومة عاماً بعد عام بدل ان يجمع حين يطلبهُ الملك وفرض على الذين لا ينتظمون في سلك جيشهِ مال العسكريَّة مثل الذي تفرضهُ بعض الدول الاسلاميَّة اليوم وكانت الخدمة العسكريَّة تفرض على كل رجل بين العشرين والخمسين من عمرهِ . واشتهر انوشيروان بولعهِ في الامور العسكرية وميلهِ الى اتقان الفنون الحربيَّة حتى انهُ كان يحضر استعراض العساكر بنفسهِ ويسمي نفسهُ جنديًّا ايرانيًّا ويحتم على عساكرهِ بانتظام الملابس والسلاح او يشدّد عليهم الجزاء وكان لهُ مفتشون يستعرضون العساكر ويجرون التفتيش على نسق اهل هذه الايام فحدث انهُ حضر الاستعراض مرَّةً وقرئ اسمهُ مع بقيَّة العساكر ولما جاء المفتش ليفحص سلاحهُ وجد كنانتهُ على غير الهيئة المطلوبة فامرهُ بالخروج من الصفوف واصلاح ذلك الخلل فخرج انوشيروان وهو يتميز غيظاً لا من قحة المفتش

ولكن من عدم انتباههِ وتقصيرهِ ولم يؤْذِ ذلك المفتش كما ظنَّ البعض بل زادت ثقتهُ بهِ ورقّاهُ وهذا من اكبر الادلة على اتساع مداركهِ وعدلهِ. ومما يروى عن عدلهِ ان بعض الولايات أُصيبت في ايامهِ بكثرة الثعالب حتى أقلقت الناس بصراخها وهجومها ووصل الخبر انوشيروان فبعث وراءَ (الموبدان) الكبير او رئيس كهنة النار وسأَلهُ رأْيهُ في الامر فقال ان الثعالب ما كثرت الاَّ من كثرة الظلم في البلاد فاهتمَّ الملك اهتماماً عظيماً لهذا الخبر وعين لجنة عدد اعضائها ١٣ من نخبة امرائهِ ورجالهِ وامرهم بزيارة كل مركز من مراكز حكومتهِ واعطاء التقرير اللازم عنها ففعلت اللجنة ذلك بعد ان ظلت السنين تدور وتبحث وكانت نتيجة مباحثها عزل كل حاكم مستبد او عامل ظالم حتَّى عمَّ العدل وضرب الامن اطنابهُ في ايام هذا الملك العظيم وكان هو قدوة العادلين فلذا قال عنهُ النبي (صلعم) ولدت في زمن الملك العادل . ويروي المؤرخون على ذلك قصصاً أُخرى غير هذه نورد منها واحدة فقط لاشتهارها هي انهُ جاءَ المداين يوماً سفير من ملك الروم ليقدم لانوشيروان الهدايا اللازمة فرأَى في احد جوانب القصر حيطاً مائلاً وسأَل عن السبب في ذلك فاجابهُ احد الاعوان ان تلك القطعة الَّتي مرَّ الجدار بها ملك امرأة عجوز لم تشأْ بيعها ولا التنازل عنها للملك مع كثرة الحاحهِ عليها في ذلك فآثر الملك تغيير هيئة قصرهِ كما ترى على ظلم هذه العجوز وعجب الروماني لهذا العدل الكثير . والحكايات الَّتي قيلت عن انوشيروان من هذا النوع كثيرة جدًّا ولا غروَ فهو اكبر من اشتهر بين ملوك المشرق

وعاش انوشيروان ثمانين سنة حكم منها ٤٨ سنة وهو المعروف بلقب العادل الى هذا اليوم ولم يقم في بلاد ايران اعظم منهُ وهو آخر ملك عظيم

تولى امور هذه البلاد قبل الفتح الاسلامي . ولما مات خلفهُ ابنهُ زهرم
الثالث وكانت امهُ ابنة سلطان التتر وعني والدهُ بتربيتهِ على يد الحكيم
بزركمهر فسار هرمز على خطة ابيهِ مدَّة وجود الوزير معهُ حَتَّى اذا تنحَّى
هذا الرجل الفاضل بعد ان بلغ من الكبر عتياً غيَّر الملك خطتهُ وافسد كل
ما اصلحهُ ابوهُ من قبلهِ وانغمس في الشهوات واكثر من المنكرات فطمع
الاعداء فيهِ وعصتهُ ولايات الهند وبلاد العرب وانحاء العراق العربي
وتقدَّم سلطان التتر على بلاده فاختار هرمز قائدًا باسلاً اسمهُ بهرام چوبين
قيل ان الملك عرفهُ باستشارة الحكماء والانبياء فنجح هذا القائد الباسل في
طرد التتر واعادة السكينة الى بلادهِ وكان قبيح الصورة ولكنهُ حميد الخصال
نادرة في الفطنة والبسالة بين الرجال .. وبعد طرد التتر تحوَّل بهرام لمحاربة
الرومانيين وبينما كان يجاهد في مصلحة بلادهِ وشي بهِ بعض المقربين فاظهر لهُ
الملك علامة الاحتقار واستشاط القائد غيظاً فعصى امر الملك وجاهر بخلعهِ ونصب
مكانهُ ابنهُ كسرى پرويز وكان صبياً صغيرًا وساعدهُ على ذلك بعض اقارب
الملك ففقأُوا عيني هرمز ووضعوهُ في السجن ثم قتلوهُ وتقدم الملك الصغير لاستلام
زمام الملك فرأَى ان بهرام يطمع في المملكة وحاربهُ وانخذل وفرَّ من وجه
بهرام الى بلاد الروم حيث قابلهُ امبراطورها بالترحاب الكثير واعطاهُ
جيشاً لمعاونتهِ على استرجاع حقوقهِ فنجح الفتى في الامر وانتصر على بهرام
واضطرهُ الى الفرار الى بلاد التتر الذين حاربهم وطردهم من بلاد ايران
فقابلهُ سلطان التتر مقابلة حسنة ورفع مقامهُ اعتبارًا لبسالتهِ ولكن الخيانة
لحقتهُ الى ذلك المكان فمات فيهِ مسموماً واستبد كسرى پرويز بالامر وكان
صديقاً حميماً لملك الروم يسميهِ والدهُ ويعتبرهُ اعتبارًا كبيرًا لانهُ هو الذي

مكنهُ من استرجاع الملك حتَّى تنازل لهُ عن بعض الاراضي في بلاد العراق واكرم كل رومي في بلادهِ ولكنهُ شدد الوطأَة على الذين اشتركوا في مقاومتهِ وقتل الذين عاونوا بهرام على خلع ابيهِ وكان احدهم خالهُ وظل پرويز صديق مملكة الروم حتى مات صديقهُ الامبراطور موريس فاثار عليها حرباً وفلَّ جموعها وملك منها بلاد الشام ودخل مدينة القدس الشريف فعثر بالصليب الحقيقي الذي صلب عليهِ المسيح وكان في حفرة داخل صندوق من الذهب واخذهُ معهُ الى المداين فعد ذلك اكبر آيات نصرهِ. ومن غريب الامر ان قواد هذا الملك كانوا يخضعون البلدان ويأتون لهُ منها بالغنائم وهو يتنعم بالطيبات الى حدٍّ لم يجارهِ فيهِ واحد من ملوك الارض فكان لهُ ١٢ الف امرأَة وخمسين الف جواد وشيءٌ لا يحصى من ادوات الترف والقصور الباذخة ومظاهر الثروة والنعمة وقصر كسرى پرويز مثال في الابهة والغنى الى هذا اليوم . وحكم ثلثين سنةً ذاق فيها من اللذة والتنعم بالطيبات ما لم يذقهُ ملك من قبلهِ ومن بعدهِ وهو الذي جاءَهُ كتاب من النبي محمَّد صلعم يدعوهُ بهِ الى الاسلام فاحتقرهُ ورمى بهِ الى النهر ولم يعلم ان آخرة مملكتهِ كانت قريبة على يد الامة العربية . ولما زاد اسراف هذا الملك وبذخهُ عن كل حد طمع فيهِ ملوك الاجانب واشهرهم هرقل امبراطور القسطنطينية فهاجم بلادهُ وظل ستة اعوام يكسر جيشاً بعد جيش من جنود ايران حتى تقدم على المداين وپرويز لاهٍ بطيباتهِ فلما احس بقرب الخطر فرَّ من وجه خصمهِ فتبعهُ ابنهُ شيرويه وقتلهُ جزاءَ افراطهِ في التلذذ واهمال امر المملكة

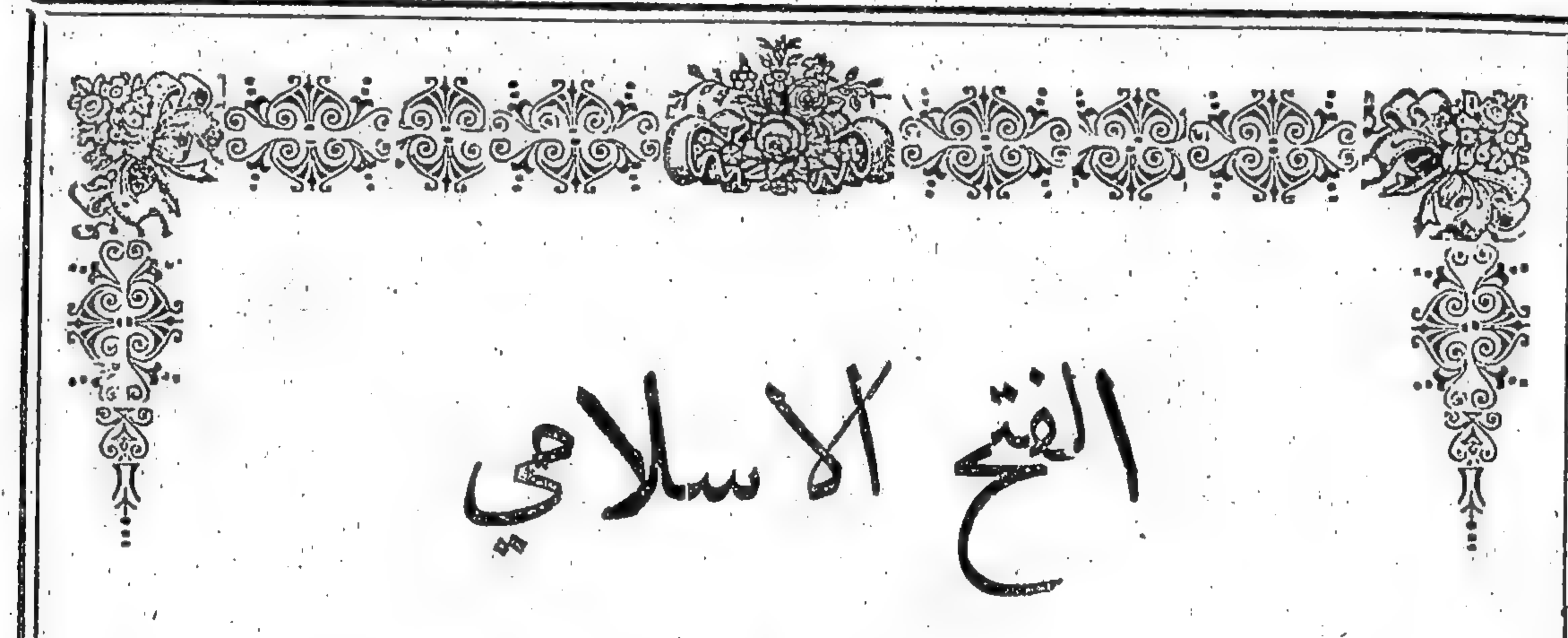
وحكم شيرويه مكان ابيهِ ستة اشهر وقيل انهُ كان عادلاً وكان اشهر اعمالهِ قتل اخوتهِ واقاربهِ عن بكرة ابيهم . ولما مات اقام الاشراف

ابنهُ اردشير ملكاً عليهم ولكن احد الاكابر واسمهُ شهريار قتلهُ وجلس على سرير الملك مكانهُ ثم قتل هذا المدعي وخلفهُ ابنة من آل ساسان اسمها پوران دخت ابنة كسرى پرويز ولم يجد الناس ذكرًا من عائلتهِ يحكم بدلها وفي ايامها هجم هرقل على المدائن وملكها واسترجع منها الصليب الذي جاء بهِ اهل ايران من القدس واخذهُ الى القسطنطينيَّة . وحكمت پوران دخت سنةً واربعة اشهر وخلفها ابن عمها فحكم شهرًا واحدًا وخلفتهُ ابنة أُخرى من بنات پرويز هي آزرميدخت وكانت شهيرة في العقل والجمال فاحبها هرمز حاكم خراسان وجاء يطلب الاقتران بها فامرت باعدامهِ ولما سمع ابنهُ رستم بذلك هاجمها وانتصر عليها وامر بقتلها أخذًا بثأر ابيهِ ثم حكم بعدها واحد اسمهُ كسرى اشهرًا قليلة وتلاهُ يزدكرد بن شهريار الذي مرَّ ذكرهُ وكان ضعيف الرأي قليل الدراية وليس لهُ ذكر لولا ان تسقط المملكة في ايامهِ ويملكها العرب كما ترى في الفصل القادم

وقد كانت هذه الدولة مِنْ اعظم دول ايران واهمها قام منها ملوك هم في الطبقة الاولى من الاهمية منهم اردشير وشاپور وانوشيروان وهذه اسماء ملوك الدولة الساسانيَّة وتاريخ حكمهم

اردشير بابكان	من	٢٢٦	الى	٢٤٠ م .
شاپور الاول	من	٢٤٠	الى	٢٧١
هرمز الاول	من	٢٧١	الى	٢٧٢
بهرام الاول	من	٢٧٢	الى	٢٧٥
بهرام الثاني	من	٢٧٥	الى	٢٩٢
بهرام الثالث	من	٢٩٢	الى	٢٩٣

نرسي	من	٢٩٣	الى	٣٠٢ م .
هرمز الثاني	من	٣٠٢	الى	٣٠٩
شاپور الثاني	من	٣٠٩	الى	٣٨٠
اردشير الثاني	من	٣٨٠	الى	٣٨٤
شاپور الثالث	من	٣٨٤	الى	٣٨٩
بهرام الرابع	من	٣٨٩	الى	٤٠٣
يزدكرد الآثم	من	٤٠٣	الى	٤١٩
بهرام الخامس	من	٤١٩	الى	٤٣٧
يزدكرد الثاني	من	٤٣٧	الى	٤٥٥
هرمز الثالث	من	٤٥٥	الى	٤٥٦
فيروز	من	٤٥٦	الى	٤٨٢
پلاس	من	٤٨٢	الى	٤٨٣
غباد	من	٤٨٣	الى	٥٢٦
انوشيروان	من	٥٢٦	الى	٥٧٢
هرمز الرابع	من	٥٧٤	الى	٥٩١
كسرى پرويز	من	١٩١	الى	٦٢٩
شيرويه	من	٦٢٩	الى	٦٣٠
پوران دخت	من	٦٣٠	الى	٦٣٢
آزرميدخت	من	٦٣٢	الى	٦٣٥
يزدكرد الثالث	من	٦٣٥	الى الفتح الاسلامي	



الفتح الاسلامي

لبلاد ايران

كان العرب من ايام القدم يخضعون يوماً للفرس ويوماً يستقلون حتَّى اذا استتبّ الملك لآل ساسان في بلاد ايران جعلوا بلاد العرب من املاكهم واقاموا ملوك الحيرة من العرب عمالاً على قبائلها وكان الأكاسرة يقوون على العرب بالعرب ويرسلون احدى القبائل لمحاربة غيرها وهم في امنٍ من شرّ هذه الامة الَّتي ساد عليها الجهل وتولاها الانقسام الى ان قضى الله بتغيير الحال وظهور الاسلام في بلاد العرب وحدث ان احوال المملكة الايرانيَّة تضعضعت في تلك الايام وان امورها فسدت وبدأَت ادلة السقوط والاضمحلال تظهر عليها مع كل ما اتاهُ ملوكها الاواخر وبالاخص كسرى پرويز من ادلة الترف ومظاهر النعمة . ولما اعتنق العرب الاسلامَ ظهرت لهم قوة غريبة كانت كامنة فيهم ونشأَ عن اتباعهم دعوة النبي محمد (صلعم) اتحاد قبائلهم وظهور قوتهم الى حدٍّ يعدُّ من عجائب التاريخ فقد فتح العرب من بعد ايام النبي (صلعم) مملكتي الروم وايران في اقل من عشرة اعوامٍ ولم يكن في الارض يومئذٍ دول معروفة غير هاتين الدولتين فعدّ انتصار المسلمين واخبار الفتح الاسلامي في هاتيك الايام اعظم اعمال البشر واكبر آيات الفتح في تاريخ الآدميين

واما كيفيةُ انتشار الدين الاسلامي في بلاد العرب فليست من حوادث التاريخ الايراني ولكن الفتح الاسلامي لبلاد ايران يعدُّ اشهر حوادث هذه البلاد العظيمة فلابدَّ من استيفاء الكلام هنا عنهُ ولو ببعض الاختصار

جاء في التواريخ الاسلاميَّة ان النبي (صلعم) ارسل في السنة السادسة للهجرة كتاباً الى كسرى خسرو پرويز يدعوهُ فيهِ الى الاسلام . وهذا نص الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

"من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسولهِ وشهد ان لا اله الاَّ الله وان محمدًا عبدهُ ورسولهُ واني ادعوك بدعاء الله واني رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين فاسلم تسلم وان توليت فانما اثم المجوس عليك"

قيل فلما قرأ كسرى الكتاب مزقهُ ورمى بهِ الى الارض ورفض الدعوة ولما بلغ النبي (صلعم) هذا الخبر قال ان الله سيمزق ملك كسرى كما مزق كتابنا . (او مزق الله بطنهُ كما مزق كتابي) . وقيل ان كسرى قرأ الكتاب وهو يصطاد على ضفاف نهر يقرب من الكرمانشاه عاصمة بلادهِ فطرحهُ في نهر سياه رود غضباً وكان النهر يروي ما حولهُ من الارض فقلَّ ماؤُهُ وانخفض فلم يعد يصلح للري من ذلك اليوم . ويعتبر مؤَرخو العرب وايران من المسلمين ان الله غضب من اسراف ملوك ايران وتطرفهم في طلب المسرات فقسى قلب مليكهم حتى يذوق في آخر الامر ما ذاق من حرب

المسلمين ولو انهُ قبل الدعوة واسلم يوم وصول كتاب النبي (صلعم) اليهِ لظلَّ ملكًا عظيماً ولم يمسهُ المسلمون بشر

وحدثوا عن النبي (صلعم) انهُ وعد الذين اتبعوهُ بملك كسرى وقيصر فلما ان قوي العرب بالاتحاد وذاقوا لذة النصر بعثوا بالجيوش الى بلاد الشام وما يليها من املاك كسرى وكان بعض قوادهم يناوئ الفرس ويناوشهم في انحاء العراق ولكن العرب وجهوا همهم في اول الامر الى فتح الشام وبقيَّة مملكة الروم فلما نالوا الفوز وخضعت البلاد لهيبتهم حولوا نظرهم الى مملكة كسرى وبدأُوا بالعمل على فتحها في السنة السادسة عشرة للهجرة وهذه حكاية الفتح الاسلامي لبلاد ايران وما يتبعها نوردها هنا عن اصدق المصادر العربيَّة :

كان ابتداء الحرب بين العرب والايرانيين ان عربيًّا اسمهُ المثنى بن حارثة جعل يناوئ عساكر الدولة الايرانيَّة ويناوشها في ايَّام عمر ابن الخطاب (رضه) ورأَى من ضعف هذه الدولة وفساد امرها ما حبَّب اليهِ العمل على فتحها واخضاعها فسار الى عمر وقصَّ عليهِ الامر فرحَّب بهِ عمر وقرَّبهُ وسأَلهُ ان يصف بلاد ايران فقال هي ارض كثيرة الذرع والضرع ترابها مال وامرها عال قال فصف لي رجالها قال رجال طوال عظام جسام شديد كلبهم كثير سلبهم ضعيفة قلوبهم لا منعة لهم من صدقهم . فاستشار عمر اصحابهُ في الامر ورأَى منهم ميلاً شديدًا الى غزو ايران وامتلاكها ولهذا امر جماعة منهم بالزحف عليها تحت قيادة ابي عبيد بن مسعود وكان عدد المقاتلين من العرب اقل من عدد عساكر ايران فلم يتم لهم النصر. ثم اجتمعت قواد الجيشين على مكان يقال لهُ الجسر على ضفاف الفرات فانضمَّ الى جيش ايران قائد اسمهُ جالينوس وكان القائد العام لعساكر يزدگرد

اسمهُ رستم فرخزاد ومعهُ بطل آخر اسمهُ جايان فتقدَّم ابو عبيد ونازلهم على مقربةٍ من الجسر وكانت الواقعة شديدة الهول خسرها العرب لعدم تروّي قائدهم ذلك انهُ بصر بفيل عظيم الخلقة في وسط جيوش الفرس فسأل عنهُ وقيل لهُ ان الايرانيين يستعينون بهِ على القتال ولا يركبهُ الاَّ امراؤهم فجرد سيفهُ وتقدَّم على ذلك الفيل وضربهُ ضربةً قطعت خرطومهُ فاشتدَّ الالم والهياج بالفيل وهجم على ابي عبيدة فطحنهُ تحت جسمهِ الثقيل طحناً ووقع الفشل في صفوف العرب بعد موت قائدهم وهرب اكثرهم من وجه الايرانيين وهم يطاردونهم ويقتلونهم وغرق منهم خلق كثير في الفرات ذلك اليوم لان الجسر الذي عبروا عليهِ سقط ولم يعد يمكن لهم الفرار فلم يسلم منهم الاَّ عددٌ قليل عسكروا في بلدة يقال لها السلبة وبعثوا بالاخبار الى عمر بن الخطاب (رضه) على لسان معاذ بن الحصين فلما وصل دخلها وعمر في المسجد يصلي واعلمهُ بالحكاية فبكى حزناً على الابطال الذين قتلوا وضجَّ جماعة المسلمين كلهم بالبكاء . واستدعى عمر بجرير ابن عبد الله البجلي وامرهُ بالسير مع بعض الجنود لاعانة الذين سلموا من واقعة الجسر فسار بحوالي الف فارس ولما نزل العراق بعث اليهِ المثنى — وكان اميراً على العرب المقاتلين بعد وفاة ابي عبيد — كتاباً يعلمهُ فيهِ انهُ لايطيع لهُ امراً فأجابهُ جرير ان كن انت اميراً على قومك واظل انا اميراً على قومي وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فجمع اصحابهُ وشاورهم في الامر وكان ينوي التقدم لمحاربة ايران بنفسهِ فكلٌّ اشار بذلك وقالوا ان جيشاً تكون فيهِ يكون منصوراً وخالفهم الامام علي بن ابي طالب (عم) فقال الراي عندي انك لاتسير الى العراق بنفسك فانك ان سرت وكان لك مع القوم حرب واختلط الناس لم نأْمن ان يكون لك

عدو من الاعداء يرفع صوتهُ ويقول قتل عمر فيضطرب الناس في الحرب ولكن أقم في مدينة يثرب ووجه رجلاً يكفيك امر العدو. قال عمر من يكون هذا الرجل يا ابا الحسن قال اشير عليك ان ترسل سعد بن ابي وقاص فسمع عمر رأي صاحبهِ وولى سعدًا على جيش العرب وامر رؤساء العشائر من الابطال المعروفين بمعاونتهِ على القتال فساروا معهُ في حوالي عشرة آلاف مقاتل وانضمّ اليهم الذين كانوا تحت أمرة المثنى وجرير ابن عبد الله فصاروا جيشاً يذكر فلما بلغ نعمان ابن ميسرة ملك العراق خبر هذا الجيش وانهُ كان ينوي افتتاح العراق التابعة لبلاد ايران جمع قواتهِ ومن لديهِ من العرب وحرضهم على القتال ولما التقى الجيشان وبدأ القتال قتل النعمان وتقهقر جيشهُ وانتصر المسلمون انتصارًا تامًّا على اعدائهم وملكوا خزائن النعمان وبذلوا السيف في رجالهِ وهرب من بقي من جيش النعمان الى القادسيّة فانضموا الى قوات ايران وكان يزدگرد قد جمع جيشاً كبيرًا لمقاتلة العرب فانقطعت ظهورهم من خبر انتصار العرب على قومهم واستعدوا للجلاد والجهاد

واما واقعة القادسيّة فكانت من أشهر مواقع العرب والفرس تحارب فيها الفريقان مدة عشرة ايام ذاق فيها المقاتلون أمرّ الاهوال وتمّ فيها النصر في آخر الامر للمسلمين بعد ان قتلوا عددًا كبيرًا من قواد الفرس واكابرهم وفرّ الايرانيون من وجه العرب فتبعهم الفاتحون يضربون في اقفيتهم وجمعوا من المال شيئاً كثيرًا ونال عساكر العرب من الذهب والفضة والكافور والعنبر قدرًا طائلاً وكان بعضهم لا يعرف للكافور والذهب قيمة حتّى انهم جعلوا يبدلون الذهب بالفضة لجهلهم قيمة المعدنين . وكتب سعد بن ابي وقاص الى عمر بحكاية هذا النصر وكان عمر بن الخطاب (رضه) حين بلغهُ ان

ان جيش ايران على القادسيَّة يركب كل يوم ويسير على جادة العراق فلا يبرحها حَتَّى يقرب وقت الظهر ويعود الى منزلهِ حَتَّى رأَى البشير يوماً قادماً وعرفهُ وجعل يسأَلهُ الحكاية والرسول يخبرهُ وهو لا يعلم انهُ امير المؤمنين حتى اذا دخل المدينة رأَى الناس تسلم عليهِ فخجل الرجل واعتذر وجعل عمر (رضه) يقول لهُ لا عليك يا أَخي لا عليك الى ان وصل المسجد واخبر الناس بحكاية النصر فزاد سرورهم وودَّ كلٌّ منهم لو يكون في عداد المقاتلين . وارسل سعد بن ابي وقاص خمس الذي غنمهُ المسلمون الى بيت المال وشكرهُ عمر وامرهُ ان يتقدم على عاصمة كسرى فزحف سعد على المدائن وخاف يزدكرد العاقبة وبعث إِلَى امير العرب يرجوهُ ارسال وفدٍ من قومهِ ليحدثهم في شأْن القتال وما جاءُوا من اجلهِ فلم يمتنع سعد عن اجابة الطلب وارسل اليهِ وفدًا يرأَسهُ المغيرة بن شعبة الثقفي . فسار هؤُلاء الرجال حَتَّى دخلوا المدائن وجاءُوا قصر كسرى يزدكرد وكان في تلك الساعة يشرب الخمر مع اخصائهِ فلما علم بقدوم وفد العرب امر برفع الخمر وادخالهم حَتَّى اذا جلسوا في حضرتهِ خاطبهم بما يأْتي

" يا معشر العرب . انكم كنتم تأْتون بلادنا هذه ما بين تاجر ووافد وابن سبيل وكنا نحسن اليكم فما شعرنا حتى جئتم الينا من كل اوب تملكون بلادنا وتضاهوننا في نعمتنا وما اعرف مثلي ومثلكم الاَّ كرجل لهُ كرم دخل اليهِ ثعلب فاكل منهُ وافسد فلما رأَى الثعلب ان ليس لهُ مانع خرج فجمع الثعالب . ثم جاءَ بهم الى الكرم فلما رآهم صاحب الكرم اخذ عليهم الحجار فقتلهم عن آخرهم . فهذا مثلي ومثلكم ولو اردت ان افعل بكم ذلك لفعلت وانا اعلم انهُ ما حملكم على المجيء الى بلادي الاَّ ما انتم فيهِ من الجوع

والجهد والبؤس والضنك فان كان ذلك كذلك فانا اوقر لكم الابل طعاماً وكسوةً وزاداً واحسن اليكم جهدي وارسلكم تمضون الى بلادكم وان كنتم ترجون اخذ بلادي وزوال ملكي فاعلموني حتّى ابغي لكم الغوائل وانصب لكم الحبائل "

وفي هذا الخطاب ما لا يخفى من ادلة الخيلاء مع الضعف الكثير فلم يهتز لهُ الوفد العربي واجابهُ المغيرة بما يأتي

" انك لم تذكر شيئاً من البؤس والجوع الاّ كنا في اعظم منهُ وذلك اننا كنا ناكل الميتة ونأخذ ما ليس لنا بحق وكنا لانعرف حلالاً ولا حراماً حتّى بعث الله فينا نبياً هاشمياً هدانا الله بهِ من الضلالة .... وانا نعرض عليك خصالاً ثلاثاً فاختر ايهنَّ شئت . اما الواحدة فان تقول لا اله الاّ الله فان انت قلتها اقررناك في بلدك وانصرفنا عنك ولايدخل بلدك احد منا الاّ باذنك وعليك الزكاة والخمس من مالك يؤدى الى بيت مال المسلمين وان ابيت الاّ دينكَ فاعطِ الجزية عن يدٍ وانت صاغر وان ابيتَ هذه الخصال فأْذن بحرب من الله ورسولهِ "

فلما سمع يزدگرد كلام المغيرة اطرق ملياً وسأل الايضاح عن معنى اداء الجزية صاغراً فلما فهم ذلك امر بطرد القوم من حضرتهِ ونادى في رجالهِ بان يستعدوا للقتال

وكان من امر العرب في واقعة القادسيَّة انهم غنموا من الاعداء رايتهم المقدسة (درفش كاواني) نريد بها راية الحداد "كاوه" التي كانوا ينشرونها في الملمات والشدائد وبعث بها سعد مع الخمس الى عمر بن الخطاب وكان عليها من نفيس الجوهر واللؤلوء ما يقدر بمئات الالوف . واعتبر الفريقان

ان ضياع هذه الراية من قبضة الفرس دليل على قرب سقوطهم وضياع دولتهم فولوا منهزمين من القادسية بعد قتال شديد وتوغل سعد في البلاد حتَّى صار على ابواب المدائن وملكها بعد قتال قليل وغنم العرب منها ما لا يحصى من الاموال وبعثوا بتاج كسرى يزدگرد والخمس والهدايا النفيسة الى بيت المسلمين ممَّا غنموهُ في المداين

قيل وكان كسرى يزدگرد يوم هاجم العرب المداين في قصرهِ يراقب حركات العدو من نافذة فرأى البسالة على وجوه العرب وهم يقاتلون ويضحكون كانما القتال والموت عندهم من ابسط الامور فعلم انهُ لا يقدر على ردهم وهرب في الحال الى مدينة حلوان ومعهُ كل ما خفَّ وزنهُ وارتفع قدرهُ ممَّا قدر على جمعهِ في ذلك اليوم فتبعهُ سعد بن ابي وقاص وارسل هاشم ابن اخيهِ في عشرة آلاف مقاتل لمحاربة جيش للفرس سمع بقدومهِ من شيروان واذربايجان فهرب الجيش الايراني من وجه هاشم ومن معهُ الى مدينة حلولا وتبعهم العرب اليها وانتصروا عليهم وملكوا البلاد منهم

وظلَّ العرب يفتحون مدينةً بعد مدينةٍ مِنْ مدائن الفرس ويملكون منها المال الكثير حتى دالت دولة ايران وملك العرب البلاد عن آخرها وهرب يزدگرد من البلاد فلجأ الى بلاد التتر وجعل العرب مدينة الكوفة في العراق مركز قواتهم وبنوا مدينة البصرة وعملوا العظائم في اعوام قليلة

وبقي سعد بن ابي وقَّاص واليًا على بلاد ايران الى أن سمع عمر يومًا بامرٍ عنهُ استدعاهُ من اجلهِ واقام على تلك البلاد واليًا غيرهُ وكان يزدگرد لم يزل حيًّا يسعى في ردّ الملك اليهِ فظنَّ ان ابتعاد سعد ينيلهُ مأربًا فجمع جيشًا كبيرًا من بلاد همدان وخراسان وجعلهُ تحت قيادة بطل صنديد اسمهُ فيروزان وارسلهُ لمحاربة العرب

وجيَّش يزدگرد مئة وخمسين الف مقاتل من بلاد خراسان وهرات وهمدان وغيرها وعيَّن البطل فيروزان قائدًا عامًّا على هذا الجيش الطامي وهو يؤمّل منهُ النجاح والعود الى ابهّة الملك الاولى فلمَّا سمع عمر بن الخطاب بهذا الاستعداد الكبير لطرد العرب من بلاد ايران أَرسل الاوامر الى كل جهات السلطنة العربيَّة بالاسراع لمعاونة الجيش الذي فتح ايران وجاءَت النجدة من كل صوب فاجتمع لديهِ جيش كبير ولى عليهِ النعمان بن مكران المزني وأوصاهُ بالعمل على ابادة هياكل النار واخضاع الايرانيين اخضاعًا تامًّا. فتقدَّم النعمان بجيشهِ الى الكوفة ومنها الى سهول نهاوند في بلاد ايران وكانت جيوش الايرانيين في تلك الناحية تنتظر قدوم العرب وقد حفرت الخنادق وتحصنت من ورائها وظلَّ الجيشان مدَّة شهرين الواحد تجاه الآخر وهما لا يحاولان الهجوم حتَّى فرغ صبر العرب وعوَّل قائدهم على الهجوم بعد الاستعانة على الله تعالى فجمع رجالهُ وخطب فيهم يحرضهم على الجهاد ويبين لهم آخرة الشهادة أَو الفتح وقال لهم في ختام خطابهِ انهُ قد عوَّل على مهاجمة الفرس وطردهم من مواضعهم وقلبهُ يحدثهُ انهُ سوف يقتل فان صحَّ ظنهُ وجب عليهم الانقياد من بعدهِ لاوامر حذيفة بن علي عمان وجعل لهم التكبير ثلاثًا علامة الابتداء بالحرب فكبَّر أولاً وثانيًا بعد انتهاء هذا الخطاب فاستعدَّ كلُّ مقاتل للهجوم حتَّى اذا كبَّر نعمان المرَّة الثالثة أَجابهُ الجيش برمتهِ وهجم الابطال على جيش ايران هجومًا عنيفًا قطع قلوب الاعداء واظهر العرب في تلك المعركة من البسالة شيئًا كثيرًا فظفروا بالايرانيين وكسروهم شرَّ كسرة ولكن قائدهم الباسل قتل كما ظنَّ وذلك بعد ان رأى النصر المبين بعينهِ وحزن أَبطال العرب لوفاتهِ حزنًا مفرطًا. وقتل من الايرانيين في

موقعة نهاوند هذه نحو ثلاثين الفاً بطعن الرماح وضرب السيوف وفرّ الباقون في كل ناحية منهم اربعة آلاف ظلوا تحت قيادة فيروزان فتبعهم الف من العرب وقتلوهم وقائدهم عن بكرة ابيهم وهكذا تمّ النصر للعرب وانتهت الحروب بينهم وبين الايرانيين في أيّام الفتح الاسلامي

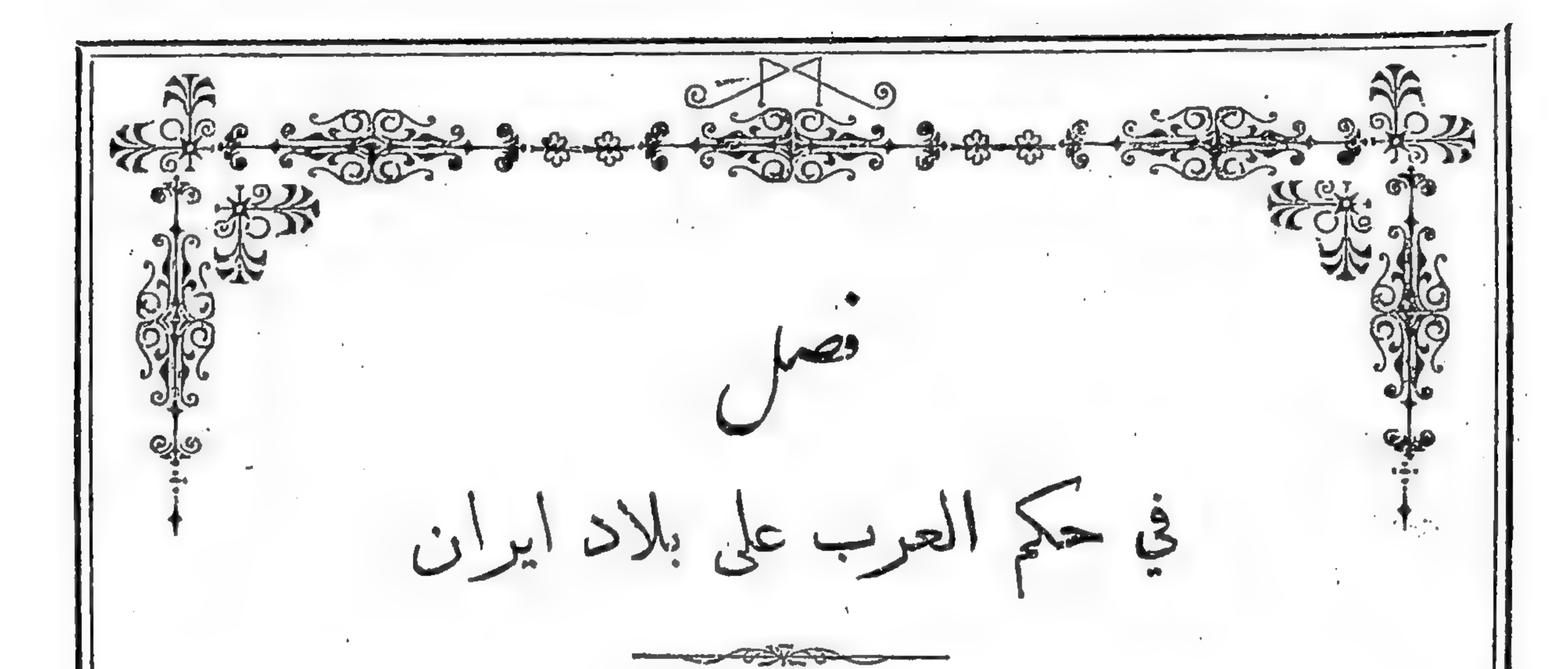
واما يزدكرد فانهُ لما علم بانكسار جيشهِ الطامي لم يبقَ لهُ مطمع في الحياة والملك وفرّ الى بلاد سيستان بعد ان صارت مملكتهُ ملكاً للعرب ورحل عن سيستان الى خراسان ومنها الى مرو وهو يظن انهُ ينجو من يد العرب بمثل هذا الفرار فلمّا علم حاكم هذه المدينة (وكان من سلالة التتر قتل ابوهُ بأمر ملك ايران) بقدومهِ بعث سرًّا الى ملك التتر يعلمهُ بالامر ويدعوهُ الى الحضور للقبض عليهِ لانهُ كان يعلم ان العداوة مزمنة بين التتر والايرانيين فجاءَ ملك التتر بجيشهِ الى مدينة مرو وفتح لهم حاكمها الابواب فلما رأى أهل المدينة ذلك وعلموا سر الحكاية نفروا من نذالة حاكمهم وخيانتهِ وقاموا على التتر فحاربوهم محاربة الابطال ولكنهم لم يقووا على ردهم وانتهز يزدكرد فرصة اشتغالهم بالقتال ففرَّ يطلب السلامة لنفسهِ ولجأ الى مطحنة تقرب من المدينة فتذلل لصاحبها ورجاهُ ان يقبلهُ في محلهِ ضيفاً الى بكرة غدٍ فوعدهُ الرجل بذلك وذهب يزدكرد لينام لان التعب والفرار اضنياهُ الّا أن الرجل الغادر رأى مع يزدكرد من الحلى والجواهر ما أنساهُ المروءة وحقوق الضيافة فذهب اليهِ وهو نائم وقطع رأسهُ بسيفهِ المرصع الذي اخذهُ لقاء وعدهِ المذكور ثم القى جثتهُ في النهر وهكذا انتهت حياة هذا الملك التعيس وهو آخر ملوك الدولة الساسانيَّة العظيمة

واما حاكم مرو فرأى من التتر بعد دخولهِ مدينتهِ ظلماً ما كان يخطر بالبال

واتفق مع الاهالي على الخلاص منهم فحاربهم وطردهم من المدينة وندم على ما كان منهُ معهم ومع يزدكرد حَتَّى اذا خرج هؤلاء القوم من مدينتهِ جعل يبحث عن الملك يزدكرد حَتَّى يواسيهِ ويساعدهُ ما امكن ولم يطل الامر حَتَّى علم الناس بما كان من أمر يزدكرد المظلوم فعظم حقدهم على قاتلهِ الغادر وهجم البعض عليهِ فمزقوهُ باسنانهم من الغيظ . ثمَّ ان هؤلاء القوم بحثوا عن جثة يزدكرد ووجدوها فحنطوها وارسلوها الى اصطخر لتدفن مع جثث اجدادهِ العظام. وكان يزدكرد ملكاً ضعيف الرأي حكم البلاد تسعة اعوام وانتهى حكمهُ يوم معركة نهاوند وهو آخر من حكم البلاد الايرانيَّة من آل ساسان العظام كما تقدَّم . وهنا ينتهي بنا الكلام عن بلاد ايران في الازمان القديمة ونبدأُ بتاريخها من بعد انتشار الاسلام فيها وقد افردنا في غير هذا الموضع فصلاً مطولاً لوصف حالة البلاد الادبيَّة قبل دخول الاسلام اليها ووصف عقائد الايرانيين وعلومهم ومعارفهم وغير هذا مما لا يعدُّ التاريخ كافياً بدونهِ وهذا آخر ما نقولهُ في

تاريخ ايران

القديم



فصل

في حكم العرب على بلاد ايران

لما سقطت دولة ايران في ايام الفتح الاسلامي وصارت البلاد تابعة للعرب لم يعد لها تاريخ خاص بها وصارت ولاية تابعة لسلطنة العرب وظلت على هذا الحال نحو ١٣٠ سنة لم يعرف عنها الاَّ القليل ممَّا سوف نذكره في هذا الفصل . وتشبه هذه المدة في تاريخ ايران المدَّة الَّتي تلت موت الاسكندر يوم صارت البلاد من املاك الدولة السوريَّة اليونانيَّة ولم يعرف عنها غير القليل . غير ان تواريخ العرب الَّتي تنقل عنها الحوادث التالية اوضح واطول من الَّتي نقلنا عنها في ايام الفتح اليوناني والمبالغة كثيرة في النوعين ولكن تواريخ العرب اقرب الى الصواب واكثر تدقيقًا وهذه خلاصة الذي نعلمهُ عن بلاد ايران في المدة الَّتي ذكرناها نقلاً عن تواريخ العرب

لما ملك العرب بلاد ايران جعلوا كل قسم منها ولاية يعين الوالي عليها من قبل الامويين والعباسيين رأسًا وظلَّ الحال على هذا المنوال وليس في البلاد ما يدعو الى الذكر الى ان ضعفت قوَّة العرب قليلاً في اواخر حكم الدولة العباسيَّة وصار للولاة قوة كبيرة حتى ان بعض الملوك كان لا يجسر على مس الوالي بسوءٍ ولا يقدر على عزلهِ الاَّ اذا هو استعان باقرباء هذا الوالي واعوانهِ وحصل مثل هذا في ايام المأمون ابن الرشيد يوم اراد عزل

والي خراسان ولذلك صارت هذه الولايات بعد حين امارات مستقلة تعترف بسيادة العرب وبعض الولاة كانوا لا يعترفون بذلك حتى كثر الخلل وساد الضعف فوقعت البلاد في حوزة رجل من اهالي سيستان بايالة كرمان رقي سلم المجد بجدهِ واقدامهِ نريد بهِ يعقوب ابن الليث الصفار وهو اميرٌ نال قوة عظيمة وشهرة واسعة ولهذا نرى ان نأتي على طرفٍ من تاريخ هذا الامير الذي تشكلت على يدهِ الدولة الفارسيَّة الصفاريَّة فنقول

كان ابو يعقوب هذا صانعًا بسيطًا اسمهُ الليث في بلدة صغيرة من سيستان وكان يعقوب يشتغل في دكان والدهِ وكلما جمع شيئًا من المال انفقهُ على رفاقهِ وخلانهِ حتَّى اشتهر بينهم بالعطاء والكرم واحبوهُ محبةً كبيرة فلمَّا شبَّ ووجد أن ايراد حرفتهِ لا يقوم بالذي يريدهُ عزم على قطع الطرق وسرقة المال من المسافرين وتخطف الماشية واغتنام الذي ليس لهُ على الطريقة المعهودة فتبعهُ جلّ رفاقهِ لانهم كانوا يحبونهُ كثيرًا على ما تقدَّم وبدأ من ذلك الحين بقطع الطرق حتَّى عرف في طول البلاد وعرضها واشتهر بخصالٍ حميدة مع انهُ كان لصًّا ذلك انهُ كان يغار على العرض ويحسن معاملة الذين ينهب اموالهم واذا علم بفقير منهم ردَّ اليهِ مالهُ واضاف اليهِ شيئًا غيرهُ حتى اكتسب بهذه الفعال قلوب الناس وكانت الحكومة فوضى ولا سلطة للوالي يومئذٍ ولا للسلطان على الناس والخلاف كثير بين والي خراسان ووالي سيستان التي وجد يعقوب بن الليث فيها فاستعان والي سيستان بهذا البطل واعانهُ على والي خراسان وانالهُ المطلوب وبذلك عظمت قوَّة يعقوب وكبر مقامهُ حتَّى انهُ القى القبض بعد حين على الوالي الذي استدعاهُ لمساعدتهِ وارسلهُ الى بغداد مكبلاً بالقيود بدعوى انهُ خان السلطان ولا يصلح للولاية

فسرَّ المتوكل — وكان هو السلطان يومئذٍ — بهذا الصنيع واقام يعقوب بن الليث والياً على سيستان بدل الذي اسره' فما صدق يعقوب ان بلغ هذه الغاية حَتَى بدأَ بالاعتداء على جيرانهِ من الولاة وضمَّ اماراتهم الى امارتهِ فبدأَ بخراسان واستولى بعد العناء القليل على مدينة هرات وعلى جميع البلاد المسماة بما وراء النهر مثل سمرقند وبخارا وخيوة وكاشغر وبلاد الافغان والسند . ثم حوَّل همهُ الى امارة كرمان وضمها الى امارتهِ ثم استولى على مدينة شيراز وصار بذلك ملكاً كبيرًا

ولما عاد يعقوب من شيراز بعد افتتاحها أرسل الهدايا الى المتوكل على الله واقرَّ لهُ بالطاعة وطلب أَن يثبت رسمياً علي الولايات الَّتي فتحها فلم يمكن للمتوكل على الله أَن يعارضهُ في ذلك ولكنهُ عرض عليهِ ان يجعلهُ والي بلخ وسيستان وبخارا علي ان ينجلي عن الولايات الاخرى الَّتي اخضعها فرضي يعقوب بذلك ولكنهُ ماصدَّق ان صار والياً على البلدان المذكورة حَتَّى عاد الى سيرهِ الاول وهاجم خراسان مرةً أُخرى ونيشابور ومازندران وغنم الغنائم الكثيرة ثم أَرسل الى المتوكل يسأَلهُ اقرارهُ على ولاية خراسان وطبرستان وغيرها من البلدان فلم يعد في وسع السلطان السكوت عن هذه القحة واعلن في الحال أَن يعقوب عاصٍ وامر بلعنهِ في جميع الجوامع فلم يهتز يعقوب لذلك وتقدَّم على ولاية فارس ففتحها وسمع السلطان بامرهِ فخاف العاقبة لانهُ علم أَنَّ يعقوب كان ينوي خلعهُ والجلوس في موضعهِ فارسل اليهِ في الحال امرًا بالولاية على فارس وخراسان وطبرستان علاوة على الامارات الاخرى الَّتي كانت في قبضتهِ فرفض يعقوب احترام هذا الامر واظهر استياءهُ من تصرف المتوكل وعزم علي محاربتهِ فلمَّا وصل الخبر الى بغداد اثر فيها تأْثيرًا

كبيرًا وبدأ الاستعداد العظيم لمقاتلة هذا الامير والتخلص منهُ وجمع المتوكل جيشًا كبيرًا جعلهُ تحت قيادة اخيهِ الموفق وكان يعقوب يتقدَّم بجيشهِ على دار السلام حتّى صار على مقربةٍ من بغداد فحاربهُ الموفق وانتصر عليهِ فاضطرَّ الى التأخر والقهقرى ولكن يعقوب لم ينثنِ عن عزمهِ فعاد بعد حين الى مناوأة مليكهِ بعد أن جمع جيشًا آخر وخاف المتوكل العاقبة فارسل اليهِ وفدًا ليخابرهُ في الصلح فوصلهُ الوفد وهو يشكو من ألم شديد في معدتهِ وقد تثاقل عليهِ المرض ولما دخلوا عليهِ امر بعض اعوانهِ باحضار شيء من البصل والخبز ووضعها الى جانب سيفهِ حتّى اذا فاه رئيس الوفد بالذي جاء مِنْ اجلهِ اجابهُ يعقوب ان اخبر مولاك اني اذا حييت وقمت من هذا المرض فلست ارضى بغير هذا السيف حكمًا بيننا فان انتصرتُ عليهِ علمتهُ ما لا يعلم واخذت بثار ابي مسلم المروي وآل برمك والامام ابي حنيفة بن نعمان وان هو انتصر عليَّ فررت من وجههِ وكفاني لبقيَّة العمر الخبز والبصل الذي ترونهُ . فلما بلغ المتوكل على الله هذا الجواب اضطرب اضطرابًا كبيرًا وبذل جهدهُ في الاستعداد للقتال ولكن الله اراحهُ من يعقوب بغير حرب لان الرجل مات بعد يومين وترك اكثر ولايات ايران القديمة ملكًا لاخيهِ عمرو ابن الليث

وكان يعقوب ابن الليث الصفار من اشهر اهل زمانهِ بأسًا واكثرهم حلمًا واتضاعًا واميلهم الى بساطة العيش وهو من زعماء الشيعيين مثل بقيَّة اهل بيتهِ. واما اخوهُ عمرو الذي خلفهُ على ملكهِ الواسع فلم يخلُ من صفات طيبة ولكنهُ كان دون اخيهِ في البسالة والدراية الحربية والاستخفاف بملاذ هذه الدنيا . وكان من امر عمرو هذا انهُ ارسل الى السلطان العباسي كتابًا يظهر فيهِ الخضوع والاحترام ويطلب اليهِ ان يثبتهُ في الولاية على بلاد فارس والعراق

العجمي وخراسان وسيستان وطبرستان او بعبارة اخرى مملكة الفرس القديمة فرضي السلطان عنهُ واصدر لهُ امرًا بذلك وظلَّ هذا الامير حاكمًا على تلك البلدان الواسعة وهواقوى من صاحب بغداد واكثر مالاً حتَّى قام عليهِ اهل خراسان وطلبوا من السلطان ان يرسل لهم واليًا غيرهُ وكان الموفق اخو المعتمد هو القابض على ازمة الملك يومئذٍ فانتهز هذه الفرصة لاضعاف بني الليث وعين واليًا غير عمرو على خراسان واستعدَّ لمقاتلتهِ بجيش عظيم فحاربهُ وانتصر عليهِ واضطرَّ عمرو الى الفرار فهرب الى سيستان وهي بلادهُ الاصليَّة وظلَّ فيها زمانًا يلم شعثهُ ويجدّد قوتهُ حتى اجتمع لديهِ ما يريد فأعاد الكرَّة على بلاد خراسان واخضعها وذبح واليها وارسل رأسهُ الى بغداد ولكنهُ طلب الصفح والتثبيت في مركزهِ القديم من السلطان فأتاهُ الامر على ما يريد وزادت املاكهُ عن الاول فأُضيف اليها بلاد بلخ وما وراءَ النهر (نهر جيحون) وعظم قدر ابن الليث كثيرًا حتى انهُ فكر في عزل الملك العباسي وزار بغداد في جيش عظيم متظاهرًا بالشوق لرؤية صديقهِ فأحسَّ السلطان بالامر واتخذ التدابير اللازمة وعمرو يظن انهُ غافل عنهُ. ثم دخل عمرو بغداد باربعمائة مقاتل من اشد ابطالهِ فلما صار الى سراي الملك رأى من القوم استعدادًا للبطش بهِ فقاتل ومن معهُ وفرَّ من المدينة على جوادهِ بعد ان فقد احدى عينيهِ واكثر اعوانهِ وعاد بعد ذلك عن بغداد ولم ينل مرامهُ

ولما رأى العباسيون مقاصد بني الليث اوعزوا الى احد الامراء من نسل ملوك الفرس القدماء واسمهُ اسمعيل الساماني ان قم وحارب عمرو نعطك ممالكهُ فهجم اسمعيل على ما وراءَ النهر واغتصبها من عمال عمرو بعد ان كسرهم شرَّ كسرة وعزم عمرو على مقاتلة هذا العدو بنفسهِ فجيش سبعين الفًا من الرجال

وذهب لمقاتلة خصمهِ وكان اسمعيل قد استعدَّ لمقاتلتهِ في عشرين الفاً فقط من الابطال فلم ترعهُ كثرة العدد واظهر ورجالهُ بسالةً واقداماً غريبين تمكن بهما من الفوز على عمرو وجيوشهِ وحاول عمرو الفرار فكبا بهِ جوادهُ وتمكن الاعداء من أسرهِ. وحدث بعد اسرهِ ان احد العساكر كان يحضر لهُ طعاماً في قصعةٍ صغيرةٍ ووضعها الى الارض فجاءَ كلبٌ ومدَّ رأسهُ اليها ليأكل الطعام فلم يعد في وسعهِ اخراجهُ منها ففرَّ بها يعوي وعمرو يتفرَّج عليهِ وغلب عليهِ الضحك حَتَّى ذهل الواقفون حولهُ من امرهِ وسأَلوهُ عما اضحكهُ في يوم اسرهِ وذلهِ فقال لهم ان رئيس الطهاة في هذا الصباح كان يشكو من قلة الجمال لحمل ادوات طعامي وعدتها ثلاثمائة جمل وها قد جاءَ المساءُ فأَصبح هذا الكلب قادرًا على حمل كل ما لي من الطعام وادواتهِ . وارسل عمرو بعد كسرتهِ الى بغداد فضرب عنقهُ فيها بأَمر السلطان بعد ان حكم ٢٣ سنة واشتهر بحب الاطلاع على خفايا الذين كان يستخدمهم في بلاطهِ وفي ولاياتهِ فجعل يشتري العبيد ويربيهم حتى اذا شبوا اهداهم الى عمالهِ واوصاهم بنقل كل ما يسمعونهُ وما يرونهُ في بيوت مواليهم ففعلوا ذلك وظنَّ الذين لا يعرفون الامر ان عمرو يقرأُ الافكار ولهُ اطلاع بعلم الغيب . ولم تقم لبني الليث قائمةٌ من بعد سقوط عمرو على ما ذكرنا

ومرَّ على بلاد ايران نحو مائة عام من بعد سقوط بني الليث الى قيام السلطان محمود الغزنوي لم يحدث فيها ما يذكر غير الخلاف المستمرّ بين حزبين هما الحزب الساماني والحزب الديلمي . وكان الامراء السامانيون يحكمون ولايات خراسان وسيستان وبلخ وما وراءَ النهر ولا يقرون بالسيادة للعبَّاسيين. واما الديلميون وهم اهل كيلان فكانوا يتظاهرون بالخضوع لاصحاب

بغداد ويحكمون فارس والعراق وكرمان وخوزستان ولارستان وكان لبعضهم نفوذ كبير في بغداد جعل السلطنة الاسلاميَّة في يدهِ

ولسنا نرى موجباً للاسهاب في تاريخ هاتين العائلتين وما جرى بينهما من الحروب. يكفي ان يقال ان اشهر افراد العائلة السامانيَّة اميراسمهُ اسمعيل كان حاكماً على بخارى من قبل اخيهِ الاكبر نصر واشتهر بالذكاء والاقدام فخاف منهُ اخوهُ وحاربهُ ولكنهُ كُسر في الحروب وأُخذ أَسيرًا فلم يشأْ اسمعيل ان يقتل أَخاهُ واعادهُ الى الملك وظلَّ هو اميرًا على بخارى مدة حياة اخيهِ فتمكنت بذلك ربط الوداد بين الاخين. ثم تحارب اسمعيل وعمرو ابن الليث على ما تقدم ولما تمَّ لهُ النصر صار اميرًا على خراسان وبلخ وسيستان وسمرقند وبخارى وخوارزم فانتقل اليهِ ملك ايران وعظم امرهُ. وكان اسمعيل هذا على شاكلة يعقوب ابن الليث بطلاً في الحروب عادلاً في الاحكام لا تروق لهُ زخارف الدنيا فخلفهُ على الملك ابنهُ احمد وسار على غير خطة والدهِ وقتلهُ بعض اعوانهِ بعد ان حكم سبعة اعوام ثم خلفهُ ابنهُ نصر وكان صغيرًا في السن يوم توليهِ الَّا ان السعد رافقهُ فنمت المملكة في ايامهِ واتسعت انحاؤُها وعظم قدرها وظلَّ الملوك من هذه العائلة يحكمونها حتى أَخضعها السلطان محمود الغزنوي على ما يجيءُ

واما العائلة الديلميَّة فكان افرادها يحكمون في اكثر اوقاتهم الولايات الشرقيَّة من بلاد ايران القديمة ويعترفون بسيادة العبَّاسيين ويصدرون الاحكام باسمهم ولهذا عظم نفوذهم في بغداد حتى صار امراؤُهم حكام هذه المدينة ورؤَساء الوزارات في اواخر ايام الدولة العباسيَّة. وكانت الحروب كثيرة بينهم وبين السامانيين وغيرهم من الامراء الصغار الذين جرَّأَهم ضعف الدولة العبَّاسيَّة في تلك الايام على الاستقلال بالامارات في اطراف السلطنة العربيَّة الواسعة

الدولة الغزنويّة

هنا عاد المؤرّخون الى الاسهاب في تاريخ ايران من بعد ان مضى على البلاد مدة طويلة وهي في يد من ذكرنا من الامراء والملوك . واما اصل الدولة الغزنويّة فهوان اميرًا صغيرًا من امراء هاتيك الايام واسمهُ سبكتكين جاهر بعدم رضاهُ عن تولي المنصور — من الامراء السامانيّة — زمام الملك بداعي صغرهِ في السن وخاف على نفسهِ بعد ذلك فلجأَ الى بلدة صغيرة اسمها غزني من بلاد الافغان بجوار كابل وتبعهُ بعض المقاتلين فارسل اليهِ المنصور من يحاربهُ ولم ينجح ولهذا عظم امرهُ وعمل لنفسهِ امارة مستقلة عاصمتها مدينة غزني ثم جعل يوسع هذه الامارة ويزيدها حتى صارت تذكر بين الامارات المعروفة يومئذٍ ولما مات هذا الرجل خلفهُ ابنهُ اسحق وكان ضعيف الرأي عديم التدبير فلم تطل مدة حكمهِ ومات فاتفقت آراء الناس من بعدهِ على تولية سبكتكين الاول الذي عرف بالحزم والبسالة واتساع المدارك وتقدمت بلادهُ في ايامهِ تقدمًا عجيبًا

وكان سبكتكين شديد الميل الى الفتح ومحاربة البلدان الّتي لم تقبل الاسلام فحول همهُ الى بلاد الهند وعمل على فتحها واخضاعها وحارب جيبول احد ملوكها فأَخذ منهُ مدينة كابل وطاردهُ الى بلاد البنجاب . ثم عاد عنهُ ريثما اراح جنودهُ واعاد عليهِ الكرة في السنة التالية فخضع جيبول لهُ واهداهُ التحف الثمينة ورضي بدفع جزية سنويّة لهُ على ان يبقيهُ حاكمًا في بلادهِ ورضي سبكتكين بذلك الاَّ ان ابنهُ محمود وهو اشهر سلاطين هذه الدولة كان

ينكر الاتفاق مع الكفار على شيء ما سوى الخضوع التام او الاسلام فلام اباهُ على هذا التساهل وعلم ملك الهند بذلك فاضمر الشر وعزم على الخيانة والغدر حتى اذا جاءهُ الجباة لقبض الجزية المتفق عليها امر بسجنهم وبعث الى كل الانحاء بطلب المعونة على سلطان غزني فاجتمع لديهِ جيش طامٍ قيل انهُ بلغ ثلثمائة الف نفس عدًّا واعاد صاحب غزني الكرة عليهِ فكسرهُ شر كسرة وغنم منهُ الغنائم الوافرة وملك بلاد پيشاور ولنغام وهي في الشمال الغربي من بلاد الهند

ومات سبكتكين وقد اتفقت الآراء على مدح اعمالهِ ما خلا العمل الاخير ذلك انهُ كان قد ولى ابنهُ محمود على بلاد خراسان في حياتهِ وحول كل حبهِ الى ابنهِ الاصغر اسمعيل فاورثهُ الملك من بعدهِ وضرب صفحًا عن محمود وحقهِ واهليتهِ فلما علم محمود بالامر بعث الى اخيهِ يطلب منهُ التنازل لهُ عن الملك ويعلمهُ باقتدارهِ على اغتصابهِ منهُ فما رضي هذا الامير بذلك وتقدم محمود على غزني فانضم اليهِ اكثر امراء المدينة واكابرها لما اشتهر عنهُ من البسالة والحزم والقى القبض على اسمعيل فظلَّ اسيرًا الى آخر حياتهِ واستبدَّ السلطان محمود بالامر وهو من اعظم ملوك الشرق لهُ من الاعمال والمآثر ما يملأُ المجلدات نأتي على ذكر المشهور منها فقط

وكان السلطان محمود يقر بالسيادة للعباسيين دهاءً منهُ مع ان قوتهُ كانت اعظم من قوتهم ولطالما حاول الفاطميون جرهُ الى الاعتراف لهم بالخلافة فلم يقبل . واشتهر هذا الملك العظيم بغيرتهِ الشديدة على الاسلام وولعهِ بالفتح ونشر الدين المحمدي في بلاد الهند وما يجاورها وحارب تلك البلاد مرارًا نجح في المرة الاولى والثانية منها نجاحًا تامًا وصير كل بلاد البنجاب من املاكهِ وكان

جيبول الذي حارب والد محمود لم يزل حيًّا فرأى من الابن ما لم يرهُ من الاب وعزم على الخلاص من الدنيا وقيل لهُ انهُ اذا حرق نفسهُ حيًّا خلصت بلادهُ من الاعداء فتنازل عن الملك لابنهِ وحرق نفسهُ حبًّا ببلادهِ وما اقل الذين على شاكلة هذا الملك الهندي في تاريخ الآدميين . غير ان انوندبال ابنهُ لم ينجح في محاربة محمود الغزني اكثر من ابيهِ فتقهقر امام الفاتح وترك لهُ بلاد ملتان فضمت الى مملكة غزني وكان محمود على وشك امتلاك بقيَّة الهند لولا ان يهاجم بلادهُ التتر ويضطر الى الرجوع عنها للمدافعة عن ملكهِ فعاد وحارب التتر وكسرهم شر كسرة ومكث في عاصمة ملكهِ حينًا من الدهر ثم بلغهُ ان الهنود يجتمعون من كل ناحية تحت راية انوندبال وقد عقدوا النيَّة على محاربتهِ وايقاف سيرهِ فجيَّش جيشًا كبيرًا وسار لمحاربتهم فلما التقى الجيشان وجد السلطان محمود ان قوات الاعداء تزيد ثلثة اضعاف عن قوتهِ وظلَّ اربعين يومًا تجاههم لايحرّك ساكنًا حتَّى ملوا الانتظار وهاجموهُ فقابلهم بما عرف عنهُ وعن عساكرهِ من البسالة ودام القتال يومين لم تعرف نتيجتهُ الَّا في آخرهما ذلك ان الفيل الذي كان انوندبال عليهِ خاف وفرَّ من ساحة القتال فظن الفريقان ان ملك الهنود رأى النصر للمسلمين وفرَّ وتم بذلك النصر لجيش غزني فقتل من الهنود الوف كثيرة وفرَّ الباقون وجيش السلطان محمود يضرب في اقفيتهم ونهب المسلمون خزائنهم الفاخرة واموالهم الوافرة وكسروا اصنامهم وخربوا معابدهم ونشروا راية الشمس مع النجوم (شكل الراية الايرانيَّة القديمة) في اكثر الانحاء الَّتي حلوا بها

وعاد السلطان محمود الى غزو الهند فوجه همهُ في هذه المرة الى مدينة سومنات وهي يومئذٍ مقدسة عند الهنود اشتهر اهلها بالعكف على اصنامهم من

دون الله ومركزها الى شمالي مدينة دهلي تبعد عنها نحوَ سبعين ميلاً فأَخضعها هذا الفاتح العظيم ولم يجسر احد من ملوك الهند على التعرض لهُ واستولى على كل ما فيها من التحف الثمينة والاموال الطائلة وكسر صنمها المشهور وجاء بقطعهِ الى غزني فصنع منها درجاً يصعد عليهِ الى الجامع وطارت شهرة هذا الرجل العظيم في الآفاق فلم يعد لهُ معاند يقوى على التصريح بالعدوان لهُ . ثم زحف محمود على كشمير في السنة التالية فأَخضعها ايضاً واعتنق كثيرون من اهلها مذهب الفاتحين وتحوَّل عن بلاد الهند سنة واحدة ريثما اصلح احوال خوارزم ثم عاد اليها وقصد مدينة كنوج ففتحها واستولى على كل ما فيها وتحوَّل عنها الى امارة ميروت ففعل بها الذي فعلهُ في غيرها وظلَّ يتنقل في بلاد الهند ويخضع ممالكها واماراتها حتَّى امتلك سبعة عشر اقليم من الهند يقال لها دپركنه على اصطلاح الهنود وصار ملكهُ ضخماً واسعاً وكبرت ثروتهُ الى حدٍّ لم يسمع عن غيرهِ من ملوك هاتيك الايام فأَراد ان يتمتع بلذة النصر والثروة وعزم على السكون حيناً من الدهر وهو اوَّل من سمَّى نفسهُ سلطاناً ولُقّب بيمين الدولة

وكأَنَّ السلطان محمود شبع من الغزو والفتح فاستراح في عاصمتهِ واهتمَّ ببناء القصور والجوامع فشاد صروحاً فخيمةً وزين مدينة غزنه باجمل البنايات وانفق عليها من الاموال الوافرة الَّتي غنمها في غزواتهِ الكثيرة وكان امراءُ غزنه من اعوان السلطان وقوادهِ قد جمعوا شيئاً كثيراً من الذهب والجواهر ايضاً فاقتدوا بسلطانهم وبنوا القصور حتى اصبحت مدينة غزنه من أشهر مدن الشرق في تلك الايام وطار صيتها وصيت سلطانها في الآفاق وكان اجمل ما في المدينة الجامع العظيم الذي بناهُ السلطان محمود

وانفق عليهِ القناطير المقنطرة من المال وارسل خبر بنائهِ الى صاحب بغداد ورئيسهِ الديني ففرح الملك العباسي بذلك وامر بتعظيم اسم السلطان محمود والدعاء لهُ في جوامع المملكة

واما كيفيَّة فتح مدينة سومنات الَّتي تقدم ذكرها فهو انهُ نمي الى هذا الفاتح ان في المدينة المذكورة صنماً عظيماً وثروة هائلة فقصد المدينة ليفتحها واحاط بها فرأَى من غناها وقوة اهلها شيئاً كثيرًا وكان الهنود يظنون ان الههم يسحق لهم قوات المسلمين بلا عناء فلما صار المسلمون على الابواب واوشكوا ان يملكوا المدينة هاج الهنود وحاربوا محاربة الذي لا يطمع في الحياة وكانوا يهاجمون ويدافعون والدموع في عيونهم لاعتقادهم ان الصنم الذي كرموهُ كل تلك الاجيال غضب عليهم وتنحى عن مساعدتهم وافادهم ذلك الاعتقاد في انهُ جعلهم لا يهتمون للموت فردوا جنود المسلمين عنهم مرارًا وقتلوا منهم العدد العديد حتَّى رأَى السلطان محمود ان العود بالسلامة والاكتفاء بالغنائم السابقة أَسلم عاقبةً من محاصرة هذه المدينة فامر عساكرهُ بالرجوع وطرب الهنود لهذه الآخرة فأَقبلوا على صنمهم يشكرونهُ على هذه النعمة . وكان اهل سومنات قد بعثوا الى جيرانهم يطلبون المدد فبينما كان جيش غزنه راجعاً عنها التقى بالمدد قادماً وكان جيشاً جرارًا فاستعدَّ محمود للقتال والنضال ونزل عن جوادهِ فصلى الى ربهِ يطلب النصر على الكفار ثم اعتلى صهوة جوادهِ وانتضى سيفهُ الابتر وكرَّ بهِ على الاعداء كمن يريد الموت واقتدى عساكرهُ بهِ فهجموا هجوماً عنيفاً على الاعداء ونكلوا بهم من كل جانب وفرقوهم شذر مذر وانتصروا يومئذٍ انتصارًا مبيناً فأَسكرتهم لذة النصر وارادوا الرجوع الى المدينة لفتحها ونهب ما فيها وطاوعهم السلطان

على ذلك فأعاد الكرّة على القوم بهمة زعزعت اركان تلك المدينة العظيمة وهدَّت من اهلها العزيمة فعولوا على الفرار والهزيمة ودخلها المسلمون فغنموا يومئذٍ أوفر غنيمة وجمعوا من نفيس التحف والمال والذهب شيئاً لا حد لهُ ولا عد . ووصل السلطان محمود الى ذلك الصنم الشهير وكان الشوق كثيراً في صدرهِ الى تحطيمهِ والمناداة بالاسلام فتقدم اليهِ اعيان البلدة وكهنتها وقدَّموا لهُ قدراً طائلاً من المال ليترك لهم صنمهم على حالهِ فطمع اعوان محمود بهذا المال الكثير ورجوهُ ان يقبل طلبهم ويوزع المال على الذين جاهدوا معهُ فأطرق السلطان في الارض وفكر في الامر قليلاً ثم صرَّح بالاباء وقال انهُ جاء المدينة ليكسر صنمها لا ليبيعهُ الى اهلها وقال هذه الجملة بالفارسيَّة (محمود بت شكن است نه بت فروش) وجرَّد سيفهُ فضرب بهِ ذلك التمثال العظيم وامر من معهُ من الجنود ان يحطموهُ ففعلوا وبينما هم يكسرونهُ عثروا في جوفهِ على جواهر ولآلئ واموال كثيرة جدًّا تزيد عن المبلغ الذي عرضهُ الكهنة زيادة هائلة ففهم السلطان محمود حينئذٍ غايتهم من ابتياعهِ وجمع كل التحف ثم امر الهنود بالحضور فحضروا لديهِ وفرض عليهم ذلك المال الذي عرضوهُ عليهِ فجاؤُوا بهِ على سبيل الغرامة وكان الذي جمعهُ المسلمون من مدينة سومنات هذه اعظم مما نالوهُ في كل غزواتهم السابقة

ومات السلطان محمود في سنة ٤٢١ هجريَّة الموافقة لسنة ١٠٣٠ مسيحيَّة بعد ان اغار مراراً غير المرات التي ذكرناها على بلاد الهند وقد اكثر المؤرخون من ذكرهِ وتعداد مناقبهِ واوصلهُ البعض بمدائحهم الى أعلى الدرجات وهو بلا شك من اعظم سلاطين ايران واكبر ملوك الشرق . وكان فوق بسالتهِ ودرايتهِ في الحروب عادلاً لهُ مهابة في القلوب وميل

شديد الى مقاصة المعتدي وان يكن اعز الناس عنده . يروى من هذا القبيل ان احد الناس شكا اليهِ شريفاً يأتي منزلهُ كل ليلة لقصد منكر ويخشى الفقير معارضتهُ خوف بطشهِ فسألهُ السلطان ان صف لي هذا الامير ففعل الرجل وفهم السلطان ان المعتدي احد اولادهِ فصرف الشاكي على ان يحضر بنفسهِ في الليل الى منزل الرجل ويقتص من المعتدي بيدهِ . واختبأ السلطان في بيت الرجل في تلك الليلة حتَّى اذا جاءَ الامير ليقضي مرامهُ على عادتهِ استلَّ محمود سيفهُ وقطع بهِ الجاني دلوين وهو في خلال ذلك الفعل مغمض العينين . ثم فتح عينيهِ ورأَى المقتول فكبَّر وحمد الله وظهرت عليهِ لوائح البشر وسألهُ الرجل عن معني ذلك فقال اني كنت اظن الجاني احد اولادي ولم أَشأْ ان أَراهُ حيًّا بعد هذا الفعل الذميم فلما فتحت الآن عينيَّ لارى هذا الاثيم علمت انهُ ليس من اولادي والحمد لله رب العالمين

ومن اشهر ما يذكر عن هذا السلطان العظيم ان شاعر الايرانيين الاكبر ومؤرّخهم الموقر نريد بهِ الفردوسي الشهير صاحب الشاهنامه المعروفة عاش في ايامهِ ونظم تاريخ الفرس من اول تشكيل سلطنتهم لغاية استيلاء العرب عليها في ستين الف بيت دون ان يكون فيهِ كلمة اجنبيَّة وكان محمود يحسن اليهِ بالهبات والصلات ولكنهُ قصر معهُ واعطاهُ ستون الف مثقال فضة بدلاً من ستين الف مثقال ذهب حسب الاتفاق بينهما وذلك لان وزيرهُ حسن ميمندي كان سني المذهب والحكيم المذكور جعفري المذهب وشيعي المشرب فعتب الفردوسي عليهِ ورفض الهديَّة وانزوى في مدينة مشهد (طوس) فلم يعد الى غزنه مدة حياتهِ . وندم السلطان محمود بعد ذلك على تقتيرهِ فأَرسل الى الفردوسي بنفيس الهدايا والتحف الفاخرة ووصل الوفد الذي

جاء بها الى مشهد طوس يوم وفاة الفردوسي ودفنهِ فحزن عليهِ السلطان حزنًا شديدًا وعرضت الهدايا على ابنتهِ من بعده فلم تقبلها

وكان للسلطان محمود ابنان اكبرهما مسعود ولاَّهُ والدهُ على العراق وما يليهِ في مدة حياتهِ وحرمهُ الملك فأوصى بهِ من بعدهِ الى ابنهِ الثاني محمَّد وكأَنهُ كان يشعر بنتيجة فعلهِ فسأَل مسعودًا في احد الايام عن نيتهِ في معاملة اخيهِ اذا صار الملك اليهِ واجابهُ الشاب انهُ سيعاملهُ كما عامل هو (محمود) اخاهُ اسماعيل ولكن هذا لم يثنِ محمودًا عن عزمهِ واورث السلطنة من بعدهِ الى محمَّد فزحف مسعود عليهِ في الحال بخيلهِ ورجلهِ من بلاد العراق وقبل ان يصل غزنه ارسل اليهِ يطلب تسليم الملك ويعرض عليهِ شروطًا توافق الاثنين فلم يقبلها محمد وانتشب الحرب بين الاثنين ففاز فيها مسعود لانهُ كان بطلاً مغوارًا مثل ابيهِ واسر محمد وسجن في مدينة غزنه بعد ان فقئت عيناهُ

وكان السلطان مسعود يحب الغزو ولكنهُ لم يتمكن من الفتح وضم الاقطار لانهُ قضى اوقاتهُ في محاربة الممالك الهنديَّة التي اخضعها ابوهُ وثارت من بعد وفاتهِ تحاول الاستقلال فنجح في اخضاعها ولكن جدَّ في ايامهِ ما لم يكن في الحسبان ذلك ان طائفة من التتر او الاتراك السلجوقيين تقدمت على البلاد في ايامهِ وذلك بدسيسة واغراء من بعض امراء العرب ببغداد فصالحها مسعود وعاونها ثم حاربها وتقهقر امام ابطالها فقام عليهِ جنودهُ وخلعوهُ ثم داروا على بعضهم البعض ينهبون ما اجتمع لديهم من التحف حتى غني قوم منهم وافتقر قوم آخرون . ولما هدأَ روعهم وعرفوا خطأَهم عزموا على اعادة الملك الى اولاد السلطان محمود ونادوا بمحمد ملكًا عليهم فلما جاؤُوا اليهِ في

سجنهِ وهو لا يبصر واعلموهُ بالحكاية فرح بالخلاص ولكنهُ لم ينوِ قتل اخيهِ . ووقع مسعود في يد محمد بعد هذه الحوادث فاكتفى السلطان بسجنهِ واظهر لهُ بعض الاكرام ولكن احد اولاد محمد قتل مسعودًا وهو في السجن بدون علم اخيهِ فحزن محمَّد على اخيهِ حزنًا مفرطًا وبعث الى ابن اخيهِ يعزيهِ على فقد والدهِ ويتبرأُ من اثم قتلهِ وكان ابن اخيهِ يومئذٍ حاكمًا على بلخ فلم يصدق رواية عمهِ وزحف عليهِ فحاربهُ وانتصر في الحرب واسر عمهُ وامر بقتلهِ وقتل كل اولادهِ ما خلا واحد وقبض على السلطنة في سنة ٤٣٣ هجريَّة

وضاعت بلاد ايران من قبضة آل غزنه في ايام هذا السلطان فملكها السلجوقيون وسوف يأتي ذكرهم في الفصل القادم وفي مدة الغزنويين ابتدأَت المعارف والعلوم والآداب والفنون تترقى ببلاد ايران حتى صارت تضاهي ايام الكسرويين. وكان فيها من الشعراء والفلاسفة ومن فطاحل العلماء نحو الاربعمائة على باب السلطان محمود. وفي مدتهم تجدد ما اندرس من آثار الفرس القدماء وهم اول من لقبوا بلقب السلطان وكان من سبقهم من الملوك ينعتون بالملك فقط . وهذه اسماء ملوك الدولة الغزنويَّة وتاريخ حكمهم :

السلطان سبكتكين	سنة ٣٦٥ هجريَّة الموافقة سنة ٩٧٦ مسيحيَّة
السلطان اسماعيل	سنة ٣٨٧ هجريَّة الموافقة سنة ٩٩٧ مسيحيَّة
السلطان محمود	سنة ٣٨٧ هجريَّة الموافقة سنة ٩٩٧ مسيحيَّة
السلطان محمد	سنة ٤٢١ هجريَّة الموافقة سنة ١٠٣٠ مسيحيَّة
السلطان مسعود	سنة ٤٢٢ هجريَّة الموافقة سنة ١٠٣١ مسيحيَّة
السلطان مدعود	سنة ٤٣٣ هجريَّة الموافقة سنة ١٠٤١ مسيحيَّة
السلطان مسعود	سنة ٤٤١ هجريَّة الموافقة سنة ١٠٤٩ مسيحيَّة

السلطان علي سنة ٤٤١ هجريَّة الموافقة سنة ١٠٤٩ مسيحيَّة
السلطان عبد الرشيد سنة ٤٤٣ هجريَّة الموافقة سنة ١٠٥٢ مسيحيَّة
السلطان فرخزاد سنة ٤٤٤ هجريَّة الموافقة سنة ١٠٥٢ مسيحيَّة
السلطان ابراهيم سنة ٤٥٠ هجرية الموافقة سنة ١٠٥٩ مسيحيَّة
السلطان مسعود سنة ٤٩٢ هجرية الموافقة سنة ١٠٩٨ مسيحيَّة
السلطان ارسلان شاه سنة ٥٠٨ هجرية الموافقة سنة ١١٠٤ مسيحيَّة
السلطان بهرام شاه سنة ٥١٢ هجرية الموافقة سنة ١١٠٨ مسيحيَّة
السلطان خسرو شاه سنة ٥٤٧ هجرية الموافقة سنة ١١٠٢ مسيحيَّة
السلطان خسرو الثاني سنة ٥٥٥ هجرية الموافقة سنة ١١٦٠ مسيحيَّة



الدولة السلجوقية

تنسب هذه الدولة الى سلجوق وهو احد امراء ما وراء النهر رحل بقبيلتهِ الجرارة الى انحاء بلاد ايران في اوائل حكم الدولة الغزنويَّة ومات على مقربةٍ من بخارى فخلفهُ في رئاسة القبيلة ابنهُ ميكائيل وكان هذا الامير من الذين تعرفوا بالسلطان محمود ونالوا منهُ الاكرام الكثير ذلك لان هذا الفاتح العظيم سمع ان القوم في عدد الرمال يخرج منهم مائتا الف مقاتل فلاطفهم وجاملهم وكان على قول بعض المؤرخين يعرف ان آخرة دولتهِ ستكون على يدهم

واول من اعطى الاراضي الى هؤلاء السلطان مسعود وهو الذي حاربهم على ما تقدَّم وانكسر في الحرب فاستولوا بعد انتصارهم على بلاد خراسان وكان لهم قبل ذلك ارض واسعة على مقربة من نهر سيحون فعظم امرهم وتظاهر رئيسهم طغرل بك بالابهة وعظمة الملك وجعل مدينة نيشابور قاعدة مملكتهِ . وسمع طغرل بك بما صار اليهِ بنو العباس من الضعف فسار بجيشهِ الى بلاد العراق واخضعها وتقدم على الموصل وفتحها ثم عاد عنها الى بغداد فقابلهُ الملك العباسي بالاكرام الكثير واقرهُ على السيادة واتفق الاثنان على ان يكون صاحب بغداد رئيساً دينيًّا للمسلمين وطغرل بك صاحب الملك وسرَّ طغرل من هذا الاتفاق

ثم وجه طغرل بك همهُ الى مقاتلة الدولة الرومانيَّة وقاعدتها يومئذٍ القسطنطينيَّة فحاربها ولم ينجح كثيرًا في نوال مرادهِ منها غير انهُ ضمَّ في تلك الاثناء معظم بلاد ما وراء الخزر والقفقاز الى مملكتهِ وعظم قدرهُ كثيرًا

بين الورى وكان يظن ان الملك لايستتب لهُ ولاولادهِ الاَّ اذا هو تقرب من صاحب بغداد العباسي فزوج اختهُ للقائم وهو يومئذٍ صاحب بغداد واقترن باخت هذا الملك وهي في التسعين من عمرها ثم مات بعد ذلك بقليل وترك ملكهُ الواسع لابنهِ الب ارسلان . وكان طغرل شجاعاً باسلاً في الحروب لا يطيب لهُ عيش بغير الغزو وشن الغارة حاد الطبع بسيط في معيشتهِ كريم في اخلاقهِ شديد التعلق بدين الاسلام يضطهد كل مَنْ خالف عقيدتهُ وظلَّ كل عمرهِ يعترف بسيادة صاحب بغداد ويقر لهُ بالخلافة

واما الب ارسلان (ومعنى اسمهُ الاسد الظافر) الذي خلف طغرل بك فكان بطلاً صنديدًا وسيدًا مهابًا لم يقم في هذه الدولة السلجوقيَّة رجل اعظم منهُ ولم يروَ عنهُ شيءٌ يعيبهُ غير تشديد الوطأة على المسيحيين في بلاد الجراكسة والارمن وكل بلاد اخرى اخضعها ولم تعتنق دينهُ وكان ذلك من شدة غيرتهِ على الاسلام وميلهِ الى انتشارهِ . ولكن هذه القسوة في معاملة اهل البلاد التي ذكرناها هيجت غضب الدولة الرومانيَّة وكان امبراطور القسطنطينيَّة يومئذٍ من اشهر ابطال زمانهِ واعظمهم قدرًا واسمهُ رومانوس ديوجينس (وفي التواريخ الايرانيَّة اورمانوس) هذا بدأَ في الاستعداد لمقاتلة هذا البطل وكان الب ارسلان مثل ابيهِ ينوي ضم هذه المملكة الى املاكهِ فسبقهُ اورمانوس الى الحرب وتقدم بعساكرهِ على ارمينية واذربايجان ولما التقى الجيشان رأَى الب ارسلان ان قوتهُ اقل بالشيء الكثير من قوة الرومانيين وعرض الصلح على امبراطورهم فرفض اورمانوس هذا الطلب واستعد الب ارسلان للقتال العنيف . ولما تحارب الجيشان تقهقر الايرانيون وتقدم الرومانيون فأَوغلوا في تلك الجبال وهم يطاردون الاعداء وانفرط

عقد نظامهم وعندذلك هاج الدم في عروق الب ارسلان واسكرتهُ خمرة اليأس فهجم بسيفهِ على الاعداء هجوم الاسد الكاسر وفعل رجالهُ فعلهُ فتضعضعت احوال الرومانيين ولم يقووا على الوقوف في وجه الذين كانوا يقاتلونهم ولا مطمع لهم في الحياة وتولاهم الرعب فكسروا شر كسرة وفروا من وجه القوم التتر على كثرة عددهم وقتل العدد الوافر من ابطالهم واسر الامبراطور اورمانوس بنفسهِ وكان الذي اسرهُ ضابط خامل من ضباط الفرس تهددهُ الب ارسلان في اليوم السابق بالعزل والتجريد على خمولهِ ولم يعلم ان الذي قبض عليهِ هو الامبراطور ولكنهُ جاء بهِ الى مولاهُ فلما رأى الب ارسلان اهتمام الرومانيين العظيم في انقاذ هذا الاسير وصراخهم الكثير من بعدهِ علم ان اسيرهُ اورمانوس وسألهُ عن ذلك فأجابهُ بالايجاب فأحلهُ محلاً رفيعاً واكرمهُ اكراماً زائداً لانهُ رأى من اقدامهِ وبسالتهِ ما يذكر ويشكر وكان يتودد اليهِ ويقول لهُ اطلب ما تشاء فانا بطل واحب الابطال . ولكن اورمانوس كان مقطب الجبين لا يسر باكرام الب ارسلان ولما سألهُ هذا الفاتح مرةً ماذا كنت تفعل بي لو انت اسرتني كما اسرتك قال اني كنت اذيقك العذاب المهين فلم يغضب الب ارسلان من هذا ولا اظهر الكدر فدلَّ بذلك على شهامتهِ ومروءتهِ وسأل اسيرهُ ماذا تظن اني سأفعل بك قال ان كنت ظالماً فاقتلني او محباً للفخر فجرني بالقيود الى عاصمة ملكك او كريماً فاطلقني من الاسر فاجابهُ الفاتح اني كريم وامر بالافراج عنهُ فذهل اورمانوس لهذه الشهامة الكبرى وشكر الب ارسلان شكراً خالصاً ووعدهُ جزاء هذا الاحسان ان يخلص لهُ الوداد ويدفع اليهِ جزيةً عاماً بعد عام وسرَّ الب ارسلان بذلك فافترق البطلان واورمانوس ينوي القيام بوعدهِ ولكن التقادير

لم تساعدهُ على ذلك لانهُ وجد حين وصولهِ الى بلادهِ ان قومهُ خانوهُ وولوا غيرهُ مكانهُ فحار في امرهِ وخاف ان يتهمهُ الب ارسلان بالخيانة ولهذا جمع كل ما وصل الى يدهِ من المال وارسلهُ الى صديقهِ الباسل مع ايضاح الحال وسبب التقصير في اداء المطلوب كلهِ فتأثر الب ارسلان لذلك وعزم على تعضيد صديقهِ وارجاع الملك اليهِ بقوة السيف وبينما هو يستعد لذلك بلغهُ ان الرومانيين سجنوا اورمانوس البطل وقتلوهُ فعدل عن عزمهِ ونوى الذين خانوا صديقهُ الشر

وعظم قدر الب ارسلان كثيرًا في هذه المدة فكانت مملكتهُ الواسعة ممتدة من حدود الشام الى ضفاف نهر جيحون وامتلأت خزائنهُ بالمال واجتمع تحت امرهِ مائتا الف بطل من الذين قضوا عمرهم في الحروب فقصد اخضاع بلادهُ الاصليَّة وهجم على خوارزم فاعترضهُ في طريقهِ امير صغير اسمهُ يوسف من التتر واخرهُ زمانًا طويلاً عن المسير فلما ظفر بهِ الب ارسلان عاملهُ بالقسوة واهانهُ على ما بدا منهُ في حين ان الرجل لم يأتِ غير واجب الدفاع عن بلادهِ وردَّ على الب ارسلان بالكلام الغليظ فغضب الملك من ذلك وامر بقتل الرجل فهجم عليهِ الامير يوسف بخنجرهِ يريد قتلهُ وردهُ الاعوان فامرهم الب ارسلان ان يتركوهُ ليقتلهُ هو بيدهِ وبينما هو يسدد ساعدهُ ليرميهُ في كبدهِ والابطال وقوف من حولهِ عاد يوسف الى الهجوم وطعن الب ارسلان في صدرهِ طعنةً كانت هي القاضية عليهِ . وبقي الب ارسلان مدة يتألم من جرحهِ قبل الوفاة وهو يلوم نفسهُ على ما بدا منهُ من عدم التدبر وقلة الحكمة في معاملة خصمهِ وخلف ملكهُ الواسع من بعدهِ الى ابنهِ ملك شاه . وكان الب ارسلان من اعظم الابطال واشهر القواد والفاتحين

وكان يكرم العلماء وينشط العلم ويبني الجوامع وكان لحسن حظهِ في ايامهِ وزير له شهرة فائقة اسمهُ الخواجه نظام الملك اعطي من مولاهُ السلطة التامة في تدبير امور الدولة وحكومتها فقام بخدمتهِ خير قيام وتقدمت البلاد في مدتهِ تقدماً عظيماً . ودفن الب ارسلان في مدينة مرو في بلاد خراسان ورسم على قبرهِ عبارة هذه ترجمتها "يا ايها الذين رأيتم عظمة الب ارسلان تصل الى السماء تعالوا الى مرو وانظروها مدفونة في التراب". واوصى الب ارسلان ابنهُ ملك شاه قبيل وفاتهِ ان يبقي نظام الملك وزيراً واسف الناس لفقدهِ اسفاً شديداً

ولما استتبَّ الملك لملك شاه جعل همهُ الفتح واصلاح الشؤون فعارضهُ في اوائل حكمهِ عمهُ يريد اغتصاب الملك منهُ ولكنهُ لم ينجح فأُخذ اسيراً وسجن في قلعة في بلاد خراسان وكان السلطان يريد ان يبقي على عمهِ ولكن حدث ان عساكرهُ في تلك البلاد قاموا عليهِ يطالبونهُ بالمتأخر لهم من الاجرة ويهددونهُ بخلعهِ وتنصيب عمهِ مكانهُ اذا هو لم يسرع الى تلبية طلبهم فارسل الوزير نظام الملك في الحال الى خراسان واتى بعم الملك سراً الى العاصمة ثم قتلهُ فاصبح العصاة بلا رئيس وانفرط عقد الثورة وبذلك استراح السلطان من هذه المكيدة . ثم قام الامير طرسوس اخو السلطان بثورة اخرى وجمع من حولهِ رجالاً يجاهرون بعزمهم على اعطائهِ الملك فحاربهُ ملك شاه وانتصر عليهِ بغير عناء كبير ففرَّ الامير من البلاد واستراح السلطان بعد ذلك من القلاقل

ثم وجه ملك شاه همهُ بعد هذا الى الفتح فنجح في ذلك اكثر من والدهِ الهمام فارسل الجيوش الجرارة على بلاد مصر والشام واخضع القطرين ثم بعث

بالمقاتلين الى بلاد بخارى وسمرقند وخوارزم وكشغر فأخضعها كلها ايضاً واتسعت مملكتهُ اتساعاً هائلاً حتى صار هو السلطان المطلق على بلدان اسيا الواقعة ما بين البحر المتوسط وسور الصين ولم يكن في ايامهِ اعظم منهُ شأناً ولا اوفر ثروةً ولا اضخم سلطاناً وكان صاحب بغداد من آل عباس في يد هذا السلطان وتحت امرهِ لا يملك غير اسم الخلافة وكل ما بقي من مهام الملك في الممالك الاسلاميَّة في يد هذا السلطان السلجوقي

ويقول المؤرخون عن ملك شاه كل امرٍ حميد وينسبون اليهِ كل فضيلة حتَّى قيل انهُ لما عصاهُ اخوهُ طرسوس وخرج من الجامع بعد الصلاة لقي وزيرهُ نظام الملك فسألهُ ماذا طلبت من الله قال اني سألت الله ان ينصر مولاي السلطان على اخيهِ العاصي قال واما انا فاني سألت الله ان ينصرهُ عليَّ اذا كان هو افضل مني واليق للسلطنة . وهذا السلطان اول من اوجد المستشفى للامراض رسميًا في العالم واول من بنى مدرسة علميَّة ببغداد وسماها (نظاميَّة) حيث كانت تضاهي اعظم مدارس اوربا اليوم وآثارها باقية للآن ولكن تاريخهُ مقرون باثم عظيم مع كل ما يروى عن فضائلهِ ذلك انهُ عزل الوزير العادل الحكيم نظام الملك الذي شاد لهُ ولابيهِ من قبلهِ صروح الفخار وبنى لهُ سلطنة تفوق كل سلطنات ذلك الزمان والسبب في ذلك ان حظيَّة ملك شاه كانت تريد ان تنصب ابنها الطفل على سرير السلطنة مِنْ بعد ابيهِ وتحرم اكبر اولاد ملك شاه من هذا الحق فجعلت تمهد الطرق لذلك وعلمت ان نظام الملك لايوافقها عليهِ وطفقت تفكر في اسقاطهِ فساعدها على ذلك الحسَّاد والوشاة الذين يكثرون في كل بلاط وفي كل بلاد واقنعت زوجها ان وزيرهُ الحكيم قد استبدَّ بالامر وجعل السلطنة لهُ ولاولادهِ

واخصائهِ وصنائعهِ واستمرت على مثل هذه النميمة حتَّى هيجت مخاوف السلطان وجعلتهُ يفكر في عزل الوزير تخلصاً من سيطرتهِ وزعماً منهُ بان ذلك يعود بالنفع عليهِ . واتفق ان السلطان اراد ان يوظف احد الرجال فارسلهُ الى ابن نظام الملك وكان حاكماً على احدى الولايات فابى ابن الوزير توظيف الرجل لانهُ كان لايليق للوظائف وعلم السلطان بذلك فاشتدَّ غيظهُ وحقدهُ وعزل الوالي في الحال ونصب مكانهُ ذلك الرجل الذي كان السبب في هذا الامر فلما رأى نظام الملك ان السلطان ينوي الاستبداد ويظهر الكره لعائلتهِ قال كلاماً يشف عن اسفهِ وكدرهِ وادى الامر الى عزلهِ وهكذا انزوى الرجل العظيم الذي خدم السلطنة خدمات لا تقدَّر . ثم ان الوزير الذي حلَّ محل نظام الملك كان يعلم ما لهذا الحكيم من المكانة والاقتدار فخشي ان يعود الى مولاهُ ويرجع الى منصبهِ فارسل اليهِ غادرًا قتلهُ ولما انتشر نعيهُ في بلاد ايران وما يجاورها اشتد هياج الناس على القاتل وحزنهم على المقتول ودفنوهُ في مدينة اصفهان باكرام لا نظير لهُ وسكبوا على ضريحهِ العبرات فاظهروا بذلك انهم يعرفون قيمة الرجل ويقدّرونهُ حق قدرهِ

ولم يعش ملك شاه بعد هذا الوزير العظيم الاَّ بضعة اشهر حاول في خلالها نقل مقر السلطنة الى بغداد لانهُ كان مغرماً بالعيش في تلك المدينة فعارضهُ الخليفة ورجاهُ ان يتمهل في الامر ويصبر عشرة ايام ريثما يرى طريقة في الانتقال منها فامهلهُ ملك شاه ذلك ولكن الموت عاجلهُ قبل انقضائها فمات مأسوفًا عليهِ في الثامنة والثلاثين من عمرهِ بعد ان رقيت بلادهُ في ايامهِ اعلى درجات الثروة والعز ورتعت في بحبوحة الامن والسلام زماناً طويلاً فان هذا السلطان لم يحارب الاَّ في اوائل ملكهِ واستراح في بقيَّة

الاعوام فنظم واصلح وشاد المعابد والمدارس وقرب العلماء واهل الادب واكثر لهم من الصلات وفي ايامهِ اجتمع العارفون بالحساب والفلك والفوا التقويم الاسلامي المشهور باسم الجلاليَّة نسبة الى جلال الدين وهو لقب ملك شاه عندهم

ولما مات ملك شاه كثر الخصام بين اولادهِ على الملك وكانت السلطانة خاتون طرخان حظيَّة السلطان المتوفي الَّتي اشرنا اليها قد تمكنت بدهائها من تنصيب ابنها محمود محل والدهِ مع انهُ كان اصغر اخوتهِ ولم يبلغ سن الرشاد وكان بكر اولاد ملك شاه يقوي عزمهُ يوماً بعد يوم بمساعدة اولاد نظام الملك فلما اجتمع لديهِ جيش يكفي للقتال سار على اخيهِ وحاربهُ فانتصر عليهِ وقتلهُ مع أُمهِ وملك مكانهُ ولكنهُ لم يهنأْ بالملك زماناً لان اخاهُ محمَّد بدأَ بمناوأَتهِ ومعارضتهِ وكان محمد هذا حاكماً على بلاد خراسان وما وراء النهر فساعدهُ الحظ بوفاة اخيهِ في بغداد . ولما بلغهُ الخبر زحف على هذه المدينة وتمكن من الانتصار على اياس ابن اخيهِ ومن حالفهُ واستتب لهُ بذلك الملك . وكثرت الحروب والقلاقل في ايام السلطان محمد واشتهر عنهُ انهُ كان عضدًا قويًّا لجيوش المسلمين في الحروب الصليبيَّة الَّتي ثارت نيرانها في تلك الايام وامرها معروف . ولما مات خلفهُ ابنهُ محمود ولكن محمودًا كان ضعيف الرأْي فتغلب عليهِ عمهُ سنجار بن ملك شاه وجعلهُ طوع امرهِ وكان سنجار هذا ملكاً عظيماً مثل ابيهِ وجدهِ ولما توفي ابوهُ كان هو حاكماً على بلاد خراسان فلم يتداخل في اول الامر في الحروب والمشاكل الَّتي اتينا على ذكرها بين اخوتهِ حتَّى اذا رأَى ان الاحوال تضعضعت وصار يخشى على السلطنة من الخراب مدَّ يدهُ الى الملك واخذهُ لنفسهِ وجعل اولاد اخوتهِ ولاةً من تحت امرهِ ثم شدد الوطأَة على كل قسم من اقسام

السلطنة اظهر شيئاً من التمرد واعاد الى الصدور احترام الناس الاول لآل سلجوق والخضوع لدولتهم حَتَّى انهُ ولى على سمرقند رجلاً من اوباش الناس كان ساقياً لهُ في قصرهِ وصارهذا الوالي يجيء بغداد حيناً بعد حين ويقدم الشراب للسلطان وهو متردٍّ برداء الامارة حَتَّى شاع بين الناس ان سنجر عظم الى حد ان الملوك صارت تخدمهُ وتقف للخدمة بين يديهِ ولكن هو لم يتمتع بهذه النعمة زماناً فانهُ حارب غور خان صاحب بلاد التتر بعد هذا العز بقليل فكسر شر كسرة وقتل كل رجاله واضطر الى الفرار فظلَّ زماناً مختبئاً في احقر مكان ولما تمكن من الخلاص قامت عليهِ طائفة من التركمان تعرف باسم قبيلة الغز وامتنعت عن اداء الجزية المقررة وتظاهرت بالعصيان فتقدم لمحاربتها وكسر في الحرب وأُخذ اسيراً فاذاقهُ التركمان كل انواع العذاب والهوان ثم تمكن من الفرار ولكنهُ وجد البلاد باسوإ حال وكثرت همومهُ واحزانهُ فمات من الغم والكدر وهو يُعرف باسم السلطان العادل عند المؤرخين الايرانيين ولهُ شهرة كبيرة في البأس والبسالة ايضاً ولكنهُ كان سيِّئَ البخت تعيس الطالع

ولما مات سنجر شاه عاد القتال والخصام ما بين افراد العائلة على السلطنة وظلت البلاد من بعد موتهِ اربعين عاماً على هذا الحال لا يُعرف عنها غير المناوشة والحروب والدسائس والقلق حَتَّى تمكن احد افراد العائلة السلجوقيَّة وهو طغرل الثالث من الاستبداد بالامر فما صدق ان صار هو الحاكم واطلق لنفسهِ السراح وتعلق على شرب الخمرة وانتهاز فرص اللذة حَتَّى احسَّ بذلك حاكم خوارزم وتقدم عليهِ فحاربهُ وانتصر عليهِ وقتلهُ واخذ المملكة منهُ وكان طغرل الثالث آخر ملوك الدولة السلجوقيَّة واولهم طغرل الاول ومدة حكم

هذه الدولة القويَّة ١٥٨ سنة. وانتشر السلجوقيون في مدة هذه الدولة انتشارًا كبيرًا في سائر انحاء السلطنة واستقلَّ بعض القواد منهم حالما ظهر لهم ضعف السلطان الذي حكموا في ايامهِ واشتهر من بين هذه العائلات السلالة السلجوقيَّة التي حكمت بقونية وحلب ولها ذكر كثير في تاريخ الحروب الصليبيَّة

ولما سقط آل سلجوق وتولى الملك حاكم خوارزم ظن الناس ان دولة هذا الفاتح الجديد ستدوم زمانًا وكان اسمهُ تكش وهو حفيد الساقي الذي كان يخدم سنجر وهو امير من امراء المملكة . ولكن ايام هذا المعتدي لم تطل لان ايامهُ كانت ايام السوء والخراب الهائل ايام ظهر الطاغية الشهير چنكيز خان الذي اباد الرجال بالالوف والوف الالوف ودمر الارض حيث سار وفتك بالدول في سائر الامصار وبلغ عدد قتلاهُ اربعة عشر مليونًا من البشر . وسوف يجيء ذكرهُ في الفصل القادم

الدولة المغولية

ولما ضعفت الدولة السلجوقيَّة بدأَ الولاة يستقلون في امورهم شيئًا بعد شيء حتى اذا انقرضت الدولة المذكورة بعد وفاة طغرل الثالث جاهر معظم الحكام بالاستقلال واستبدوا بالاحكام زمانًا الى ان خضعت البلاد للدولة المغوليَّة على يد هلاكو حفيد چنكيز خان المشهور وليس في تاريخ هؤُلاء الامراء ما يوجب الذكر فنتركهم ونتقدم الى ذكر چنكيز خان ومن خلفهُ على مملكة ايران . ويجدر بنا قبل التقدم الى ذلك ان نشير الى قوة عظيمة نشأَت في بلاد ايران في ايام الدولة السلجوقيَّة وامتدَّ نفوذها امتدادًا هائلاً

من بعد ايام السلطان سنجر وهي طائفة من الاسماعيلية او الباطنية يُعرف رئيسها باسم شيخ الجبل ولهُ في تاريخ الشرق ذكر كثير وكان مؤسس هذه الطائفة رجل اسمهُ حسن صباح رحل من ايران خوفاً من الوزير نظام الملك في مدة السلطان الب ارسلان المشهور ولجأ الى قوم من الاسماعيلية وهم من اصحاب الديانات الباطنية يعلمون بامامة اسماعيل بن الامام جعفر الصادق بن الامام محمد باقر بن الامام زين العابدين بن الامام حسين السبط الشهيد بكربلاء . هؤلاء اضافوا حسن صباح مدة حتَّى اذا أمن على نفسهِ من القتل بعد وفاة ملك شاه ونظام الملك جاء ايران وتمكن من امتلاك قلعة سماها بقلعة الموت وهي على مقربة من قزوين ثم جعل يدعو الناس الى آرائهِ ويعلمهم مبادئهُ فاجتمع عندهُ خلق كثير كان شعارهم الطاعة العمياء لهذا الرئيس وتقدم الطائفة حتى انهم اوقعوا الرعب في قلوب الناس وقتلوا كل من عاداهم سرًّا وبلغ عددهم نحو خمسين الفًا في ايام السلطان سنجر فقصد محاربتهم وقطع دابرهم وبينما هو في الطرق افاق من نومهِ في احد الايام فرأى خنجرًا شكَّ في الارض الى جانبهِ وعليهِ كتابة تحذرهُ من عاقبة التقدم على طائفة الحسنية (نسبة الى حسن صباح رئيسها) فعاد عنها ومن ذلك اليوم اشتدت وطأة هذه الطغمة على البلاد وانَّ الناس من جورها وكثر القتل بين الذين لا يميلون اليها وفرضت الاموال على الناس لتقوم بمعاشها وابهة رئيسها الذي صيَّر نفسهُ ملكًا قويًّا واورث الملك من بعدهِ الى اولادهِ وحاول كل سلاطين الدولة السلجوقيَّة استئصال شأفة هذه الفئة الطاغية فلم يتمكنوا من ذلك كما سيأتي

هذه اهم الامور الَّتي تذكر عن ايران بعد انقراض الدولة السلجوقيَّة

وقبل ابتداء الدولة المغوليَّة. واما عن چنكيز خان الشهير الذي دمر الارض تدميرًا وجاء ضربةً من الله وسخطًا على بني آدم وفتك بالالوف والملايين فلا يمكننا الكلام عنهُ بالاسهاب لان تاريخهُ ليس من تاريخ ايران وان تكن هذه البلاد وكل ما سواها في المملكة الشرقيَّة وقعت في قبضة يدهِ وذاقت منهُ المرَّ والاهوال . وكان چنكيز خان فوق قدرتهِ الهائلة في الحرب رجلاً مدبرًا حكيمًا قسم بلاد التتر وغيرها من املاكهِ الى ممالك وسمى نفسهُ "خاقان" عليها كلها ووضع لها النظامات المدنيَّة والحربية الموافقة لها وكان عندهُ جيش من الاسود لا يقل في عددهِ عن ستمائة الف رجل لم يسترح مدة حكمهِ لحظة واحدة لانهُ كان يشغلهُ في الصيد وغيرهِ اذا لم يكن عليهِ حرب. وقد روى المؤرخون من المسلمين الشيء الكثير عن قسوة چنكيز خان وتوحشهِ وسوء معاملتهِ للمسلمين وكان چنكيز وثنيًا مثل بقيَّة قومهِ التتر

ومات چنكيز خان في الثالثة والسبعين من عمرهِ وقسم سلطنتهُ الواسعة على اولادهِ الاربعة فأعطى اولهم جوجي خان مملكة التتر الشماليَّة ومات هذا الامير بعد ابيهِ بأربعة اشهر فورثهُ ابنهُ باطو خان وهو الذي أخضع روسيا واثار الحرب العوان على بولاندا وبلغاريا والمجر واراضي الفلاخ والبغدان وكان ينوي فتح الاستانة فعاجلتهُ المنيَّة في الطريق . وورث اوكتاي خان (الابن الثاني من اولاد چنكيز خان) مملكة التتر الوسطى والصين الشماليَّة وسمّي الخاقان بعد ابيهِ وكان ملكًا عادلاً حكيمًا استراح الناس في ايامهِ من بعد ايام ابيهِ الهائلة . وورث تولي خان رابع ابناء چنكيز مملكة ايران وخراسان وكابل وما يجاورها ومات هذا الامير ولهُ اولاد كثيرون اشهرهم هلاكو خان العظيم وهو الذي ملك بلاد ايران بعد ابيهِ وجدهِ وتقدم على

بقيَّة ما بقي للدولة العباسيَّة فضمها الى املاكهِ واشتهر شهرة كبيرة في ايامهِ

واشهر اعمال هلاكو خان اخضاع الطائفة الحسنيَّة وقطع دابرها وهي الطائفة السريَّة التي اوقعت الرعب في القلوب وعجز سلاطين الدولة السلجوقيَّة عن اخضاعها وكان في البلاد حكيم عاقل اسمهُ نصير الدين الطوسي صاحب الالهيات والفلسفة الشهيرة علم بهِ هلاكو خان فاكرمهُ ورفع مقامهُ وكان يستشيرهُ في كل امورهِ حتَّى انهُ كان عازماً على اِخضاع القسطنطينيَّة فأشار عليهِ نصير الدين بالتقدم على بغداد في اول الامر وانبأَ لهُ بسقوط الدولة العباسيَّة فعمل هلاكو برأيهِ ونجح في الامر على ما تقدم فلما دخل هذا الفاتح المغولي مدينة بغداد اسر المستعصم وهو يومئذٍ الخليفة العباسي وامر بقتلهِ وقتل ابنهِ ثم اطلق السراح لعساكرهِ فداروا في المدينة يقتلون وينهبون ويخربون معابد المسلمين لانهم كانوا من عباد الاوثان وقاسى اهل بغداد المرَّ من هلاكو ورجالهِ . ثم تقدم هلاكو على بلاد العرب وبلاد الشام والعراق فاخضع الكل في سنة واحدة وورث سلطنة ايران العظيمة في هذا الزمان القصير . وكان هلاكو ينوي الزحف على بلاد التتر واخضاعها فحدث ان سيف الدين وهو يومئذٍ اشهر مماليك مصر كسر عساكرهُ في بلاد الشام فامتنع عن قصدهِ واستراح في مدينة جميلة الموقع اسمها مراغه باذربايجان جعلها عاصمة ملكهِ وجمع فيها العلماء واهل الادب وبنى المدارس والمراصد الفلكيَّة ولم تزل آثار المرصد ظاهرة على مقربةٍ مِنْ موقع مدينة مراغه

ومات هلاكو بعد ان ذاق كل صنوف العز والهناء فخلفهُ ابنهُ اباقا على السلطنة وكان شجاعاً باسلاً وحكيماً عادلاً جعل همهُ اصلاح ما اختل في ايام والدهِ والتعويض على الذين لحق بهم ضر من عساكرهِ فرتعت البلاد في

ايامهِ في بحبوحة الامن ولم يكدّرها غير هجوم بعض امراء التتر من سلالة چنكيز على اطراف البلاد الشرقيَّة بقصد الفتح والغزو وكان اباقا يرد الهاجمين ويكسر جيوشهم ثم يعود الى الاصلاح والعدل في الناس فاستحق منهم المدح الكثير

ولقي اباقا في آخر ايامهِ شيئاً كثيرًا مِن دواعي الكدر فان جيوشهُ كسرت في بلاد الشام والدسائس كثرت في بلاطهِ ومات في آخر الامر مسموماً ويظن البعض ان الذي دسهُ لهُ وزيرهُ شمس الدين وكان هذا الوزير متمتعاً بالسلطة والنفوذ في ايام مولاهُ زماناً طويلاً فلما نجحت دسائس اعدائهِ ورأى ان السلطان على وشك ان يعزلهُ وضع لهُ السم في طعامهِ كما مرَّ . وكان اباقا فاضلاً حكيماً اشتهر مثل بعض سلفائهِ بحب العلم والعلماء وعاش في ايام جلال الدين الشاعر الشهير بالروحي صاحب المثنوي والشيخ سعدي الشيرازي وهو من فحول العلماء . واقترن اباقا بابنة ميخائيل فيلولوغس امبراطور القسطنطينيَّة وكان يظهر ميلاً كبيرًا الى دول النصرانيَّة وينصر الافرنج على العرب في الحروب الصليبيَّة فاعتقد الناس من ذلك انهُ اعتنق الدين المسيحي ولكن هذا السلطان لم يتظاهر بدين من الاديان مدة حكمهِ وظلَّ وثنياً بالاسم الى آخر ايامهِ

وعند وفاة اباقا اجتمع امراء المغول وقوادهم وقرَّ رأيهم على تنصيب نيكودار اخي اباقا مكانهُ . قيل ان هذا السلطان عُمّد على الطريقة الارثوذكسيَّة يوم ولادتهِ وسمّي نقولا ولكنهُ وجد بعد استلام الملك ان السياسة تقضي عليهِ باعتناق الدين الاسلامي لان البلاد التي كان يحكمها اسلاميَّة ففعل ذلك وسمى نفسهُ السلطان احمد خان وتظاهر بالكره الشديد

لطوائف المسيحيين حتى انهُ اصدر امرًا بمنعهم من السكن في مملكة ايران وخرب كنائسهم واضطهدهم اضطهادًا كبيرًا . على ان ذلك لم يرق لامراء المغول واكابرهم لانهم وان كانوا لايدينون بدين النصرانية الاَّ ان الدول النصرانيَّة كانت مصافية لهم ورأَوا ان التضييق على القوم يعود بالخراب على المملكة فشكوا هذا السلطان الى قبلاي خان خاقان التتر وعلم السلطان نيكودار بذلك فقبض على الذين اوصلوا الشكوى الى الخاقان وفي جملتهم اخوهُ وابن اخيهِ ارغون فقتل الاول وخلص الثاني بقيام الامراء على السلطان وخلعهِ واعدامهِ

وسمي ارغون سلطانًا بعد عمهِ على بلاد ايران ولكنهُ لم يشأْ ان يعترف لنفسهِ بهذا المركز حتَّى جاءَهُ التصريح بهِ من خاقان التتر . ولم يحدث في ايام ارغون خان مايستحق الذكر غير انهُ ارجع شمس الدين الى الوزارة ثم سمع كلام الوشاة وصدق انهُ دسَّ لابيهِ السمَّ فأَمر باعدامهِ ووظف غيرهُ مكانهُ فلما أَحسَّ بقوة الوزير الجديد امر باعدامهِ ايضًا واستوزر مكانهُ يهوديًّا سمَّى نفسهُ سعد الدولة واشتهر هذا الوزير بالدهاء ودماثة الاخلاق وطلاوة الحديث وهو الذي انتصر للمسيحيين وبدأَ باضطهاد المسلمين في مملكة ايران على صفة لم يسبقهُ اليها احد حتَّى انهُ خرب عدة جوامع ونهى المسلمين عن الدنو من قصر الملك وبدأَت المخابرات بينهُ وبين البابا نقولا الرابع فخاف المسلمون العاقبة وظنوا ان جوامعهم ستصير كنائس وعقيدتهم ستلغى من الوجود ولكن مخاوفهم زالت ونفوسهم اطمأَنت بموت ارغون خان في ذلك الحين وما صدقوا ان سمعوا بوفاتهِ حتى قاموا على وزيرهِ اليهودي وقتلوهُ

وملك بعد ارغون اخوهُ كيخا خان وكان في ايام اخيهِ حاكمًا على

بلاد الاناطول فلما مات ارغون اجتمع امراء المغول على عادتهم وقرروا تسليم السلطنة اليهِ فاسرع في الحال الى تبريز وهي يومئذٍ عاصمة السلطنة فرحب بهِ معظم القوم وحملوا النفس على الطمأنينة بقدومهِ وهم يظنون ان ايامهُ ستكون ايام السعد والرخاء فما طال الامر عليهم حتَّى علموا انهم اخطأُوا في حسابهم ورأَوا من هذا السلطان الجديد كسلاً وخمولاً وانغماساً في الشهوات لم يسبق لهُ نظير حتَّى انهُ كان يتخطف بنات القوم من الطرق والبيوت وينفق المال ويتلفهُ اتلافاً على آيات حظهِ ففرغت خزائنهُ من النضار وشعر بالعوز وكان هذا العوز سبباً في اختراعٍ غريب قادت اليهِ الحاجة واشار بهِ واحد من الموظفين اسمهُ عزالدين مظفر سمي بعد ذٰلك بالشرير على اختراعهِ هذا وهو استعمال الورق في المعاملات بدل النقود وكانت هذه الاوراق تصنع على نفس الطريقة الَّتي تصنع بها الآن اوراق الدول وتحاويل البنوك الكبرى عليها رموز واشارات صينيَّة مجاملة لخاقان التتر والصين وعبارة "لا اله الاَّ الله محمد رسول الله" من الجانبين ومن تحتها قيمة الورقة وامر من السلطان يحتم على الناس قبولها بالقيمة المطبوعة ويأمر بالخراب والعقاب الشديد على كل من يرفض قبولها واستعمالها . وكانت هذه الاوراق مستعملة في بلاد الصين من قبل ذٰلك الحين بستمائة سنة وهي تعد اليوم من اعظم مخترعات الافرنج مع ان الفضل في ايجادها للصينيين ولهذا السلطان الايراني كما تقدم . على ان الاهالي كانوا يكرهون هذه الطريقة ويدعون على صاحبها بالخراب ولما عمت الشكوى منها اضطرَّ السلطان إلى الغائها ولكنهُ لم يسترجع بذلك ثقة الاهالي وظلوا ناقمين عليهِ الى ان جاهر بايدو خان وهو حفيد هلاكو بالعصيان فانتصر لهُ الاهالي وساعدوهُ على اسر السلطان وقتلهِ

وصار الملك من بعد ذلك الى بايدو خان . ولكن بايدوخان لم يتمتع بالملك زمانًا فانهُ مات بعد اشهر قليلة من استلامهِ الملك قتلهُ غازان خان ابن ارغون وجلس مكانهُ على سرير السلطنة بعد ان استشار امراء السلطنة وقروا على انتخابهِ . وكانت مملكة ايران قد صارت الى قبضة هؤلاء الامراء من بعد ايام هلاكو خان فاراد هذا السلطان ان يعيد سلطة الملوك الى البلاد ويحيي نظامات چنكيز خان مرة اخرى فشرع في هذا الاصلاح الكبير وتهدد كل امير وكل كبير بالقتل اذا هو عارضهُ في آرائهِ ولم يرضخ لاوامرهِ . ثم نشر السلطان قانونًا شاملاً ونظاماً عامًّا للسلطنة اصلح فيهِ امور الزراعة وجباية الاموال وسنّ الشروط الموافقة للعمال والقضاة والامراء والتجار والصنّاع وشاد الابنية العظيمة وبني مراكز لتوزيع البريد على الحكام والامراء وعامة الشعب على نسق مكاتب البوسطة في هذه الايام وقطع دابر اللصوص وقاطعي الطرق ووحّد المقاييس والموازين في المملكة واصدر من الاوامر والتعليمات ما دلّ على اقتدار عجيب وذكاء مفرط وهمة عالية وكانت كل هذه النظامات الجديدة مما يوجب تقدم البلاد وراحة الاهالي وزيادة القوة والنفوذ للحكومة وهي موافقة تامة لاحوال البلاد والساكنين فيها

واهم حروب غازان خان كانت في بلاد مصر وهو الذي تظاهر اكثر من سواهُ بحب الافرنج ومحالفتهم على العرب مع انهُ كان يدين بدين الاسلام وقضى معظم ايامهِ يحارب ملوك المسلمين ففقد الحب من صدور المسيحيين والمسلمين معًا . على ان اسلام غازان خان هذا افضى الى اعتناق مائة الف جندي من جنودهِ دين سلطانهم الجديد فقويت بذلك شوكة الاسلام في بلادهِ وهو اول من ابطل الاعتراف بسيادة خاقان التتر وعدل عن كتابة

اسمهِ على النقود لانهُ كان يعتبرهُ كافرًا فأدَّى ذلك الى هجوم التتر على خراسان ولكن سلطان ايران تمكن بدهاء وزيرهِ (نوروز) من ردهم ونجحت عساكرهُ ايضًا في بلاد الشام ولكنها خذلت في آخر الامر فأثر بهِ ذلك وادَّى الى وفاتهِ

وغازان خان هذا هو الذي بنى مدينة شنب غازان على مقربة من تبريز واشتهر بقصر قامتهِ وكثرة علومهِ ومعارفهِ . وخلفهُ على السلطنة اخوهُ السلطان محمَّد خدا بنده (عبد الله) ولم يحدث في ايامهِ من الحروب غير هجوم التتر على خراسان وردهم وقيام اهل كيلان على عاملهِ وعدم تمكن عساكرهِ من كبح جماحهم . وخدا بنده اول من جاهر بميلهِ الى الشيعيين وامر بتخليد اسم الائمة الاثني عشر وهو الذي بنى مدينة السلطانيَّة الَّتي صارت من بعد نشأتها عاصمة مملكة ايران

وخلفهُ على السلطنة ابنهُ ابو سعيد وكان صبيًّا في الثانية عشرة من عمرهِ فتولى الامر في مدة قصورهِ الامير چوپان وزاد نفوذهُ زيادة هائلة لاسيما بعد ان تزوج هذا الوزير باخت السلطان . وجاهر تيمور طاش ابن الوزير بالعصيان وكان يومئذٍ واليًا على بلاد الشام فتقدم الوزير لمحاربة ابنهِ وكان البعض يظنون ان في الامر حيلة فلما التقى العاصي بابيهِ ورأى ان قوتهُ لا تقاوم بمثل ما اجتمع لديهِ من جموع العصاة طلب الصفح من ابيهِ فصفح عنهُ واتى بهِ اسيرًا الى ابي سعيد فوثق السلطان من امانة وزيرهِ الاَّ انهُ حدث بينهما بعد ذلك ما كدر صفاء العيش ذلك انهُ كان للوزير ابنة بارعة الجمال فأحبها السلطان حبًّا مفرطًا ولم يشأ والدها ان يعطيها اليهِ لانها كانت مخطوبة للامير حسين وهو من قواد المغول فأصرَّ السلطان على طلبهِ واضطرَّ الوزير الى المجاهرة بالعصيان

فحاربهُ وانتصر عليهِ وقتل الوزير چوپان في الحرب فرأى الامير حسين ان ابا سعيد لايقاوم وتنازل لهُ عن عروسهِ فاقترن ابو سعيد بها وكان يكرمها ويجيب سؤْلها كل حياتهِ ولولاها لما قامت لعائلة ابيها من بعدهِ قائمة

وقام اهل شروان على السلطان بعد هذه الامور فتوجه اليهم بنفسهِ ومرض ومات في الطريق فأُعيدت جثتهُ الى السلطانيَّة على مقربة من غزوين ودُفن فيها مع آبائهِ واجدادهِ وهو آخر ملوك الدولة المغوليَّة العظيمة الَّتي اسسها هلاكو في بلاد ايران وتقابل مع هذا السلطان الرحالة الشهير ابن بطوطة بهمدان

وعادت بلاد ايران بعد ابي سعيد الى مثل ما عانتهُ في آخر كل دولة من الدول فكثر فيها الاضطراب والانقسام واستولى كل امير على ولايتهِ فجعل يحارب بقيَّة الولايات باهلها حتَّى ظهر في اعلى الجوزاء نجم الامير تيمور الشهير فخضعت بلاد ايران وغيرها لهيبتهِ وانتهى بذلك حكم الدوله المغوليَّة الاولى



الامير تيمور وخلفاؤهُ

يذهب فريق كبير من المؤرخين الى ان تيمور من اعظم ملوك الارض من بعد يوليوس قيصر والاسكندر ولهم على ذلك الادلة والاسانيد فلم يقم في الشرق اشهر من هذا الفاتح العظيم والقائد الغريب والملك القدير وأصلهُ من التتر مثل چنكيز خان كان شيخ قبيلة قويَّة فلما استولت الفوضى على البلاد من بعد وفاة چنكيزخان وابنهِ تقدم امير كشغر وبدخشان على ما وراء النهر وهي البلاد التي كان تيمور شيخاً فيها ففرَّ عم تيمور من وجههِ وهو يومئذٍ كبير القبيلة ولكن تيمور التجأَ الى الفاتح واظهر لهُ الود والاخلاص ونجح في هذه الحيلة لان امير كشغر عينهُ والياً من قبلهِ على بلادهِ الاصلية فعدَّ تيمور في مصاف الحكام الكبار من ذلك اليوم وبدأَ نجمهُ في الصعود حتَّى بلغ بهِ الاوج مع كثرة ما لاقى من المصاعب والمتاعب. وغريب في امر تيمور انهُ كان لا يخشى الاهوال ولا يحسب للمتاعب حساباً وكلما كثر الضيق عليهِ كثر حزمهُ وقد روى عن نفسهِ في الكتاب الذي الَّفهُ عن تاريخ حياتهِ انهُ لما كان فارًّا من الاعداء يوماً وقد اختبأَ في بعض الكهوف رأى نملة صغيرة تحاول جهدها في رفع ثقل اكبر منها الى اعلى نملةٍ فجعل يتأَملها والحمل يتدحرج وتعود النملة اليهِ وهي لا تكل ولا تمل حتَّى سقطت تسعة وستين مرَّة وهي لا تنثني عن عزمها وفازت بايصال الحمل الى المحل المطلوب في المرة السبعين فتعلم تيمور الثبات منها وهو اشهر من اشتهر بهذه الصفة التي تلزم لكل عظيم

وتحالف الامير تيمور مع الامير حسين حاكم ما وراء النهر وهو الذي مرَّ

ذكرهُ في تاريخ السلطان ابي سعيد فقوي بهذا التحالف واتحد مع صديقهِ على الدفاع عن الوطن ورد كل هاجم عن البلادين وتزوَّج اخت الامير حسين فلما قوي الامير تيمور وكثرت مطامعهُ كثر النفور بينهُ وبين حليفهِ ثم ماتت اخت الامير حسين فانقطعت بذلك اسباب الوداد بين الاثنين فعمد الاثنان الى المحاربة وانتصر الامير حسين في اول الامر فظنَّ الاكثرون ان تيمورًا فشل وخذل وكانت مدينة (قرشي) الحصينة قد وقعت في قبضة اعداء تيمور وهي من املاكهِ فأظهر لقوادهِ واعوانهِ عزمهُ على استرجاع المدينة مهما كلفهُ الامر ووافقوهُ على ذلك فانتخب ٢٤٣ بطلاً من صناديد الرجال وتقدم بهم الى المدينة المذكورة بقصد ارجاعها بقوة الحيلة . ولما صار على مقربةٍ منها علم انها من امنع مدن ذلك الزمان وان فيها الجنود العديدة وعلى مقربةٍ منها ١٢ الف جندي من عساكر خصمهِ فلم تخفهُ كثرة العساكر والمعدات وسار في الليل مع اثنين آخرين من رجالهِ الى وسط المدينة فتفقد مواقعها ورأى كل ما فيها وعاين محلاً في سورها يمكن الصعود منهُ اليها ثم قفل راجعًا واوصى ابطالهُ بعمل الحبال والسلالم ففعلوا ذلك ثم تقدموا ليلاً على المدينة والحرس لا يحسبون للشر حسابًا فوضعوا السلالم في المحل الذي عاينهُ تيمور وصعد منهم مائة الى داخل الحصون فقتلوا الحراس النائمين وفتحوا الابواب لتيمور وبقيَّة ابطالهِ وهم لا يزيدون عن مائتين واربعين شخصًا وعند ذلك امرهم تيمور ان يكثروا من الجلبة والغوغاء والصياح ما أمكن وان يتظاهروا بكثرة القوات والعدد فأفاق الجنود واهل المدينة فوجدوا القلعة في يد اعدائهم وسمعوا لهم صياحًا ودويًا كثيرين فظنوا ان الاعداء في عدد الرمال وفرُّوا من المدينة خوفًا على انفسهم فلم يعارضهم في الفرار حتى يوهم الجنود الواقفة على مقربةٍ من المدينة بعظم قوتهِ وتمَّ لهُ الامر على ما يريد .

ولكن اهل المدينة وقواد جيش الامير حسين عرفوا بعد ذلك بالامر على جليتهِ فأخجلتهم قلة الذين فعلوا تلك الفعال وعقدوا النيَّة على استرجاع الحصن والمدينة فحاربوا تيمور ومن معهُ زماناً طويلاً ولم يفلحوا ثم رأى الاميران ان اطالة مدة الحرب بينهما تعرض البلاد للخطر فكفا عنها بعد اعطاء قرشي المذكورة الى الامير تيمور فتمكن بذلك من تحويل همهِ الى فتح البلدان الاخرى . ولكن المنافسة عادت بين الاميرين فتحاربا وانتصر تيمور على خصمهِ وامر بقتلهِ فاستراح من منافستهِ وظلَّ هذا الفاتح العظيم بعد ذلك ١١ سنة ينظم بلادهُ وقد جعل مدينة سمرقند عاصمتها وضمَّ اليها خوارزم وكشغر ثم عزم على اخضاع خراسان فسلَّم اليهِ صاحبها بلا حرب ولا قتال وضرب تيمور عليها الاتاوة الفاحشة فأوقع اهلها كلهم في الفقر المدقع ثم خضعت قندهار وكابل لصولتهِ فصارت اواسط اسيًّا كلها من املاكهِ . وفي السنة التالية ضمَّ مازندران وسيستان وهي من الامارات القديمة التابعة لسلطنة ايران فعظم قدر هذا الرجل الكبير ونوى من ذلك اليوم ان يجعل السلطنة الايرانية كلها من املاكهِ

ولم يلقَ تيمور عناءً في اخضاع بلاد ايران لان حكامها من الولاة وسلالة هلاكو كانوا في تلك الايام قد اكثروا رذائلهم فخضعت البلاد لهذا الفاتح العظيم من اقصاها الى اقصاها في اقل من سنة ما خلا مدينة اصفهان فانها قاومت زماناً ولما جاءها تيمور بنفسهِ خضعت لهُ في الحال فعفي عن رجالها ولكنهُ فرض عليهم غرامة رابية ينوء بها امثالهم فكثرت مصائبهم وفرغت من المال خزائنهم وحدث ان حدادًا كان يضرب على طبل في احدى الليالي بقصد الطرب فظنَّ الناس ان في الامر شرًّا وتألبت جماهيرهم في ساحات المدينة

وقام من بينهم اناس يشكون من ظلم التتر ويحرضون على مقاتلتهم فوافقهم الاهالي وقاموا على عساكر تيمور وقتلوا ثلاثة آلاف رجل منهم في تلك الليلة ولما جاء الصباح وعلم عقلاء القوم بغلطتهم لم يبقَ عندهم ريب في ان تيمور سينتقم من مدينتهم انتقاماً هائلاً وتقدموا اليهِ يطلبون الصفح ويقدمون الخضوع لكل اشارة يبديها فأمر بردهم الى مدينتهم واحاطتها بالجنود وابلغهم انهُ عزم على قتل كل من في اصفهان بلا استثناء فعظم الامر عندهم والحوا في الترجي والترضي ولم يفد هذا غير اصرار الامير تيمور على عنادهِ وعند ذلك عزم اهل اصفهان على الدفاع وقد قطعوا املهم من الحياة فلم تغنِ شجاعتهم فتيلاً واعمل العساكر القتل فيهم بعد ان فرض تيمور على كل واحد من رجالهِ رؤوساً معلومة ولم يشفق على العاجزين والابرياء فقتلوا اهل اصفهان عن بكرة ابيهم وجمعوا الرؤوس امام تيمور فزادت عن سبعين الف راس ولم يروَ ان مدينة ذاقت الذي ذاقتهُ اصفهان في تلك السنة وقتل اهلها عن آخرهم مثل هؤلاء المساكين . وممَّا يضحك الثكلى ان المؤرخين يعظمون قدر هذا السلطان وينسبون اليهِ كل فضيلة ويعدّدون عن شفقتهِ ورأفتهِ مع كل ما روي عنهُ من الاهوال والفظائع . وبعد ذلك تقدم على بقيَّة اجزاء السلطنة الايرانيَّة فأخضعها واشتهر اينما سار بالبأس والقوة والبطش الشديد وجمع كل ما في البلاد من المال

وفي السنة التالية قصد مدينة بغداد وضمها الى املاكهِ مع كل ما يليها من البلدان الطيبة ثم ارسل عساكرهُ الى بلاد التتر فاخضعت جانباً كبيراً منها ووصلت الى حدود السور العظيم في بلاد الصين وتقدم القسم الآخر الى الشمال فملك جزءًا كبيراً من روسيا وسيبيريا حتى ان مدينة (مسكو) وقعت في قبضتهِ وذاقت منهُ المر. وقد اشتهر بحصار (تكريت) وتمكنهِ من هدم حصونها

الهائلة وهو الذي ملك مصر والشام وبلاد العراق وكل ما يليها وامر بحرث دمشق الشام فحرثت وخربت بعد ما قتل اهلها وعذّب امراءها واسر منها من أسر مثل غيرها من المدن التي هاجمها هذا القائد الشهير . وملك ايضاً بلاد الجركس والاناطول والعرب وكل ما كان للسلطان محمود الغزنوي من قبله وزاد عليه الشيء الكثير في نواحي التتر وفي جنوبي اوربا مما لم يزل فيه الآثار الكثيرة من ايامهِ

ولما اتسع نطاق المملكة وعظمت لشوكة الامير تيمور صاحب قران — وكان يعرف بهذا الاسم كل حياتهِ — طمحت نفسهُ الى امتلاك جوهرة الممالك وسيدة البلدان اي بلاد الهند فشاور قوادهُ واعوانهُ ولم يوافقوهُ على رأيهِ بدعوى ان عساكرهم تعتاد الخمول والتواني في بلاد حارة مثل الهند ولكن هذا الامير العظيم اقنعهم بلزوم التقدم عليها فاطاعوهُ وقصد بار بعمائة الف بطل تلك الممالك الزاهية ولو شئنا تفصيل حركاتهِ ووقائعهِ في الهند لاقتضى ذلك كتابة المجلدات ولكننا نكتفي بالقول انهُ كان يفتح البلاد بعد البلاد والارض تلقي مقاليدها اليهِ حتّى ملك معظم انحاء الهند ونال منها الغنائم الوافرة . وكان معهُ في اواخر غزوتهِ مائة الف اسير من الهنود فلما قدم على دهلي يريد محاصرتها وامتلاكها رأى ان الاسرى يغلون ايدي عساكرهُ ويتعبونهم فامر باعدامهم كلهم في الحال واطاع رجالهُ الامر فقتلوا مائة الف اسير في ذلك اليوم ولم ينجُ واحد منهم لان تيمور اعلن ان الذي يمكن اسيرًا من الفرار يقتل هو وآلهُ وليس في التاريخ كلهُ حكاية مجزرة وقسوة تحكي هذه الحكاية الهائلة

وبعد امتلاك الهند عاد الامير تيمور الى سمرقند عاصمة ملكهِ وصرف

همهُ الى التنظيم والتحسين مدةً ولكن هذه المدة لم تدم لان الرجل كان لا يطيق السكون والخمول فحول نظرهُ الى العثمانيين وكانوا قد امتلكوا الاناطول واسسوا الدولة الحالية فحاربهم وانتصر عليهم في عدة مواقع آخرها موقعة (انقرا) وهي الّتي اسر فيها السلطان بايزيد وظلّ اسيرًا في قبضة تيمور الى ان قضى عليهِ في القفص ووقعت البلاد في قبضة تيمور وكل مدينة قاومتهُ رأَت الخراب الاكبر مثل اصفهان وقد أُصيبت مدينة ازمير بمثل هذا البلاء لانها لم تطع الفاتح في الحال فدمّرها تيمور عن آخرها بعد حصار ١٥ يومًا وهي الّتي قويت ٧ سنوات على حصار الاتراك في ايام السلطان بايزيد

وبعد هذه الفتوحات تأَمل الامير تيمور في بلدان الارض فرأَى ان جلها خضع لهيبتهِ ما خلا بلاد الصين فشاور اعوانهُ في اخضاع الصين والتتر الصينيَّة وهي الّتي كان يحكمها خلفاءُ چنكيز خان ووافقوهُ على رأْيهِ فجمع جيشًا جرارًا وسار لمحاربة تلك البلاد الضخمة في الحادية والسبعين من عمرهِ ولكنهُ مرض في الطريق ومات بعدان اوصى بالملك من بعدهِ الى حفيدهِ پير محمد جهانكير -

وكان تيمور من اشهر قواد الارض ومن اعظم الرجال في علوّ همتهِ وصبرهِ على الشدائد ويعرف باسم تيمور لنك اي الاعرج ولم يقم في الارض فاتح اعظم منهُ ولا عرف عن رجل الثبات على القتال مدة اثنين وخمسين سنة مثلهُ بلا انقطاع . وكان تيمور مسلمًا شيعيًّا يعضد الاسلام خلافًا لجنكيز خان واشتهر بحروبهِ اكثر مِنْ كل امير وسلطان ولو انصف المؤرخون لجعلوا شهرتهُ الاولى في القسوة الّتي جاوزت حدود الطبع فلم يفعل فاتح باعدائهِ مثلما فعل تيمور في اصفهان ودهلي ودمشق وازمير وانقره وغيرها ولم يقم قبلهُ ولا بعدهُ واحد اوقع

الرعب في القلوب مثلهُ الاَّ چنكيز خان

وكان پير محمد الذي اورثهُ تيمور الملك من بعدهِ في قندهار يوم وفاة هذا الرجل العظيم فانتهز خليل ميرزا فرصة بعدهِ واغرى القواد على مبايعة الملك ونجح في ذلك لان خصمهُ مات بدسيسة احد وزرائهِ . وكان السلطان خليل هذا وهو ابن تيمور من اصحاب اللين والرقة ولولا انهُ أتى خطأً كبيرًا لكان حكمهُ سعيدًا ولكنهُ علق بحب فتاة فتانة وصرف همهُ الى رضاها وحظها فانفق عليها جل ما جمعهُ تيمور من المال ونفيس التحف واوجب هذا قيام الامراء عليهِ فعزلوهُ وولوا مكانهُ السلطان شاه رخ وكان حليماً عادلاً سجن خليلاً في اول الامر ثم صفح عنهُ وجعلهُ والياً على خراسان وارجع اليهِ حبيبتهُ الّتي لقيت من الاهانة والعذاب مدة سجنهِ ما لا يوصف . ومات خليل في خراسان بعد عودهِ الى الامارة بزمان قصير

وتمثل ابن تيمور بابن چنكيز فلم يطمع في الفتح والغزو سيما وان أباهُ ترك نصف الدنيا ملكاً لهُ وما حارب الاَّ بعض قبائل التركمان الّتي هاجمت بلادهُ ثم جعل همهُ الاصلاح وتقرير الامن واستيفاء اسباب الرفاهيةّ لبلادهِ وحكم ٣٨ سنة على هذا المنوال ومات في الحادية والسبعين من عمرهِ فخلفهُ ابن الغ بك العالم الرياضي الشهير واليهِ ينسب الزيج الغ بكي الآن ولكن الدهر خانهُ حال صعودهِ على عرش السلطنة اذ قام عليهِ ابنهُ عبد اللطيف وقتلهُ وجلس مكانهُ على ان الدهر انتقم من هذا الابن الغادر واماتهُ عقيب استلامهِ ازمة الملك

ولم يقمْ بعد تيمور وابنهِ رجل يذكر فعادت الاحوال الى ما كانت عليهِ بعد وفاة چنكيز وهلاكو واشهر من ولي الامر من آل تيمور بعد ذلك ابو سعيد

ابن حفيد الفاتح العظيم وكان لابي سعيد هذا احدى عشر ولدًا اشهرهم بابر الشهير الذي رحل الى الهند فرارًا من الاعداء وفاز بتأليف سلطنة هنديّة عظيمة لم يزل نسلهُ يحكمها بالاسم الى هذا اليوم . وكثرت بعد ابي سعيد الثورات والقلاقل في بلاد ايران فانتهت دولة تيمور وآلهِ في مدة ابي سعيد كما انتهت مدة الدولة المغوليّة الاولى او دولة چنكيز وآلهِ في مدة سلطان آخر اسمهُ ابو سعيد وظلت مدة في ايدي الولاة لا تستقرّ على حال من القلق حتّى صارت الى قبضة الدولة الصفويّة وهي الّتي يجيء ذكرها في الفصل القادم



الدولة الصفويّة

لم يقم في بلاد ايران دولة أشرف من هذه الدولة اصلاً ولا أطيب فرعًا ولا اكرم مبدأً فقد كانت العائلة الصفويّة من عهد مؤسسها الشيخ صفي الدين عائلة علماء اعلام وائمة كرام واصحاب تقوى يوقرهم الانام وقبورهم تزار الآن مثل قبور الاولياء الكرام وكان لهذا الشيخ الفاضل اعوان يصدعون بأمرهِ وهو لا يأمر بغير الطيب والاحسان وخلفهُ ابنهُ صدر الدين وعقبهُ من الاولياء مشاهير مثل خواجه علي وجنيد وحيدر ممن اشتهروا بالفضل والعلم والتقوى . وكان صدر الدين في ايام تيمور وقد اخذ لهُ مقرًّا في مدينة اردبيل من اعمال اذربايجان مثل ابيهِ فزارهُ يومًا هذا البطل العظيم وسألهُ ان مر بما تريد أقضهِ في الحال قال أريد منك ان تطلق سبيل الاسرى الذين أتيت بهم من بلاد الاتراك ففعل تيمور باشارتهِ وحفظ الاتراك هذا الجميل لصدر الدين

وعائلتهِ وكانوا بعدئذٍ هم السبب في توليتها الملك كما سيجيء وليس في التاريخ ذكر امر يدل على الاقرار بالجميل بعد مرور الاجيال مثل هذا الامر

واشهر ما يذكر عن خواجه علي انهُ حجَّ الى القدس الشريف ومات فيهِ وخلفهُ حفيدهُ جنيد فاجتمع لديهِ خلقٌ كثير حتَّى خاف الاتراك شرهُ وحارب احد رؤَسائهم فاضطرهُ الى الفرار الى ديار بكر حيث قابلهُ حاكمها الامير حسن بالاكرام وزوجهُ اختهُ . وقصد جنيد بعد ذلك بلاد شيروان فحاربهُ حاكمها وقتلهُ فخلفهُ السلطان حيدر وكان امير اوزون حسن حليفهُ فتقوى بنصرتهِ على الاعداء وصار بالتدريج حاكماً على كل بلاد ايران في مدة السلطان ابي سعيد الذي مرَّ ذكرهُ ومات فدفن في اردبيل فخلفهُ ابنهُ السلطان علي ولكن القلاقل كثرت في ايامهِ وظلت عائلة صفي الدين في خطر دائم يوماً تصعد الى الاوج ويوماً تنحط الى الحضيض حتَّى قام السلطان اسماعيل ابن السلطان علي وملك البلاد وهو في اعتبار المؤَرخين اول ملوك الدولة الصفويَّة

ولا يعرف عن شاه اسماعيل في ايام صغرهِ غير القليل . الاَّ انهُ استلم قيادة الاعوان في الرابعة عشرة من عمرهِ فحارب عدو عائلتهِ حاكم شيروان وقتلهُ ثم هجم عليهِ الاتراك والتركمان من ناحية الاناطول ففرق شملهم وانتصر على كل اعدائهِ فنودي بهِ سلطاناً على مملكة ايران وما يتبعها وهو في الخامسة عشرة من عمرهِ . وكان اسماعيل صوفيًّا مثل افراد عائلتهِ وليس لهُ اعداء واعوانهُ كثار فرأى بعد الامعان ان يدخل مذهب الشيعيَّة الاثنا عشرة الجعفريَّة الى ايران ويجعلها مذهب السلطنة ففعل ذلك وفاز بمرادهِ ولم يلقَ معارضة تذكر لان الايرانيين عدوا هذا الانفصال عن بقيَّة المسلمين استقلالاً

لهم وفضلوا مذهب القائلين بتكريم الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجههُ ومن ذلك اليوم صارت بلاد ايران مقر الشيعة بين المسلمين

وعصت خراسان وبلخ وغيرها من الولايات امر السلطان اسماعيل في بدء حكمهِ على عادتها فحاربها كلها وانتصر عليها وامتدَّ نفوذ هذا السلطان امتدادًا عظيماً حتَّى رزق عدوًّا كبيرًا لم يقدر عليهِ هو السلطان سليم العثماني الشهير قصد بلاد ايران بخيلهِ ورجلهِ البالغ عددها مئة وخمسين الفاً ومائتي مدفع وذلك بغتة دون مخابرات دوليَّة معمولة لدى الحكومات وقام اسماعيل لمحاربتهِ بكل ما لديهِ من القوة وهو يومئذٍ بهمدان يطلب الصيد والقنص ودافع عن بلادهِ في چالدران بخمسة عشر الف نفس باذربايجان فتقهقر امامهُ وكسر شر كسرة مع انهُ اظهر في الحروب بسالةً غريبة وكان الاتراك يحاربون بالمدافع والايرانيون بالسلاح القديم غير ان انتصار الاتراك لم يؤثر في ايران لانهم اضطروا الى الرجوع في الشتاء لشدة البرد وقلة الزاد ولكن اسماعيل ظلَّ حزيناً من بعد تلك الكسرة الى آخر ايامهِ ويروى انهُ لم يضحك من بعد ذلك اليوم ولم يترك لبس السواد ايضاً . ولما مات السلطان سليم تقدم اسماعيل على بلاد الاتراك للاخذ بالثار فأَخضع بلاد الجركس وهي يومئذٍ تابعة للاتراك وعاد عنها فعرَّج على اردبيل ليزور قبور اجدادهِ فقضى نحبهُ هناك ودفن فيها مأسوفاً عليهِ

وملك تهماسب بعد ابيهِ اسماعيل على ايران وهو في العاشرة من عمرهِ فانتهزت بلاد خراسان هذه الفرصة للعصيان على عادتها واخضعها بغير عناء كثير ثم وقعت المنافسات بين فئات الاتراك الذين ساعدوا هذه الدولة على الملك وكثر الخصام بين طائفتين منهم فانحاز تهماسب الى احدهما ونجحت

الاخرى فطلبت القبض عليهِ وعند ذلك هاج الدم في عروقهِ واستغاث بمروءة جنودهِ واعوانهِ الايرانيين فأغاثوهُ وتقدَّموا معهُ لمحاربة هؤلاء الاتراك فنكلوا بهم واذاقوهم البلاء الاكبر وانتصروا عليهم انتصارًا تامًّا . وتقدَّم السلطان سليمان التركي على بلاد ايران لملك اذربايجان والعراق وبغداد وغيرها من الاراضي الغربيَّة التي كانت لايران وعاد في آخر الامر الى الاستانة ظافرًا منصورًا من بعد ما فتك باهالي البلاد فتكًا ذريعًا يحاكي تعدي تيمور وچنكيز فلما علم تهماسب برجوعهِ جمع جيشًا كبيرًا وتقدم بهِ على بلاد الاتراك وملك ارمينيا وما يجاورها ولكنهُ اضطرَّ ايضًا الى الرجوع لما بلغهُ ان القلاقل كثرت في بلادهِ بسبب قيام قبائل ازبك من التتر على حكومتهِ في الشرق بايعاز مِن السلطان العثماني وعصيان اخيهِ القاص ميرزا وهو الذي التجأَ الى السلطان سليمان التركي واتفق معهُ على اقتسام ايران وكان لهذا الامير اعوان كثيرون في ايران فخشي تهماسب العاقبة سيما بعد ان فتح جيش الاتراك تبريز وتقدم على السلطانيَّة ولكن التقادير سلمت ايران بخصام القاص والسلطان العثماني وفرار الاول ورجوع الثاني من بعد ان فقد معونة اعوان الامير الايراني وفرَّ القاص الى ديار بكر فقبض عليهِ حاكمها وسلمهُ الى اخيهِ فأمر باعدامهِ وقضى تهماسب كل ايامهِ في محاربة الاتراك من ناحية والتتر من ناحية اخرى وجعل مدينة قزوين عاصمة ملكهِ ومات في الرابعة والستين من عمرهِ بعد ان حكم نحو ٥٣ سنة وكان فطنًا حكيمًا شديد الميل الى الاسلام على الطريقة الشيعيَّة وهو اول من زارهُ سفراء الافرنج من ملوك ايران في ايام الدول الاسلاميَّة جاءهُ انكليزي اسمهُ جنكنسن من قبل الملكة اليصابات ملكة انكلترا يومئذٍ فسألهُ حال وقوع نظرهِ عليهِ بعد

ان ظلّ يستأذن بالمثول لديهِ ستة اشهر هل انت مسلم او كافر قال اني لست مسلماً ولا كافراً بل انا نصراني قال ليس بي من حاجة الى مخابرة الذين على غير ديني فرُح في سبيلك وخرج الرجل وقد تبعهُ ايراني يرش الرمل من ورائهِ في القصر حتَّى يعرف محل وقع اقدامهِ وينظف الدار بعد خروجهِ

وكان لتهماسب اولاد كثيرون ابعد اكثرهم عنهُ مدة حياتهِ او عينهم في الولايات القاصية ما خلا حيدر ميرزا وهو ابنهُ الثالث أَبقاهُ عندهُ واظهر لهُ الميل الكثير فاستولى هذا الامير على خزائن ابيهِ وعرشهِ ولكنهُ لم يحسن التدبير فضاع منهُ الملك بعد حين بدسيسة امرأَة ظنّ فيها الامانة فعملت على قتلهِ وهي اخت امير قبيلة جركس وكان اخوها ميالاً الى اسماعيل ميرزا رابع ابناء تهماسب فاستولى اسماعيل على الملك بمساعدتهِ من بعد اخيهِ ولم تطل ايام حكمهِ الَّتي قضاها في اتباع الشهوات حتى قام اهل خراسان ونادوا بمحمد ميرزا سلطاناً عليهم وكان هو اكبر اولاد تهماسب وبهِ ضعف في النظر اوجب اهمالهُ وتعيينهُ والياً على خراسان عدّ بمثابة النفي فأَرسل اسماعيل امراً بقتل محمد ميرزا واولادهِ وفي جملتهم عباس ميرزا وهو اصغر اولاد محمد وكان بالاسم حاكم خراسان فنجوا بطريقة غريبة ذلك ان الجلَّاد لم يشأْ اعدامهم في شهر رمضان وقبل ان ينصرم الشهر جاءت الاخبار بوفاة السلطان فنجا محمد ميرزا ونجا معهُ الطفل عباس وهو الذي صار بعدئذٍ أَشهر ملوك هذه الدولة كما سيجيء

وكان السلطان محمد ضعيف الرأْي قليل الادراك يعلم ذلك من نفسهِ ففوض الامر الى وزير عاقل اسمهُ سليمان ورأَى منهُ كل ما يحمد في اول الامر ولكن هذا الوزير شدَّد الوطأَة على بعض القبائل الَّتي ثارت على السلطان ودخل رؤساؤُها على ميرزا محمد فقالوا لهُ انهم يريدون تسليم الوزير

او يخربون السلطنة نخاف السلطان شرهم وسلمهم وزيرهُ فقتلوهُ ثم شق اهل خراسان الطاعة ونادوا بالامير عباس سلطاناً عليهم فقصدهم السلطان وحاربهم على غير جدوى. وانتهز الاتراك هذه الفرصة فهاجموا البلاد تحت قيادة البطل الشهير عثمان باشا وملكوا اذربايجان وما يليها بعد مقاتلات عنيفة فعاد السلطان محمد عن خراسان وبدأ بمناوشتهم ولحسن حظهِ مات عثمان باشا فارتدَّ الاتراك بعد ان نالوا الغنائم من البلدان التي ملكوها وكان حمزه ميرزا ابن السلطان محمد اميرًا باسلاً اقتفى اثر الاتراك وفعل الامور الكثيرة في بلادهم فلم يعد يمكن لهم العود الى مهاجمة ايران وحفظ مقام ابيهِ زماناً طويلاً فعاجلهُ الغادرون بايعاز من السلطان العثماني بطعنةٍ من يد قاتل في وسط غرفتهِ قضت عليهِ واسقطت مقام ابيهِ في الحال فتقدم ابنهُ عباس من خراسان على قزوين وما يجاورها وملكها وكان عباس في سن الصبا وهو يومئذٍ آلة في يد رؤساء القبائل الذين جعلوا تعضيدهُ واسطة لاعلاء كلمتهم ومنفعة انفسهم. وقتل السلطان محمد في اثناء الاضطراب فنودي بعباس شاه سلطاناً على ايران يوم كانت مشاكلها اكثر من ان تعد واضطرَّ الى عقد الصلح مع الاتراك حتى يتفرغ لمحاربة التتر وتقرير سلطتهِ في البلاد فبعد ان أخضع قبائل ازبك التي كانت تشنُّ الغارة على خراسان حيناً بعد حين وجه همهُ الى اسقاط كلمة الذين رفعوهُ الى العرش وحدث ان الخلاف كثر بين اولئك الرؤساء وقاموا على بعضهم البعض فقتل بعضهم في الحرب وامر عباس بقتل الباقين منهم فصار هو الحاكم المطلق في البلاد من بعدهم

وبعد ان فرغ عباس من اخضاع الثائرين في بلادهِ اظهر الانفة للاتراك فبدأت جيوشهم تتجمع على حدود ايران واسرع هو الى ملاقاتهم بخمسين

الف مقاتل وكان عدد الاتراك يومئذٍ مائة الف ولكن النصر تمَّ لعباس شاه بحسن تدبيره وارتدَّ الاتراك بالخسارة عن ارضهِ . وحدث في خلال حروبهِ مع الاتراك انهُ كان يتجسس ويتنسم الاخبار مع نفرٍ من اعوانهِ فرآهم ضباط من الاتراك ودعوهم الى مناولة الطعام وهم لا يعرفون ضيوفهم فقبل شاه عباس الدعوة واكل في معسكر الاتراك وهو يظهر الطرب والسرور ثم دعا اولئك الضباط من اعدائهِ الى زيارة معسكر الايرانيين ومناولة الطعام عندهم فقال الاتراك انهم يتمنون ذلك من صميم الفؤاد حَتَّى يقع نظرهم على عباس شاه الذي نال كل تلك الشهرة وهو شاب في اول العمر وجاء القوم الى معسكر الايرانيين فلحظ الاتراك حينئذٍ من اكرام اعدائهم لمضيفهم الشاب انهُ هو عباس بعينهِ وسرهُ انهم علموا ذلك ثم اكثر من اكرامهم واولم لهم الولائم وردهم الى اخوانهم فعظمت مهابتهُ في قلوبهم وقلوب بقيَّة الاتراك وظلوا كل مدة حياتهِ يجلون مقامهُ ويعتبرونهُ اعظم ملوك زمانهِ

وعادت قبائل التتر الى مهاجمة خراسان فارسل شاه عباس عليها جيشاً ردَّها وادَّبها تأديباً . وحدث في اثناء القتال ان المنجمين رأوا ما زين لهم ان السلطان سيقع في خطر عظيم فاعتزل شاه عباس الملك في الحال وانقطع في قصرهِ الى التأمل حَتَّى يقال انهُ مثل بقيَّة الناس ولا يصيبهُ ضرٌّ . وجاء اعوانهُ برجل من الفقراء اسمهُ يوسفي نصبوهُ سلطاناً واعطوهُ السلطة المطلقة مدة ثلاثة ايام فأمر ونهى ولم يعصِ احد الناس لهُ في خلال الايام الثلاثة امراً حَتَّى اذا انقضت قاموا عليهِ وقتلوهُ شرَّ قتلة وأُعيد عباس الى منصبهِ الخطير وقد اطمأنت النفوس وحكم المنجمون ان قد زال الخطر . فلما هدأ روع الناس بدأ عباس يفتكر في نهاوند وتبريز وتفليس وغيرها من المدائن الايرانيَّة التي

اختلسها الاتراك وعزم على استرجاعها فجمع العساكر ورأى في الحال انهُ ينقصهم التدريب والنظام لانهُ رأى ان عساكر الاتراك كانت أنظم من عساكرهِ وجاء ايران لحسن حظهِ في ذلك العام اثنان من اكابر الانكليز (هما السر انتوني شرلي واخوهُ السر روبرت شرلي) وكان اكبر الاخين قد جاء المشرق ليساعد احد الامراء في حربهِ مع عساكر البابا فوصل محلهُ بعد انقضاء الامر ولم يشإِ الرجوع الى بلادهِ بدون ان يترك لهُ ذكرًا . وعرج على ايران مع رفقائهِ وهم خمسون فارسًا من اصحاب البسالة واليسار فأمر عباس باستقبالهم واكرامهم وقربهم منهُ واجزل لهم العطايا واستشار السر انتوني كبيرهم في امر الحروب مع الاتراك فأشار عليهِ بتعليم جنودهِ مبادئ العلوم العسكريَّة وبمحالفة دول اوربا على الاتراك فرضي شاه عباس بقولهِ وانتدبهُ سفيرًا لينوب عنهُ امام حكومات اوربا في عقد الصلح واعطاهُ فرمانًا بذلك يدل على ثقتهِ التامة بهذا الشريف الانكليزي . وظلَّ السر روبرت شرلي في قزوين يدرب عساكر عباس شاه ويعلمهم ما يلزمهم لاتقان فن الحروب فكان ذلك سببًا في انتصارهم على الاتراك

وسافر السر انتوني شرلي بمهمتهِ فنجح فيها ووجد معظم دول اوربا ميالة الى محالفة ايران على الاتراك . ثم ان عباس شاه تساهل تساهلاً لم يسبق لهُ نظير مع الافرنج والمسيحيين اجمالاً واصدر منشورًا الى رعاياهُ يقول لهم فيهِ ان النصارى اصدقاؤهُ وحلفاء بلادهِ وانهُ يأمرهم باحترامهم واكرامهم أين حلوا . وفتح مين بلادهِ لتجار الافرنج واوصى ألاَّ تؤْخذ الرسوم على أبضعتهم وألاَّ يتعرض لهم احد الحكام او الاهالي بسوء وهو اول من فعل مثل هذا من سلاطين المسلمين في بلاد ايران

ولما تمت هذه الامور واستعدّ الجيش الايراني لملاقاة الاتراك زحف عباس شاه بعساكره على نهاوند فدكّ حصونها دكًّا واخذها من الاتراك وعدّ ذلك من اعظم اعمالهِ . ثم تقدم على تبريز وتفليس وغيرها من الانحاء الشماليَّة فحارب الاتراك فيها مع ان عساكرهم كانت تقدَّر بضعفي عدد عساكرهِ وكسرهم شر كسرة وملك تلك البلاد منهم واوقع الرعب في قلوبهم . وظلَّ عباس شاه من بعد تلك المواقع يرد شيئًا بعد شيءٍ ممَّا اخذهُ الاتراك من مملكة ايران القديمة حتى استرجع كل بلاد اذربايجان وشطوط بحر قزبين وبلاد الجراكسة وبغداد والموصل وديار بكر وكردستان وكل ما يليها

وجعل عباس شاه اصفهان قاعدة ملكهِ وقرَّر الامن في البلاد ونظم احوالها واحسن التدبير في كل امورها من بعد نصراتهِ المتوالية على التتر والاتراك حتى خطت البلاد في ايامهِ خطوة واسعة في سبيل العظمة والتقدم سيما بعد ان كثرت متاجر الافرنج في ايران وكثر تردد التجار والسائحين منهم على بلادهِ . وكانت علاقاتهُ طيبة مع كل الدول الاوربيَّة ومع سلطان الهند ايضاً ولم يحارب احدى الدول الافرنجيَّة الاَّ مرة ذلك ان الهولانديين انشأُوا مستعمرة زاهية زاهرة في جزيرة كمبرون في خليج العجم وكان عباس شاه يسمع بها وبكثرة موارد اليسار فيها فلم يرق لهُ ان تكون لدولة غريبة وهي في مياه بلادهِ ولكن جزيرة (ارموس) التي عمرها البورتغاليون وجعلوها مقرَّ تجارتهم في الشرق فاقتها في النموّ وكثرة المعامل فوجه عباس شاه همهُ الى امتلاكها واتفق مع حكومة الهند الانكليزيَّة وهي يومئذٍ في يد شركة تجاريَّة على اخراج البورتغاليين منها واعطائهم امتيازات تجاريَّة واعانة ماليَّة عاماً بعد عام وتمَّ لهُ الامر على ما يريد فان الشركة الانكليزيَّة جاءت لهُ بسفن اوصلت

عساكرهُ الى الجزيرة فدمروها تدميرًا وخربوا معاملها واخرجوا البورتغاليين منها وملكها عباس ولكن اهل ايران لم يحسنوا ادارة ما فيها من المعامل فخربت واقفرت الجزيرة ولم يستفد السلطان ولا الانكليز من هذا العمل. وكثر التواد بين الانكليز وحكومة ايران في ايام الشاه عباس حتى ان انكلترا ارسلت سفيرًا الى ايران لقي من سلطانها كل حفاوة واكرام . وشاد عباس شاه الصروح الفخيمة وزين المدائن وامر بالعدل وترك ما يخلد لهُ الذكر من الآثار العظيمة في البلاد منها آثارهُ في اصفهان الّتي ليس لها مثيل في بلاد الشرق وهو من اعظم سلاطين المشرق واشهر ملوك ايران لم يقم فيها واحد اهتمَّ اهتمامهُ باصلاح شؤُونها ولمّ شعثها واقامة الآثار فيها حتّى ان الاهالي يطلقون عليهِ اسم عباس شاه الكبير ويظنون الآن ان كل ما في ايران من الآثار القديمة بني في ايامهِ

غير ان شاه عباس اشتهر بالقسوة الهائلة ايضاً اشتهارهُ بالحكمة والبسالة وحب التقدم لبلادهِ فقد كان يشدد الوطأة على الولاة والامراء الذين تبدو منهم هفوة توجب العقاب ولكنهُ اشتهر ايضاً بملاينتهِ لقوم من الارمن رحلوا الى بلادهِ وكانوا اصحاب المتاجر والصنائع فيها فاظهر بذلك اقتدارهُ العجيب وبعد نظرهِ لان هؤُلاء القوم كانوا واسطة جلب الثروة الى بلادهِ . وهو الذي بنى لهم مدينة في ضواحي اصفهان عاصمة ملكهِ المساة بجلفا وانعم عليهم بكل التفات كبير. واشتهر اكثر من ذلك بحسن معاملتهِ للمسيحيين من كافة الاجناس فقد كان السر روبرت شرلي الذي مرَّ ذكرهُ من اعظم المقربين اليهِ حتى صار بيتهُ ملاذ الغرباء من سائر الاقطار . وانعم عليهِ عباس شاه بفتاة چركسيّة رزق منها اولادًا وكان عباس شاه عراب اولهم وليس في التاريخ دليل اكبر من هذا

على التساهل في حريّة الاديان . واشتهر عباس شاه ايضاً بفئة من الجنود انشأها ونظمها على نسقٍ جديد لتكون على شاكلة الانكشاريّة عند الاتراك وقرب هذه الجنود فلاشي بذلك سطوة الجنود القديمة الّتي تعاظم شرها وكثر ضرها

ولكن اشهر ما يقال عن عباس شاه الكبير غير ايصالهِ السلطنة الى اعلى درجات العز هو انهُ كان من اقسى اهل الارض على اولادهِ واهل بيتهِ . وقد كان لهذا السلطان العظيم اربعة اولاد هم قرة العين وكان ولعاً بهم مغرماً بملاعبتهم الى ان شبوا وصار يرى الناس يعظمونهم حسب عادتهم في تكريم الامراء فداخلتهُ الشكوك وبدأ يخاف من اولادهِ ويسيء معاملتهم ثم مات في مدينة فرح آباد في السنة السبعين من عمرهِ بعد ان حكم السلطنة ٤٣ سنة وكان من يوم ولايتهِ حاكماً على خراسان وهو من اعظم ملوك ايران واشهرهم واعدلهم

واستلم شاه صفي الثاني زمام الملك من بعد عباس الكبير وهو حفيد هذا السلطان العظيم وملك ١٤ سنة وكان ظالماً عاتياً سفاكاً للدماء لاهم لهُ غير الاشتغال بقتل الابرياء حتّى لم يبقَ لكبير او امير في كل بلاد ايران امان على نفسهِ في مدة هذا الظالم وقتل من اعضاء العائلة المالكة ما بين نساء ورجال حوالي ثلثين شخصاً بلا ذنب يعرف غير خوف هذا الظالم منهم . وانتهز الاعداء فرصة موت عباس فعاد قبائل التتر الى الهجوم على خراسان ونهب اموالها ولكن جيوش هذا السلطان ردتهم خاسرين . وتقدم السلطان مراد العثماني على آذربايجان بجيش عظيم وملك تبريز ونواحيها . وقامت بلاد گيلان على شاه صفي فنجح في ردها الى الطاعة واظهر في الحرب شيئاً من البسالة ولكن الامر الذي اشتهر فيهِ شاه صفي هو الفتك بامراء بلادهِ وقوادها وقتل الرجل بلا موجب

حَتَّى ان بعض المؤرخين يذهبون الى انهُ كان يفعل ذلك عن سياسة اخذها عن والدهِ هي انهُ يهلك الاكابر الذين يخشى بأسهم ويولي مكانهم اناساً من عبيدهِ ومماليكهِ . وانغمس هذا الملك الخامل في الشهوات وسلم الادارة كلها الى وزرائهِ الذين كان يأمر بقتلهم لاقل علة ثم مات في مدينة كاشان وخلفهُ ابنهُ عباس الثاني وهو في العاشرة من عمرهِ

وتولى الامر في مدة صغر هذا السلطان الوزراء وكانوا من اصحاب العقل والذمة واشتهروا بالفضائل والتقوى فأمروا بابطال شرب الخمرة من القصر وشددوا في عقاب الذين يسكرون وكان السكر رذيلة عمت في ايام عباس شاه وحفيدهِ . وأُعطي الناس حريَّة الاديان الى درجة لم يسبق لها نظير في ما مرَّ وتمتع الاوربيون بنعمة السلطان فكان تجارهم يحضرون مجلسهُ ويروون الامور عنهُ ومعظم ما قيل عن تاريخ ايران من بعد ايام عباس شاه منقول عن كتب الافرنج . ولما بلغ عباس الثاني اشدهُ تولى الامر بيدهِ فأفرط في التمتع باللذات وعاد الى المسكر فارتكب الهفوات الكثيرة واسقط مقام الملك ولكنهُ لم يصل الى درجة ابيهِ في ذلك وكان وديعاً طيب القلب لم يأتِ امرًا نكرًا الاَّ في مدة استيلاء الخمرة على عقلهِ . واسترجع الايرانيون في ايام هذا الملك مدينة كندهار وكان صفي شاه قد اضاعها في ايامهِ المعيبة. واظهر عباس الثاني سياسةً واقتدارًا في معاملة قبائل التتر الَّتي كانت تغزو خراسان عاماً بعد عام ذلك ان احد الامراء من القوم التجأَ اليهِ فاكرمهُ عباس وانعم عليهِ بالمال الكثير ونصرهُ على خصمهِ فجعلهُ واهل بيتهِ عبيدًا للدولة الصفويَّة واراح البلاد من غزواتهم مدة طويلة . وعقد عباس الصلح مع الاتراك من اول حكمهِ فلم تحدث الحرب بين البلادين كل مدة ملكهِ السعيد . ونمت

المتاجر وتقدمت العلوم والصنائع ورتعت البلاد في بحبوحة الامن والراحة كل ايام هذا الملك وتقاطر الافرنج على البلاد وجاءها سفراء الهند والدول الاوربيّة من كل صوب بنفيس الهدايا وكانت علاقة الدولة الايرانيّة حسنة مع كل هذه الدول واعمالها في رواج ونجاح . ومات عباس الثاني في الرابعة والثلاثين من عمرهِ بعد ان حكم ايران نحو ٢٥ سنة كانت كلها اعوام صفاء ورخاء لم ترَ البلاد افضل منها . ولم يكن لعباس عيب غير الافراط في شرب الخمرة بعض الاحيان الاَّ ان ذلك لم يؤثر في بلادهِ ولم يتعب منهُ غير بعض الاخصاء . واشتهر عباس الثاني بشيء من القسوة في معاملة الوزراء والقواد وبالشفقة والحنوّ الكثيرين في معاملتهِ الفقراء والبسطاء من الاهالي وفي احترام الاجانب واعتبار حريّة الاديان الى درجةٍ لم تروَ عن غيرهِ من ملوك هذه الدولة العظيمة

وكان لعباس الثاني ابنان احدهما صفي ميرزا والثاني حمزه ميرزا وهو يومئذٍ طفل في السابعة من عمرهِ فلما توفي هذا السلطان عقد اكابر سلطنتهِ مجلساً واقروا فيهِ على تنصيب حمزه ميرزا الصغير بدعوى ان صفي ميرزا كان فاقد البصر لا يليق للملك والصحيح انهم ارادوا بذلك ان يكون السلطان في قبضة يدهم فسمع بذلك خصي اسمهُ مبارك آغا كان هو الموكل بتربية حمزه ميرزا وظن الناس ان ارتقاء مولاهُ الى سرير الملك احب الامور اليهِ الاَّ ان هذا الخصي اظهر مروءة وشهامة محت ما لطائفة الخصيان من العيوب ذلك انهُ اجتمع بهؤلاء الاشراف وخطب فيهم خطاباً بليغاً بالغاً منتهى الفصاحة والحماسة واظهر لهم انهم حادوا عن جادة الحق والانصاف واتوا ما لا يرضي الله ولا يوافق العدل في قرارهم هذا وانهُ لا يسلم معهم بهذا الظلم وحرمان وليّ

العهد من السلطنة بلا داعٍ غير حب الاستيلاء على عقل الملك . ثم حذرهم من العواقب واعلنهم انهم اذا لم ينقضوا قرارهم اضطروهُ الى خنق الطفل وقتل نفسهِ من بعد ذلك فيصير الملك الى صاحبهِ الشرعي وينتقم صفي ميرزا من كل امير خانهُ . وانسحب مبارك آغا بعد ذلك من الجلسة فذهل الامراء لهذا الامر ذهولاً وخافوا العاقبة ثم قام رئيس الوزراء نخطب فيهم بما معناهُ ان صفي ميرزا ليس بفاقد البصر كما كانوا يتوهمون فهم مضطرون شرعاً الى تسليمهِ الملك ووافقوهُ الباقون على ذلك فانتهت الدسيسة ورقي هذا الامير عرش اجدادهِ العظام بسعي احد الخصيان وشهامتهِ فاراد ان يكافئهُ في الحال ورفض الخصي المناصب حتَّى لا يزاحم الامراء عليها وافضل ما يروى عن هذا السلطان انهُ لم ينتقم من الاشراف على خيانتهم ودسيستهم هذه

واتخذ صفي ميرزا يوم رقي عرش السلطنة اسم شاه سليمان ولم يحدث في ايامهِ ما يوجب الذكر غير انهُ كان خاملاً ضعيف الرأي ولعاً بالانغماس في الملذات والشهوات شأن كل اميرٍ ربي في قصور الحريم مثلهُ وعلم الناس منهُ ذلك فصاروا يتقربون منهُ باهداء الخمور والمسكرات وعادت القلاقل في ايامهِ والثورات على اطراف المملكة لم يردها غير حكمة علي قلي خان وزيرهُ الحكيم وكان هذا الوزير جليل القدر مهاباً كثير الفضائل شديد التقوى نهى السلطان عن شرب المسكر مراراً فلم ينتهِ . وحدث ان السلطان سليمان هذا كان في احد الايام يسكر فجاء بوزيرهِ الجليل وامرهُ بالجلوس بين الندماء والاشتراك معهم في السكر فرفض الوزير الامر واصرَّ السلطان على انفاذهِ حتى انهُ ناولهُ شيئاً من الافيون بيدهِ فاضطرَّ الشيخ الى الطاعة واخذ الافيون فسكر منهُ ووقع الى الارض وقد فقد الشعور وفرح السلطان والندماء بحالهِ

هذا فجعلوا يسرون ويطربون ثم جاؤوا بموسى وحلقوا ذقنهُ وهو لا يشعر بذلك فلما افاق وعلم ان الذي اصابهُ بأمر الملك اشتدَّ غيظهُ وترك الوزارة فأرسل اليهِ السلطان يدعوهُ مرارًا وهو لا يطيع الامر ويؤثر القتل على العود الى مجالسة هذا السلطان حتَّى وقعت البلاد في الاضطراب ورأى الوزير ان الذمة توجب عليهِ اعطاء الرأي فعاد الى السلطان فقام لهُ السلطان هاشًّا باشًّا واقسم لديهِ انهُ لن يتعاطى المسكر بعد ذلك ولكنهُ حنث بأيمانهِ وعاد الى سابق اموره . غير ان البلاد كانت ناجحة في ايامهِ وسارت في سبيل الارتقاء وعاش الاهالي في الهناء والراحة زمانًا طويلاً وكثر اختلاطهم بالافرنج من سائر الاجناس . ومات السلطان سليمان في الثالثة والاربعين من عمرهِ فخلفهُ ابنهُ حسين شاه

وكان السلطان حسين طيب القلب سليم النيَّة كثير الفضائل شديد التمسك بدينهِ فأمر حال صعودهِ بابطال السكر وكسر آنية الخمر التي وجدها في قصورهِ وقرَّب المشايخ والعلماء فاعطاهم المناصب العالية وحرم الامراء والقواد منها ولم يكن لهُ همٌّ غير العيش في الراحة والصفاء فظلت البلاد عشرين عامًا في ايامهِ متمتعة بالراحة وقد كانت ايران في عزٍّ وأمن من بوائق الايام حتَّى ايام هذا السلطان الذي كانت فضائلهُ واسطة في اماتة البسالة والشهامة من صدور الايرانيين وادت الى سقوط دولتهم ووقوع بلادهم في قبضة شرذمة من البرابرة واهل الغلظة حين امتلكها الافغان بقوة يسيرة كما سيجيء في الفصل القادم وكان السلطان حسين آخر ملوك الدولة الصفويَّة الشهيرة



الغارة الافغانية

افغانستان بلاد جبليَّة الى الجهة الشرقيَّة من ايران متاخمة لنهر الهند المسمى (پنجاب) وقد كانت في أكثر الاحيان تابعة لاحدى المملكتين العظيمتين المجاورتين لها ولم تستقل بنفسها الاَّ في ما ندر . واهلها يختلفون في شكلهم وهيئتهم عن الامم الهنديَّة والايرانيَّة يذهب أكثر مؤرخي الاسلام ان اصلهم يهود من الذين سباهم نبوخذ ناصر الى بابل ثم اراد ابعادهم الى اقصى ممالكهِ فارسلهم الى هذه البلاد القاصية ولكن ذلك غير مثبت بالادلة بل هم بقايا قوم البرثة وبلادهم قطعة اصليَّة من ولاية خراسان

وكان الافغانيون في ايام عباس شاه وما بعدهُ قسمين او حزبين هما الحزب الغليجائي والحزب الابدالي ولما ملكهم هذا الفاتح العظيم لم يرَ منهم مقاومة تذكر الى ان اشتدت وطأة الحاكم الذي عينهُ عليهم فذهب احد امراء الابداليَّة واسمهُ سدو الى اصفهان ليلقي امر بلادهِ الى عباس شاه ويحاول انقاذها من ظلم الولاة وحظي بمقابلة هذا السلطان العظيم فشرح لهُ حكاية بلادهِ ورجاهُ ان يخلصها من يد الظالمين ووعدهُ برضوخ الاهالي بلا معارضة الكل حاكم يوليهِ عليهم على شرط ان يكون من اهل الانصاف والذمة فسمع عباس شكواهُ وامر بانصاف بلادهِ ثم سرَّ من فصاحة سدو في المقابلات الاخرى ومن نبالة مقاصدهِ فعينهُ واليًا على افغانستان واعطاهُ فرمانًا بذلك جعلهُ في مقام الامراء المستقلين تحت سيادة سلاطين ايران وفرح اهل افغانستان بذلك فرحًا عظيمًا فجعلوا طاعة سدو واولادهِ من بعدهِ فرضًا واجب الاداء عليهم وهم

الى الآن يعتبرون السدوزيّة او نسل سدو من اهل الكرامات الذين لا تمد يد السوء اليهم ولا تجوز معاقبتهم او الانتقام منهم على جناية وان تكن جناية القتل بنفسها وساد السلام على بلاد الافغان كل مدة عباس شاه الطويلة ولكن القلاقل كثرت من بعدهِ بسبب الحروب الّتي تواصل شرها بين سلاطين الهند وايران على امتلاك هذه الامارة وكان اهلها يميلون الى الايرانيين اكثر من الهنود ولكنهم يجتهدون ما امكن في حفظ استقلالهم من الطرفين

واما الغلبجائيّة من اهل افغانستان فكانوا اشد ميلاً من الابداليّة الى الاستقلال وهم الذين استوطنوا كندهار وما يليها من تلك البلاد وظلوا يعاندون الدولة الايرانيّة حتى حار وزراء ايران في امرهم وقرّ رأيهم في ايام السلطان حسين الذي ذكرناهُ وهو آخر سلاطين الدولة الصفويّة على تعيين والٍ شديد العزم كثير الاقدام ليحكم بلادهم فانتدبوا لذلك كركين خان وكان اميرًا باسلاً مقداماً لا نظير لهُ بين قواد تلك الايام وهو مسيحي وكان والي كرجستان او بلاد الكرج فحاول الاستقلال بتلك الامارة ولم ينجح ثم اعتنق الدين الاسلامي فصفح حسين شاه عنهُ وعينهُ لهذه الوظيفة في افغانستان لما عرف عن اقدامهِ وشهرتهِ في الدراية والجرأة . فتقدم كركين خان على هذه البلاد بعشرين الف مقاتل من الايرانيين ونخبة من ابطال اهل بلادهِ وكان لقدومهِ ابهة وهيبة جعلت الرضوخ لامرهِ محتماً فلم تبدُ اقل معارضة من الافغانيين في الخضوع لهُ ولكنهُ اساء معاملتهم في الحال واعتبرهم كلهم من العصاة والمارقين فأطلق السراح لعساكرهِ ومن معهُ في ابتزاز المال منهم وظلمهم فاستغاث الاهالي من ظلم هذا الوالي بالسلطان وبعثوا بالوفود من مشايخهم الى اصفهان ليعرضوا حال البلاد وما صارت اليهِ على حسين شاه ووجد هؤلاء المندوبون

ان الوصول الى السلطان من أعسر الامور ولكنهم تمكنوا في آخر الامر من نوال بغيتهم وكان اصحاب گرگين خان قد سبقوهم الى القصر وافهموا السلطان اموراً غيرت افكارهُ فيهم فلما سمع شكواهم اجابهم بما معناهُ انهم عصاة كاذبون وان ثقتهُ بالوالي عظيمة وتهددهم بكل عقاب صارم اذا عادوا الى مثل هذا التشكي فعاد المندوبون الى بلادهم وقد امتلأت صدورهم حنقاً وغيظاً وبسطوا الامر لاخوانهم فكثر الحقد وتعاظم الشر وعزم الافغانيون من ذلك اليوم على الخلاص من ايران وحكومتها

ولما علم گرگين خان بما كان من الاهالي وقيامهم للشكوى عليهِ عزم على البطش بهم والانتقام منهم فوجه همهُ في اول الامر الى اذلال امرائهم واكابرهم وكان اشهر اسيادهم يومئذٍ الامير ويس وكان شاباً جميل الملامح كثير الرقة والذكاء وهو من أشهر عائلات الافغان يعد عندهم حاكم كندهار الشرعي والناس كلهم يجلون قدرهُ لما اتصف بهِ من حميد الخصال وما ظهر من اقتدارهِ وقوة تدبيرهِ فعزم گرگين على التخلص منهُ لانهُ كان زعيم القوم ولهُ بأس وسطوة عظيمة فقبض عليهِ في احدى الليالي بدعوى تآمرهِ على سلامة السلطنة وارسلهُ مكبلاً بالقيود الى اصفهان وكتب الى السلطان يقول ان هذا الامير هو زعيم العصاة والذين يدبرون للمملكة المكايد وانهُ ما دام في اصفهان فلا خوف على البلاد من اعوانهِ واما اذا عاد الى افغانستان فلابدَّ من الثورة العظيمة . واخطأ گرگين بارسالهِ هذا الامير البارع الذكي الى اصفهان لان الامير ويس تمكن بدهائهِ من معرفة الاحوال حال وصولهِ الى اصفهان ورأى ان المقربين الى السلطان قسمان قسم يميل الى گرگين خان وقسم عليهِ فاتفق في الحال مع اعداء گرگين وتمكن بواسطتهم من اكتساب نفوذٍ عظيم وقرب

كثير من السلطان . وتمكن الامير ويس من مقابلة السلطان بعد ان استمال الوزراء بالرشوة او باللطف فبسط لهُ حكاية كرگين وظلمهُ وشكى مرّ الشكوى ممّا اصابهُ واصاب اهل بلادهِ

وكان ويس فصيحاً طلق المحيا فسحر حسين شاه واستمالهُ اليهِ وصار هذا الامير الافغاني من اشهر المقربين الى السلطان بدلاً من ان يكون اسيرًا يعامل معاملة الاعداء والمبغضين ومن ثم اخذ هذا الامير في تدبير ما يريد وكان في اول الامر يفكر في الاستقلال بامارة بلادهِ ولو انهُ شاء ذلك لتمكن من مرادهِ بما نال من الحظوة ولكنهُ كان سريع النظر بعيدهُ فلحظ ان بلاد ايران صارت متداعية الى السقوط وان الدولة الصفويّة هرمت وعوّل من ذلك الحين على السعي في قلب الدولة وامتلاك ايران وبدأ بكرگين خان فطفق يسعى على قتلهِ او خلعهِ ولكنهُ لم يستعجل في الامر وكان كثير التأني في اعمالهِ حكيماً في تدابيرهِ نخطر لهُ انهُ لا يقوى على مثل ما يريد بغير الدعوى الدينيّة وطلب من حسين شاه ان يسمح لهُ بزيارة مكة المكرمة بعلة الشوق الى اداء فريضة الحج وهو ينوي غير ذلك وغاب عن السلطان حسين ما يضمرهُ هذا الامير فاذن لهُ بما يريد حتى اذا وصل الافغاني الى استامبول واجتمع بالوزراء والعلماء وشرح لهم الحالة وما يقاسونهُ اهل السنة من العناء كل ذلك دهاء منهُ ليأخذ فتوى شرعيّة لاباحة دم الفرس ورفع نير بيعتهم عن اعناقهم فنجح في الامر ثم رحل الى مكة المكرمة واجتمع باكابر السادة والعلماء من اهل السنة فيها فافتوا لهُ ان الشيعيين لا يليقون للاحكام وانهُ يجب خلعهم واخفى الامير ويس هذه الفتوى معهُ الى حين اللزوم ثم عاد الى اصفهان وهو موقن بالظفر ولكن لايعلم غيرهُ ما في ضميرهِ هذا سر نجاح

هذا الامير لان بلاده في تلك الايام كانت مأهولة بأهل السنة وهم في غاية التعصب وما عدا تلك الولاية عموم الايرانيين كانوا على مذهب الشيعية الاثني عشرية الجعفرية

ولما وصل الامير ويس اصفهان ساعدته التقادير على ما يريد ذلك ان قيصر الروس عين يومئذٍ سفيرًا له في اصفهان اسمهُ اسرائيل اوري عينهُ بطرس الاكبر لهذه الوظيفة لانهُ كان ارمنيًّا من اصحاب الاطلاع على احوال الممالك الشرقيَّة ولهُ معرفة باللغة الايرانيَّة وغيرها فجاء هذا السفير بابهة عظيمة ومعهُ الاعوان يعدون بالمئات واشاع في الحال انهُ من ابناء ملوك ارمينيا القدماء وكان الايرانيون يومئذٍ يحسبون لدولة الروس ومطامع بطرس الاكبر حسابًا فهالهم امر هذا السفير وشاع بينهم انهُ سيصير ملكًا فخافوا ان يصير ملك بلادهم ووصلت الاشاعة الى الامير ويس فسرَّ بها سرورًا زائدًا وقام في الحال الى السلطان حسين وقد اظهر الاهتمام العظيم وقال لهُ ان قيصر الروس ينوي ضم هذه البلاد الى املاكهِ وان اهل كرجستان وارمينيا يساعدونهُ على ذلك بدليل ان هذا السفير ارمني وهو من ابناء الملوك ينتسب الى كركين خان واصلهُ نصراني وان كركين ما فتئ يفكر في الاستقلال والعود الى بلادهِ حاكمًا واميرًا وبدأ يسرد للسلطان حسين الادلة على ذلك ويبين لهُ قوة كركين وغاياتهِ حتى صدق السلطان كل تلك الحكاية واوجس خوفًا من كركين وتدابيرهِ فعزم على خلعهِ في الحال ولكنهُ خاف عاقبة التهور فشاور وزراءهُ فأشاروا عليهِ بارجاع الامير ويس الى افغانستان وجعلهِ رقيبًا على كركين وقبل السلطان بهذا الرأي الساقط فأوعز الى ويس بالقيام الى وطنهِ وقام ويس وصدرهُ قد امتلأ فرحًا وحبورًا على حين انهُ كان يظهر

عدم الرضى من هذا الامر

ولما وصل ويس الى كندهار وعرف كركين خان بالحكاية بلغ الغيظ منهُ مبلغاً عظيماً حتى انهُ عوَّل على الفتك بهِ في الحال ولو ادى ذلك الى اوخم العواقب . وكان للامير ويس ابنة بارعة في الجمال نادرة المثال فسمع كركين بآيات جمالها وتمنى ان تكون زوجةً لهُ نخطر في بالهِ ان يقترن بالفتاة قسرًا فينال منها غايتهُ ويذلُّ اباها وبعث الى الامير ويس امرًا لا يقبل الرد ولا التردد مفادهُ ان يرسل اليهِ ابنتهُ في الحال فعظم الامر على الامير واجتمع باهل طائفتهِ واكابر عشيرتهِ وبسط لهم الحكاية فهاجوا وماجوا واكثروا من التهديد والوعيد سيما وان اهل افغانستان يغارون غيرة هائلة على العرض ويعتبرون البنات الاحرار فاتفقت آراؤهم على البطش بالحاكم الذي اراد اذلال اميرهم وهتك عرضهِ واقسموا اغلظ الاقسام انهم يموتون في سبيل الدفاع عن اميرهم وابنتهِ ولكن الامير اوصاهم بالتعقل والصبر وافهمهم انهُ ينوي الانتقام من هذا الحاكم ومن كل واحدٍ سواهُ من اعداء بلادهم غير انهُ يأْتي الامور بعد التبصر والتروي فعاهدوهُ على الولاء واقسموا لهُ بالخبز والملح وبالقرآن الشريف وبالطلاق ايضاً انهم يثبتون على ولائهِ حتى يموت الكل عن آخرهم ثم صرفهم وهو يوصيهم بالحرص وكتمان السر وبعث الاعوان في كل جهة يخبر اهل بلادهِ بعزمهِ ويوصي ابطالهم بالتجمهر في نواحي كندهار والتربص ريثما يرى ما الذي يكون من كركين خان بعد ذلك الامر فلم تمضِ ايام حتَّى ارسل اليهِ الوالي امرًا ثانياً بارسال الصبيَّة مع التهديد والوعيد فاظهر ويس الطاعة واخفى الكمد وصرف اعوان كركين على ان الصبيَّة تصل في ذلك المساء .

وكان في قصر هذا الامير خادمة تشبه ابنتهُ في جمالها وقامتها وهي من سنها

فألبسها الملابس الفاخرة وامرها ان تدَّعي انها ابنتهُ وتقترن بالوالي ولا تبوح بالسر فرضيت الخادمة بهذا النصيب وهي لا تعلم ما الذي يتم من ورائهِ ثم ارسلها الاميرويس بأفخر الحلل وابهة عظيمة الى بيت الوالي وزفت الى كركين ففرح بها فرحاً كبيرًا وسرَّهُ ايضاً رضوخ ويس لامرهِ فأظهر الرضى عنهُ وقربهُ ولم يمضِ الَّا القليل حتَّى صار الامير ويس من اخصاء كركين واصحابهِ يجتمع بهِ كل يوم ويتحدث معهُ في الامور الهامة . وظلَّ على ذلك زمانًا وكركين لا يحسب للشر حساباً ولما احس ويس باتمام الامر دعا خصمهُ الى وليمة فاخرة في احدى جنائنهِ ودعا معهُ الاخصاء والاعوان من الحكام الذين كان الافغانيون يكرهونهم فقبلوا الدعوة وجاؤُوا الحديقة واكلوا وشربوا وطربوا حتَّى اذا دارت الخمرة في الرؤُوس اشار ويس الى اصحابهِ بالذي كان ينويهِ وكان قد احاط البلدة كلها بأعوانهِ وجاء بنخبة من الابطال فاخفاهم في انحاء الحديقة فلما سكر الوالي ومن معهُ وصدرت لهم الاشارة من ويس هجموا على ضيوفهم وقتلوهم عن آخرهم ثم تردوا بملابس المقتولين وذهبوا ليلاً الى سراي الحكومة وقلعتها فدخلوها والحراس يظنونهم كركين واصحابهُ ثم نادوا في اعوانهم ممن كانوا في كندهار وحولها فأعملوا السيف في عساكر السلطان حسين وقتلوا اكثرهم في مدة يومين ثم شرعوا بقتل من استوطنوا في الولاية من الفرس ومن تمذهب من الافغانيين بمذهب الشيعة وكانوا جمهورًا غفيرًا وهكذا تمَّ انسلاخ افغانستان عن بلاد ايران وبدأ امراء هذه البلاد الصغيرة يفكرون في ضم بلاد ايران الى امارتهم. ولم ينجُ من كل جيش كركين غير ستمائة چركسي اتوا المعجزات في محاربة اهل افغانستان ومكافحتهم حتَّى تمكنوا من الفرار الى بلاد خراسان

وبدأ ويس بعد ذلك باتخاذ الطرق التي تمكنهُ من حفظ مقامهِ واستقلال بلادهِ حتى انهُ نادى في قومهِ يحرضهم على النخوة والبسالة وصرح لكل من اراد العود منهم الى الخضوع لحكم الايرانيين ان يرحل عن البلاد بلامعارضة ثم انهُ احسن معاملة الاهالي والغرباء الساكنين في مدينة كندهار وما يليها وجعل يستعد للهجوم على بلاد ايران . فلما بلغ السلطان حسين وحاشيتهُ ما كان من امرهِ ترددوا في اشهار الحرب ثم ارسلوا الى الامير سفيرًا ليحضهُ على ترك العداء فلما وصل السفير الى كندهار أُلقي القبض عليهِ حتَّى يوسع الخرق بين ايران وافغانستان ويمنع السفير من مواجهة الاهالي وتدبير الدسائس . وكان ويس قد نشر على الناس تلك الفتاوي التي جاء بها من مكة والقسطنطينيَّة ضد الشيعيين وزعمائهم فلما علم اهل البلاط في اصفهان بذلك وبسجنهِ للسفير ارسلوا اليهِ سفير آخر كان صديقهُ ورافقهُ في سياحتهِ الى الحجاز هو محمد خان حاكم هرات فلما وصل هذا المعتمد الى ويس رأى منهُ العزم التام على العدوان وخاطبهُ الامير بما معناهُ ان لو لم تكن صديقاً لي لاذقتك العذاب المهين على هذه الرسالة التي جئت بها اليَّ فانك تعرض علينا ان نعود الى الرق والخضوع لنير الايرانيين ولكن اعلم ان سيوفنا سلَّت للحرب وهي لا ترد الى غمدها حتى تكون مملكة ايران كلها في قبضتنا ثم القى القبض عليهِ وسجنهُ ولكنهُ لم يسئ معاملتهُ

ولما رأى السلطان حسين واعوانهُ ان لا بد من القتال اوعزوا الى حاكم خراسان ان يبدأ بمقاتلة الافغانيين فصدع الحاكم بالامر ولكنهُ لقي ما لم يكن في الحساب من جرأة الاعداء واستعدادهم للحرب وكسر في موقعةٍ جرت لهُ معهم . وبلغ الخبر اصفهان فامر السلطان بجمع كل قوات السلطنة وجيش جيشاً

عظيماً جعله تحت قيادة خسرو خان والي كرجستان وهو ابن اخي كركين خان الذي قتله ويس على ما مرّ وكان هذا الوالي بطلاً مقداماً يتمنى محاربة الافغانيين حتَّى ينتقم منهم على قتل عمهِ. وتقدَّم هذا الجيش الجرار على مواقع الافغانيين فطردهم منها وبان لهُ وجه النصر فزحف على مدينة كندهار وحاصرها زماناً حتَّى اذا احسَّ اهلها بقرب الخطر عرضوا التسليم لعساكر السلطان على ان تحفظ ارواحهم واملاكهم فلم يرضَ خسرو خان بذلك وامرهم ان يسلموا بلا شرط فكبر عليهم ذلك ورأَوا ان الايرانيين ينوون اعدامهم عن آخرهم وهاج الدم في عروقهم فتجددت قوتهم وعاشت ارواحهم بعد اليأْس ودافعوا عن مدينتهم دفاع الابطال ثم جعلوا يهجمون على المحاصرين من كل جانب ويضيقون عليهم حتَّى اضطرّ خسرو خان الى الانسحاب ولحظ الافغانيون منهُ ذلك فتأَثروهُ وحاربوهُ حرباً عنيفة كان النصر في آخرها لهم وقتل في هذه المعركة خسرو خان و ٢٥ الفاً من رجالهِ

ثم ارسل السلطان جيشاً آخر لمقاتلة الافغانيين تحت قيادة محمد رستم خان فاصابهُ ما اصاب الجيوش السابقة واستقلَّ ويس استقلالاً تامًّا بامارة كندهار وبين هو يستعد للتقدم على امتلاك بلاد ايران عاجلتهُ المنيَّة فحزن الافغانيون عليهِ حزناً مفرطاً ولهُ عندهم شهرة في البسالة والفطنة يذكرونهُ بها الى هذا اليوم

وكان لويس ولدان اكبرهما في الثامنة عشرة من عمرهِ يوم وفاة هذا الامير فاختلس الامارة منهما عمهما الامير عبد الله وكان جباناً فاسقاً يختلف عن اخيهِ في كل امر فما عتم ان استلم زمام الامر حتَّى بدأَ بمخابرة اصفهان في اعادة الامارة الى حكم السلطان حسين وعارضهُ قومهُ في ذلك

معارضةً شديدةً فلم يرجع عن قصدهِ وارسل نواباً من قبلهِ الى عاصمة ايران لعرض شروط المصالحة واهمها ان تعود الولاية الى الخضوع لاوامر الدوله الايرانيَّة على شرط ان ترفع عنها الجزية الَّتي كان عمال السلطان يتقاضونها من كندهار كل عام وان لا ترسل جيوش اجنبيَّة الى الامارة وان يعترف السلطان للامير عبد الله ولاولادهِ من بعده بالامارة على كندهار .

فعظم الامر على اكابر الافغانيين من جرى ذلك ورأوا ان مطامعهم في الاستقلال بعد ان ذاقوا حلاوتهُ وفي الفتح والامتلاك قد ضاعت من سوء تصرف هذا الامير واجتمع بعضهم على الشاب محمود وهو بكر اولاد ويس فاتفقوا معهُ على المجاهرة بالعصيان والمناداة بهِ اميرًا على كندهار قبل ان تعود البلاد الى قبضة اهل ايران وكان محمود عاقلاً نجيباً وباسلاً مقداماً فتروَّى في الامر على صغر سنهِ وصرف قومهُ على ان ينظر في الحكاية ثم انتخب اربعين بطلاً من اصدقائهِ واخبرهم بعزمهِ على قتل عمهِ فوافقوهُ على ذلك وذهبوا في احد الليالي الى قصرهِ فعرفهم الحجَّاب ورأوا الامير محمود معهم فلم يعارضوهم في الدخول ودخل هؤلاء الرجال على عبد الله فوجدوهُ خالي البال وقتلوهُ في الحال ثم امروا رجال الموسيقى ان تعزف باللحن الاميري والامير محمود واقف في وسطهم ونادوا بهِ حاكماً عليهم فلما عرف الاهالي بالذي تمَّ سروا بهِ سرورًا زائدًا وايدوا محمود على سرير الامارة وبذلك عاد الافغانيون الى افكارهم الاولى وقدر لهم ان يفوزوا بتحقيق الاماني على يد الامير محمود

وابتدأ محمود حكمهُ على كندهار وسلطنة ايران في اسوإ حال فانها كانت مثال الفساد والضعف وقد استولى حب الترف والخمول على اهلها وحدث

يومئذٍ ان الاكراد قاموا على الدولة في بلاد العراق بايعاز من العثمانيين وان قبائل التتر الازبكيّة المشهورة عادت الى شن الغارة على خراسان طمعاً في الغزو والنهب وان القسم الآخر مِن افغانستان نريد بهِ هرات وما يليها قام ايضاً على عساكر السلطان وقوي امير هرات واسمهُ يومئذٍ اسد الله حتى انهُ صار اعظم من امير كَنَدهار واضطرت حكومة ايران يومئذٍ ان تترك الاعداء وشأنهم وتحول همها الى اخضاع هذا الامير وقومهِ وهم الافغانيون الابداليّة فجردت جيشاً لا يقل عن ثلثين الف مقاتل تحت قيادة صفي قولي خان وارسلتهُ لمقاتلة اسد الله فلاقاهُ اسد الله بخمسة عشر الفاً وقاتلهُ قتالاً هائلاً في معركة دامت من شروق الشمس الى غروبها ولولا ان يحدث امر غريب لانتصر الايرانيون على خصمهم وامتلكوا هرات ولكن الاقدار ساعدت الافغانيين على طريقة غريبة ذلك ان جيش ايران كان فيهِ حوالي عشرين مدفعاً من المدافع المعروفة في تلك الايام فحدث عند غروب الشمس ان فرقةً من خيالة الايرانيين وصلوا الى موضع كان الافغانيون فيهِ في اول النهار فظنهم رفاقهم من الاعداء وبدأوا يرمونهم بالقنابل حتى قتلوا عدداً كبيراً منهم ولما عرفوا بخطائهم قامت الصيحة ونسبت الخيانة الى فريق المدفعيّة فكثر الخلاف ووقع الفشل في صفوف الايرانيين وانتهز الافغانيون تلك الفرصة فهجموا بكل قوتهم على جيش السلطان وفرقوهُ ايدي سبا وملكوا منهُ كل الزاد والذخيرة والمدافع وقتلوا قائد الجيش الايراني وابنهُ وثمانية آلاف رجل غيرهما وقتل من الافغانيين ثلثة آلاف رجل ولكن النصر كان تامًّا في جانبهم

وقام العرب ايضاً في نواحي خليج العجم على دولة ايران وحاربوا

عساكرها وحدث يومئذٍ في بلاط السلطان الشيء الكثير من الدسائس من ذلك ان وزيرهُ فتح علي خان كان عاقلاً كثير الامانة فحسداهُ الناس على ما نعلم واتحد شيخ المشايخ ورئيس الاطباء على الوشاية بهِ وجاؤُوا في احد الليالي الى غرفة السلطان وقد اظهروا الاهتمام الكثير فأيقظوهُ من نومهِ واخبروهُ ان وزيرهُ قد اتحد مع الاعداء على تسليم البلاد لهم وخلع السلطان وقتلهِ واتوا بالادلة على ذلك فصدقهم السلطان وخاف على نفسهِ وامر في الحال بالقبض على الوزير فقبضوا عليهِ وفقأُوا عينيهِ وكانت هذه العادة شائعة في الدوائر العالية في ايران يومئذٍ يفقئ الامير او الكبير عيني خصمهِ حتَّى يمنعهُ من مزاحمتهِ ويصيرهُ عالة لا قدرة لهُ على شيء . ثم بلغ السلطان ان الوزير لم يقترف وزرًا فأمر بعقد مجلس لمحاكمتهِ واظهار الحق ودافع الوزير عن نفسهِ بالفصاحة واتى بالادلة المقنعة على خيانة الذين وشوا بهِ فرأى حسين شاه انهُ اساءَ التصرف وظلم وزيرهُ وبكى من اجل ذلك بكاءً مرًّا . وكثرت امثال هذه الدسيسة في ذلك الحين

هذا هو الزمان الذي اختارهُ محمود صاحب كندهار وفاتح ايران للهجوم على هذه السلطنة وهذه هي الاحوال الَّتي ساعدتهُ على نوال بغيتهِ . وتقدم محمود بجيشهِ عن طريق الصحراء فوصل مدينة كرمان وبدأَ بمحاصرتها ولكن السعد لم يساعدهُ يومئذٍ لان جيش ايران وصل لاغاثة المدينة تحت قيادة البطل الشهير لطف علي خان وهو اخو الوزير الذي مرَّ ذكرهُ فحارب محمودًا وانتصر عليهِ واضطرَّ الامير الافغاني الى الفرار والعود الى بلادهِ

ثم دخل جيش السلطان مدينة كرمان فأساءَ معاملة الاهالي واكثر

من الظلم والفحش حتَّى تمنى الاهالي لو يعود الافغانيون اليهم ويملكون مدينتهم. وعاد لطف علي خان بعد هذا النصر الى شيراز ونواحيها ليجيش جيشًا كبيرًا يقاتل بهِ اعداء السلطنة فأطلق السراح لعساكرهِ في نهب الاهالي وظلمهم على عادتهِ وشكاهُ الناس الى السلطان فأمر بعزلهِ ولم تقم للجيش الايراني قائمة من بعد عزل هذا البطل

واما محمود فانهُ اقام اشهرًا قليلة في مدينة كندهار لمَّ في خلالها شعث جيشهِ وزاد قواتهُ وجمع الذخائر والمؤن ثم زحف على بلاد ايران بجيشٍ لا يقلُّ عن عشرين الف مقاتل في الشهر الاول من سنة ١٧٢١ عن طريق الصحراء ايضًا وسمع الايرانيون بقدومهِ فماتت قلوبهم من الخوف وحدث يومئذٍ ان الشمس كسفت وكثر احمرارها مدة ايام فأوَّل الناس ذلك الى سخط الاله عليهم وكثرت مخاوفهم ودار الواعظون بينهم يحضونهم على التقوى وترك المعاصي حتَّى يتحول غضب السماء عنهم وانبأ المنجمون ان مدينة اصفهان ستخرب بالنار او بالزلزلة عن قريب وصدق الناس هذه النبوة وخرج السلطان حسين بحريمهِ وخصيانهِ من المدينة فسكن في المضارب في ضواحيها وفعل الاكابر والاشراف فعلهُ وكثرت هواجس الناس وبلابلهم حتَّى ذبلت نفوسهم وصغرت انفسهم وجاءهم خبر تقدم محمود بجيشهِ الجديد ضغثًا على ابالة فلم يبقَ ريب في صدور العارفين ان النصر سيتم للافغانيين وان دولة الايرانيين دالت

ولما صار محمود على مسافة اربعة ايام من اصفهان ولم يقاومهُ في سيرهِ مقاوم ارسل اليهِ السلطان حسين رسولاً يعرض عليهِ المال الكثير والمصالحة على شرط ان يعود الى بلادهِ فلم يصغِ محمود لقول هذا السفير وظلَّ

سائرًا في سبيلهِ وليس في طول البلاد وعرضها رجل يشهر السلاح في وجه رجالهِ حتَّى صار على ابواب اصفهان واستعدَّ لمحاصرتها والهجوم عليها مع انهُ لم يكن معهُ شيءٌ من ادوات الحصار ولكن ضعف الحكومة الايرانية وعجزها عن مقاومتهِ سهل لهُ كل امر صعب وكثرة الدسائس في بلاط السلطان مع ما كانت البلاد فيهِ من الخطر المبين مهدت للامير الافغاني طرق النصر

واصفهان مدينة كبيرة واقعة على ضفاف نهرٍ شهيرٍ اسمهُ نهر زاينده رود كانت يومئذٍ كثيرة الابراج والحصون محاطة بسور منيع والى جانبها الضواحي الجميلة مثل بلدة عباس اباد وبلدة جلفا وهي مستعمرة للارمن انشأها عباس شاه للصنَّاع واصحاب الحرف من الارمن وانعم عليها بالامتيازات الكثيرة . وكان في اصفهان جيش لا يقل عددهُ عن خمسين الف مقاتل كامل العدة والسلاح ولولا ان تكون الحكومة الايرانيَّة يومئذٍ في ضعف وفساد هائلين لما امكن للجيش الافغاني على قلة العدد والسلاح وعدم وجود آلات الحصار معهُ ان يهاجم هذه العاصمة الشهيرة . وخاف السلطان حسين خوفًا شديدًا من وصول محمود الى ابواب عاصمتهِ فجمع الوزراء والاعيان واستشارهم في الامر فأشار عليهِ محمد قلي خان بالامتناع داخل الاسوار ومحاربة الافغانيين بالصبر الى ان يضجر رجالهم او يقتل بعضهم على طول المدة ويعودون عن المدينة وعزز رأيهُ بالادلة على ضعف الافغانيين في الحصار وقوتهم في الهجوم والحرب بالسلاح الابيض وكان مصيبًا في رأيهِ الَّا ان والي بلاد العرب من الامراء المحيطين بحسين شاه رأى غير هذا الرأي وقام في المجلس محرضًا للقوم على البسالة والقتال يذم في الذي يقول باتخاذ خطة الدفاع والتساهل مع

الافغانيين الى هذا الحد واحتدَّ الامير في كلامهِ واشار بالاسراع في مهاجمة القادمين والتنكيل بهم وقطع دابرهم فهاج الدم من كلامهِ في عروق الحاضرين ووافقوهُ على رأيهِ فاعتمد السلطان على الخروج بعسكرهِ لطرد المعتدين وكان معظم رجالهِ من اهل اصفهان قوماً اعتادوا البطالة والترف ولا يمكن لهم الوقوف في وجه ابطال محمود المعروفين بالتفاني في سبيل الانتصار على العدو الذي ظلمهم زماناً طويلاً

ولما اتفق راي السلطان واعوانهِ على الهجوم اتى حسين شاه امرًا اضاع عليهِ الامل بالنصر ذلك انهُ قسم الجيش قسمين جعل قائد احدهما وزيرهُ محمد قلي خان وجعل قائد القسم الثاني والي بلاد العرب وكان الاثنان خصمان فتشاءم العقلاء من هذا الامر وصحَّ ظنهم لان المعركة انجلت عن انكسار الايرانيين شر كسرة وكان جيش السلطان كثير الزخارف والاهبة وجيش الافغانيين بلا زينة غير الرماح والسيوف فلما ابتدأ القتال هجم الافغانيون هجوماً عنيفاً على قسم الوزير الايراني وشتتوا شملهُ ودار بعض فرسانهم من وراء المعسكر الايراني فوجدوا ٢٥ مدفعاً تتأهب لاطلاق القنابل عليهم فاكبوا على الرجال في الحال وقتلوهم واستولوا على المدافع وصوَّبوها الى جيش ايران فأطلقوا منها بعض القنابل فقتلت عددًا من جيش السلطان ولما لحظ الايرانيون ذلك ذعروا وتفرقوا فتبعهم جيش محمود من كل جانب ونهبوا منهم ذهباً كثيرًا وغنموا مالاً وافرًا لم يروا مثلهُ من قبل ذلك اليوم ففرحوا بهِ وسمعوا ان في اصفهان اضعاف هذا القدر يصير اليهم اذا هم فتحوا المدينة فصمموا النيَّة على القتال المستمر الى ان تقع اصفهان في قبضة يدهم ونال محمود غاية ما يتمنى بعد ذلك

ولم يبقَ لدى محمود غير اخضاع العاصمة والجلوس محل السلطان حسين.
واما جيش ايران فتفرق بعد هذه المعركة وعاد كل قائد منهم الى بلادهِ الاصليَّة فلم يبقَ عند السلطان حسين غير المتجندين من اهل اصفهان وكانوا كما تقدم لا يصلحون لمقاتلة ابطال افغانستان

ووقع الرعب في قلوب الاهالي الايرانيين حتى انحلت عزائمهم وخارت قواهم فعمد السلطان حسين الى جمع الاشراف واستشارتهم في الامر وكان من رأْيهِ الرحيل عن اصفهان الى جهة امنع حيث يمكن اجتماع الانصار والاعوان حولهُ ووافقهُ العقلاء ما خلا والي جزيرة العرب فانهُ هزأَ بهذا القصد وعدهُ خيانةً واشار بالحرب والقتال فانصاع السلطان لرأْيهِ وكان البعض يظنون ان هذا الامير العربي خائن متفق سرًّا مع امير الافغان على قلب الدولة والذي سيذكر من فعالهِ بعد هذا يؤيد القول بخيانتهِ . ثم ابتدأَ الحصار الشديد ووقع اعظمهُ على ضواحي مدينة اصفهان وفي مقدمتها بلدة جلفا الارمنيَّة وكان اهل هذه القرية يريدون الاخلاص لدولة ايران ومقاتلة الافغانيين ما استطاعوا مع كل ما رأَوا من وزراء السلطان حسين من الاحتقار فجمعوا قواهم وبدأُوا بمحاربة الاعداء وارسلوا يطلبون المدد من والي العرب الذي كان وقتئذٍ القائد العام للجيوش فلم ينجدهم ولهذا تمكن الافغانيون من فتح بلدتهم بعد ان قتلوا العدد الكثير منهم فلما رأَى الارمن ان القتال لا يفيد سلموا للعدو على شرط ان يدفعوا اليهِ غرامة حربية وخمسين فتاةً من عذارى قومهم الارمن وكان هؤُلاء القوم يغارون غيرة شديدة على عرضهم ويمتازون عن جيرانهم الايرانيين بالعفة والاجتهاد فكبر عليهم هذا الشرط وما قاموا بهِ الَّا لان سلامتهم تتوقف عليهِ . ورأَى الامير محمود وامراؤُهُ الذين وزعت عليهم

الفتيات ان الامر كبر جدًّا على القوم من هذه الفضيحة وان بعض هؤلاء الفتيات انتحرنَ تخلصاً من العار وان اهلهنّ اقلقوا البر بالصياح والنواح فردوهنّ الى اهلهنّ واظهروا ان الخير موجود في الفطرة الطبيعية وانهم لم يعدموا الشرف وحسن الخصال

وظلّ الحصار والامير الافغاني ثمل بخمرة النصر لا يدري ماذا يفعل ولا يأمر بشيءٍ حتَّى ان بعض الايرانيين طمعوا فيهِ وعادوا الى مناوشة قومهِ فاسترجعوا شيئًا من السلاح الذي فقدوهُ ومحمود لا يدري ماذا يفعل حتَّى افاق من ذهولهِ يوم علم ان خصيًّا من خصيان السلطان حسين واسمهُ احمد آغا اغار على فرقة من جيشهِ وحطمها وطرد الافغانيين من بعض المواقع نخاف العاقبة وحسب ان العز لا يدوم لهُ نخابر السلطان حسين في الصلح وطلب ان تكون بلاد كندهار وكرمان وخراسان ملكاً لهُ ولاولادهِ من بعدهِ وان يعطى خمسين الف تومان (خمسة وعشرين الف جنيه) فيعود عن المدينة ويخطب ابنة السلطان ويصير حليفهُ . فلما جاء الرسول الى حضرة السلطان اشار عليهِ قومهُ برفض الطلب لانهم املوا بالفوز من بعد ما ظهر من بسالة احمد آغا والذين حاربوا معهُ فعاد الرسول بالخيبة الى مولاهُ ومن ذلك الحين ابتدأت مصائب اصفهان لان محمودًا عوَّل على ايصال الاذى اليها بكل واسطة ممكنة واصرَّ على اخضاعها وقتل كل من فيها

وبعد هذا تشاور محمود واعوانهُ في الامر فقرروا اتلاف كل المزروعات والقرى والعمائر المحيطة باصفهان من كل جانب حتَّى يتعذر وصول المدد والزاد اليها او يستحيل وبدأ الافغانيون بهذا العمل الشنيع نخربوا في ايام قليلة كل ما صنعهُ الايرانيون في الوف من السنين واصبحت تلك الديار قاعاً

صفصفاً تدل على الويل والشرور ولم تزل آثار ذلك الخراب الهائل ظاهرة في ضواحي اصفهان الى هذا اليوم . ولما رأى اهالي البلاد هذا فرُّوا من اماكنهم وقصد بعضهم الانحاء القاصية والبعض لاذ بمدينة اصفهان فنتح لهم السلطان ابوابها ظنّاً منهُ بأن كثرة العدد يفيد في الحصار وتزيده قوة ولكنهُ علم بعد هذا انهُ زاد مركزهُ صعوبةً وضعفاً بقبولهم . وشدد الافغان بعد هذا بالحصار وتقدموا على اصفهان من كل جانب ولم يبقَ في وجههم معاند غير اهل قرية صغيرة هي اصفهانك كانت على مقربة من العاصمة . هؤلاء القوم اظهروا بسالة واقداماً غريبين حتى انهم هجموا على قافلة افغانية كانت تنقل الزاد الى جيش محمود وملكوها فلما علم الامير الافغاني بذلك ارسل عليهم فرقة من جنودهِ لتقطع دابرهم وتقتلهم عن آخرهم وكان اهل اصفهانك على استعداد لمقاتلتهم فكسروهم شر كسرة ورأى محمود ذلك فسار بنفسهِ واكابر اعوانهِ للانتقام من هؤلاء الاشداء ولكنهُ لقي من بسالتهم ما لم يكن يخطر لهُ ببال واضطرَّ الى القهقرى بعد ان قتل عدد كبير من رجالهِ واسر عمهُ واخوهُ وابن عمهِ في ساعة واحدة وفرَّ المحاربون بهؤلاء الاسرى فلم يمكن لمحمود ان يخلصهم ورأى بعد الامعان الكثير انهُ اذا لم يسرع الى انقاذ اقاربهِ ذبحهم اعداؤهُ عن آخرهم فاستغاث بعدوهِ السلطان حسين ورجاهُ ان يأمر الاهالي بالافراج عن هؤلاء الاسرى وفرح السلطان فرحاً لا يوصف بذلك لانهُ كان يؤمل ان يكون هذا سبباً في خلاصهِ وخلاص اصفهان من الضيق فبعث بالاوامر الى اهالي القرية يأمرهم بالافراج عن الاسرى ولكن اوامرهُ وصلت بعد ان قضي الامر وضربت اعناق الافغانيين فاشتدَّ اسف السلطان حسين وغيظ الامير محمود حتى ان الامير امر رجالهُ بقتل كل اسير في قبضتهم

وضيق على اهالي اصفهانك بكل قوتهِ حَتَّى اضطرهم الى الفرار وقتل كل من وقع في يدهِ منهم

واراد اهل اصفهان بعد الذي سمعوهُ عن اهل قرية اصفهانك والذي رأوهُ من شهرٍ من بسالة احمد اغا ونجاحهِ في طرد الافغانيين ان يهبوا للحرب ويجاهدوا في رد الاعداء عن مدينتهم وكان السلطان هذه المرة على رأيهم الَّا ان قائد العساكر وهو العربي الذي ذكرناهُ غير مرة ظلَّ يحاول ويماطل ويختلق الاسباب والحيل لمنع القتال حَتَّى خمدت شجاعة الاهالي وعدلوا عن المطالبة بالحرب فرأى السلطان منهم ذلك وغير رأيهُ فمكث في مدينتهِ منتظرًا نتيجة الحصار وارسل ابنهُ تهماسب ميرزا الى قزوين حتى يجمع لهُ العساكر ويثير الاهالي على الافغانيين فتمكن هذا الامير من الفرار الى تلك الانحاء وجاهد على قدر استطاعتهِ في استجلاب الخواطر وانهاض الهمم فرأى من الناس فتورًا ونفورًا وعلم ان دولة ابيهِ زالت وكتب اليهِ بذلك مشيرًا عليهِ بترك اصفهان وكان السلطان حسين يفكر في ذلك الَّا ان الامر صار مستحيلاً ساعة اراد السلطان اتمامهُ

وكثر الضيق والجوع في اصفهان وانقطع عنها الزاد من الخارج انقطاعًا تامًّا فعاد الاهالي الى الالحاح على السلطان باخراجهم خارج الاسوار لمحاربة الاعداء ولم يجب طلبهم ولكنهم رأوا انهم اذا لم يموتوا في ساحة القتال ماتوا في مدينتهم جوعًا فاصروا على القتال وتجمهروا حول قصر السلطان يصيحون وينتحبون ويقولون هات لنا السلاح ومر العساكر ان ترافقنا الى محاربة الاعداء فامرهم بالانصراف ولم ينصرفوا واضطرَّ الى امر حراسهِ ان يطلقوا النار عليهم فعظم الخطب وكان الاهالي على وشك ان يهجموا على السراي ومن

فيها ويخربوا دولتهم بايديهم بدل ان يخربها الافغانيون لولا ان يتدارك احمد آغا الذي مرّ ذكرهُ الامر بحكمتهِ وينقذ سلطانهُ بشجاعتهِ وامانتهِ ذلك انهُ نهى بعض الحراس عن اطلاق النار على الناس ووقف بين جمهور منهم وصاح بهم ان هيَّا بنا لمحاربة الافغانيين فعرفهُ القوم وداروا بهِ من كل جانب وتبعوهُ الى خارج الاسوار فهجموا على الافغانيين هجوماً عنيفاً ونكلوا بفريق كبير منهم وردوهم عن بعض المواقع وغنموا منهم سلاحاً وزاداً ولولا قلة عددهم لتمكنوا من طردهم وانقاذ المدينة منهم . ومن اغرب امور هذا التاريخ ان الوالي العربي لم يرق لهُ عمل احمد آغا هذا فوشى بهِ للسلطان وافهمهُ ان هذا البطل الامين اتى امرًا فريًّا وصدقهُ السلطان على عادتهِ فوبخ احمد آغا توبيخاً عنيفاً على صنيعهِ وانذرهُ بالعقاب في حين ان الاهالي عن بكرة ابيهم كانوا يحلفون باسمهِ ويشكرونهُ على بسالتهِ وامانتهِ . ورأى الخصي ما كان من مولاهُ فلم يفه ببنت شفة ولكنهُ سار الى منزلهِ توًّا وبات ليلتهُ فلما قام الناس في الصباح الثاني جاءوا اليهِ ليرأس جماعة منهم تريد القتال فرأوهُ ميتاً في سريرهِ وعلموا انهُ تجرع السم عمدًا مما لحق بهِ من الغيظ بسبب تكدير مولاهُ لهُ بعد احيائهِ همم الاهالي وانتصارهِ على الاعداء مرتين فشق خبر موتهِ على الاهالي واظهروا تأثيرًا خارق العادة

وكان بعضهم يريد الهجوم على سراي السلطان وقتلهِ مع ذلك الوالي العربي اخذًا بثار احمد آغا فردهم العقلاء ومن ذلك الحين لم يعد لاهل اصفهان امل بالخلاص واشتدَّ عليهم الضيق والجوع اشتدادًا هائلاً حتَّى انهم صاروا يشترون الرغيف بحوالي الف غرش ولما نفذ الخبز كلهُ جعلوا يقتاتون بلحوم الحيوانات فاكلوها عن آخرها فعمدوا الى جذور الاشجار وبدأ بعضهم

يأكل بعضاً حتى ان الاب كان يقتل ابنهُ والام ولدها طلباً للقوت ووصل الاهالي كلهم الى درجة الجنون التي تعرف عن الناس في ساعة الجوع الهائل وكثر اكل الآدميين للآدميين وزاد عدد القتلى والموتى عن كل حد حتى امتلأ النهر بالجثث ووهنت القوى وضاعت العقول واستولى الجنون والذهول على المدينة — كل هذا والامير محمود يطيل الحصار وهو عالم بالنتيجة حتى رأى السلطان حسين واعوانهُ ان العناد بعد الذي تمّ لا يفيد وعزم السلطان على التسليم فلبس السواد حداداً على عزهِ الزائل ودار في المدينة بأعوانهِ وهم مثلهُ لابسون السواد من قمة الراس الى اخمص القدم يودع الاهالي ويعظهم ويبشرهم بقرب الفرج لانهُ عزم على التسليم للاعداء وكان الناس مع كل ما اصابهم مِن الاهوال التي تفقد الرشد يعتبرون سلطانهم واستقلالهم ولا يرضون لملكهم بهذا الذل فكبر الامر عليهم واكثروا من البكاء والنحيب ولكنهم رأوا ان التسليم اولى بهم من الموت جوعاً وبهذا قضي الامر .

وفي اليوم التالي جاءت الرسل تخبر الامير محمود بعزم السلطان على التسليم فجلس في قصرٍ من جملة القصور التي ملكها في ضواحي اصفهان ينتظر وصول السلطان حسين فلما وصل استقبلهُ بالخيلاء والفتور وخاطبهُ السلطان حسين بما معناهُ " يا ولدي — ان اله الكائنات لا يريد ان املك زماناً اكثر من هذا وقد جاءت ساعة صعودك على عرش ايران فانا اتنازل لك عنهُ وعن السلطنة جعل الله حكمك سعيداً " . ثم نزع السلطان العمامة الملوكيّة من رأسهِ ووضعها على رأس الامير محمود وقال لهُ ان حكمت "احكم بسلام" فتأثر الامير الافغاني لهذا المنظر الذي يفطر الفؤاد وطيب قلب السلطان حسين فوعد باعتبارهِ اعتبار الابن لابيهِ وباصلاح حال الرعيّة ولبس التاج

في حضرة السلطان المتنازل واكابر دولتهِ وهكذا انتهت ايام الدولة الصفويَّة وكان ذلك في ٢٢ اكتوبر سنة ١٧٢٢ . وحكم السلطان حسين ٢٨ سنة وهو من اشهر ملوك ايران بسلامة النيَّة وضعف الرأي هكذا نتيجة الافراط في الاشفاق في الملك

ولم يحكم ايران من الافغان غير اثنين هما محمود اشرف الذي خلفهُ ولكن مدة حكمهما كانت ملأى بالحوادث الخطيرة التي تستحق الذكر . وكان محمود قاسي القلب متقلب الطبع ولكنهُ اظهر في اوائل حكمهِ على ايران فطنةً ورغبةً في اصلاح حال الرعيَّة لم ينتظرها الناس منهُ. ولما دخل اصفهان بعد ذلك الحصار الطويل جعل همهُ الاول انقاذ اهلها المساكين من غائلة الجوع فسهل طرق المواصلة والتجارة وبعث الجنود في البلاد تحث الناس على جلب الحنطة والماشية الى المدينة حتى زال الضيق منها وعادت الى سابق حالها فشكرهُ الاهالي على هذا الصنيع وافر الشكر . ثم جعل يهتم في اصلاح حال الحكومة وتسليمها الى اعوانهِ مع ابقاء ثقة الاهالي بهِ وبقومهِ فرأى بعد الامعان الكثير انهُ يخاف من الموظفين الايرانيين ويخشى ان ينقلبوا عليهِ ولكنهُ لا يأمن عاقبة الخلل اذا هو ولى اهل بلادهِ المناصب الكبيرة لعدم خبرتهم في الاحكام وجهلهم حاجات ايران ولهذا ابقى كل موظف ايراني في محلهِ وعين معهُ افغانيًا من اعوانهِ بصفة مساعد او مراقب فضمن بذلك امانة الافغانيين وخبرة الايرانيين في الاحكام واظهر اقتدارًا كبيرًا في هذا الترتيب المحمود

واظهر محمود كرههُ لاصحاب الدسائس والخائنين الذين ساعدوهُ على النصر لانهُ ظنَّ انهم يخونونهُ كما خانوا حسين شاه من قبلهِ فنكل بهم واقصاهم

كلهم مع انهم كانوا الواسطة في فوزهِ ولم يبقِ على احدٍ منهم غير الوالي العربي ولكنهُ جردهُ من رتبهِ وقلل اهميتهُ ففرح اهل ايران لصنيعهِ هذا ومالوا اليهِ لانهم كانوا يكرهون اولئك الخائنين . واظهر محمود اعتبارًا كبيرًا لوزير السلطان حسين وهو الرجل العاقل الامين محمد قلي خان الذي ابى الخضوع للفاتح الافغاني الَّا على شرط ان لا يضطر الى محاربة تهماسب ميرزا ابن مولاهُ السلطان حسين ورضي محمود بهذا الشرط واظهر الاعجاب بهِ . وتساهل محمود مع الاوروبيين ايضًا فاطلق الحريَّة للاديان مثل غيرهِ من ملوك ايران وساعد تجار الاجانب على بناء المعامل فكسب بذلك تعلقهم بهِ وهكذا ابتدأ حكم هذا الامير الافغاني والناس ولعة بهِ ولكنهُ انتهى على غير ذلك كما سيجيء

على ان الصفاء لم يدم لمحمود الَّا اشهرًا قليلة لانهُ ما عتم ان جلس على العرش حتى وصلت بلادهُ كوكبة من الفرسان مرسلة من قيصر الروس بطرس الاكبر لطلب التعويض عما لحق ببعض الروسيين من الاهانة والخسائر في شمالي البلاد فاجاب محمود هؤلاء الرسل ان لا قدرة لهُ على مقاصة قبائل التتر على ما يقولون عنها فعادت بهذا الجواب الى مولاها واظهر بطرس الاكبر غيظًا وميلاً الى الفتح ومحاربة الافغانيين وتقدم على انحاء بحر قزوين فملك بعضها. وبينما محمود يستعد لتجريد الحملة على الروس بلغهُ خبر اعظم واهم هو ان سلطان الاتراك سمع بالذي اصاب ايران فاراد انتهاز الفرصة للانتقام من تلك البلاد وضم بعض ولاياتها الى سلطنتهِ وخاف محمود خوفًا شديدًا من ذلك وكأن كل هذا لم يكفِ الامير الافغاني حتَّى قامت بعض المدن وجاهرت بالعصيان

فحار الامير في امره وضاقت الدنيا في وجههِ لان الذين كانوا حوله من الافغانيين لم يزيدوا عن خمسة عشر الف مقاتل ولاح لهُ ان اهل اصفهان يريدون الغدر بهِ والانضمام الى اعدائهِ فجعل يفكر في الخلاص منهم قبل سواهم ودعا اكابرهم الى وليمة حضرها ثلاثمائة من اشرافهم فلما جلسوا في مواضعهم هجم الافغانيون عليهم باشارة محمود وقتلوهم عن آخرهم وعرضوا جثثهم في احدى ساحات المدينة حتى يرهبوا بقيةَ اهلها . ثم جمع محمود اولاد هؤلاء الاشراف وذبحهم ايضاً عن آخرهم وكان في معيتهِ ثلاثة آلاف رجل من جيش السلطان حسين فأولم لهم ايضاً وليمة وامر قومهُ بالهجوم عليهم على حين غرة فقتلوهم عن آخرهم .كل ذلك حتى يرهب الايرانيين ويقلل عدد الذين يخاف منهم في ايران فيمكن لهُ على حسب ظنهِ ان يتقدم بعد ذلك الى مقاتلة غيرهم من الاعداء وهو لا يحسب للخيانة في مدينة اصفهان حساباً. وامر محمود رجالهُ ايضاً ان يقتلوا كل واحدٍ كان في خدمة السلطان حسين فكثر القتل والذبح واضطر سكان المدينة الى تركها فاقفرت من اصحابها وخلا الجو فيها للافغانيين .

وكأن محموداً تعب من التظاهر بالعدل والرأفة فعدل عن سيرهِ الاول وظلم الناس ظلماً هائلاً حتى لم يعد يهنأ لهُ عيش بغير القتل والمجازر ووقع اكثر هذا الظلم على اهل اصفهان وما يجاورها حتى انهُ وصل الى الاجانب الذين كان لهم المعامل في تلك الانحاء مثل الانكليز والهولانديين والهنود وغيرهم

فلما اقفرت اصفهان من اهلها جاء محمود بقبائل من الاكراد واسكنها تلك المنازل الخالية وهو يؤمل الفوز بواسطتها وجند معظم رجال

الاكراد الذين اسكنهم المدينة وحارب بهم بعض مدن العراق فاخضعها وقتل من قدر على قتله فيها وهو يزعم ان هذه المذابح خير واسطة للخلاص من اعدائهِ. وارسل هذا الفاتح قسماً من جيشهِ على مدينة شيراز فاخضعها بعد عناء كبير واعمل السيف في اهلها ثم تقدم بنفسهِ على بعض الانحاء المجاورة لجزيرة العرب فعاد عنها خائباً مدحورًا ولم يشأ عند عودتهِ ان يدخل عاصمتهُ على هذه الصفة فدخلها في الليل متنكرًا وجعل ينتظر قدوم النجدات من بلادهِ الاصليَّة وهي الَّتي قضى مدة وجودهِ في ايران ينتظرها فوصلت في آخر الامر وخيبت آمال محمود لان العدد كان قليلاً والهمة فاترة وكان اعداؤُهُ قد اشاعوا في بلادهِ اخبار جورهِ وظلمهِ واتهموه بالميل الى تغيير اعتقادهِ وغير هذا من الامور الَّتي اضرَّت بهِ واخرت الافغانيين عن نجدتهِ

واشتهر بعد ذلك ان رؤَساء الجيش الافغاني غير راضين عن محمود واشهرهم يومئذٍ اشرف ابن عم محمود واحد اصحاب النفوذ الكبير بين قومهِ. فلما احسَّ محمود بذلك استرضى قريبهُ اشرف وجعلهُ ولي عهد السلطنة ووارث ملكهِ من بعدهِ ولكنهُ لم يسترح بهذا من القلق والهم فصار معظم خوفهِ من جيشهِ واهل بلادهِ لا من الايرانيين الذين هالهم ظلمهُ وقطعت فعالهُ قلوبهم حتى قيل ان الجندي الواحد من الافغانيين كان يسوق الخمسة والعشرة امامهُ من اهل اصفهان سوق الانعام للذبح ولا يجسر اهل هذه المدينة على الاعتراض . واما بقيَّة الايرانيين فاظهروا بسالةً واقداماً كثيرين خلافاً لاهل مدينة اصفهان ولعلَّ السبب في ذلك ان اهل هذه المدينة اعتادوا الترف في مدة الدولة السابقة ونسوا امور القتال

واشتدّ القلق والجزع على محمود حتّى اعترى هذا الفاتح الهوس او انهُ اصيب بمس من الجنون فهزل جسمهُ وغارت عيناهُ وانقلبت سحنتهُ وتغيرت اطوارهُ ولم يعد يمكن لهُ الراحة ليلاً ولا نهارًا وصار الفتك بالابرياء اقرب الامور اليهِ حتى صار حكمهُ مصيبة كبرى على الذين تحت امرهِ . وحدث انهُ سمع في تلك الاثناء بان احد اولاد السلطان السابق (حسين شاه) فرّ من اصفهان فاشتد خوفهُ وحقدهُ الى درجة الجنون المفرط حتّى انهُ امر بجمع حسين شاه واولادهِ كلهم في احدى الحدائق وكانوا يزيدون عن اربعين اميرًا فلما صاروا في ذلك المحل احاطهم بالجنود وتقدم بنفسهِ والسيف مشهر في يدهِ فجعل يقتل اولئك الابرياء ويقطع اجسامهم ومنظر والدهم حسين شاه يفتت الاكباد والاعوان من حولهِ يشفقون ويسخطون على تلك القسوة الوحشيّة وهو هائج لا يكتفي بالقتل وشرب الدماء حتى قتل الامراء عن آخرهم بيدهِ ولم يبقَ منهم غير طفلين صغيرين فرّا الى والدهما حسين شاه ليخلصا من القتل فامسك ذلك السلطان المنكود الحظ بالولدين وظللهما بيديهِ وهو يرجو محمودًا ان يقتلهُ قبل ان يقتلهما فلم يصغ ذلك الظالم المجنون لقولهِ وطعن احد الولدين بخنجرهِ فتلقى السلطان حسين الطعنة بيدهِ وسال دمهُ فصاح من الم الجرح والم الحزن الكثير وكانما محمودًا افاق من جنونهِ لما رأى ما اصاب حسين شاه الذي ربي على اعتبارهِ واكرامهِ فرجع عن غيهِ وابقى الولدين في عداد الاحياء

وكان تأثير هذا الفعل المريع الهائل شديدًا جدًّا فاوصل محمودًا الى آخر درجات الجنون الخطر ولم يبقَ امل بشفائهِ لانهُ صار يهيج ويضرب نفسهُ كل يوم ولم يعد يعي على شيء فكثرت صلوات الناس الى الله من اجلهِ حتّى

ان الافغانيين رجوا جيرانهم من المسيحيين واليهود ان يعاونوهم في الصلاة فلم يجدِ كل ذلك نفعاً . فلما رأى اعوانهُ ذلك وكانوا يرون ان تهماسب ميرزا ابن الشاه حسين الذي ذكرنا خبر فرارهِ من اصفهان عزم على مهاجمتهم اجتمعوا وقرروا تنصيب اشرف على عرش ايران بدل محمود لئلاَّ تتضعضع احوالهم فقبل اشرف السلطنة وامر في الحال بقتل محمود لانهُ كان يكرههُ كرهاً شديدًا وقيل ان ام محمود امرت بخنقهِ في سريرهِ تخفيفاً لآلامهِ التي صارت لا تطاق في آخر ايامهِ . ولم يصب ظالم بمثل ما أُصيب هذا الطاغية الافغاني من العذاب الهائل والالم المميت . وحكم هذا الفاتح السلطنة الايرانيَّة ثلاثة اعوام فقط ولم يفتح ايران ملك من قبلهِ بجيش صغير واستعداد قليل مثلهُ وكان السبب الاكبر في فوزهِ انحلال الدولة الصفويَّة وضعفها في ايام السلطان حسين وامتياز الافغانيين على اهل اصفهان في البسالة وكثرة الانقسام والدسائس في بلاد ايران . ومات محمود في سنة ١٧٢٥

وكان تهماسب ميرزا ابن السلطان حسين يسعى من يوم فرارهِ من اصفهان برد الملك الى عائلتهِ فلم ينجح في اول الامر وكان على وشك الانزواء حتَّى اذا علم بتقدم الاتراك على بلاد ايران في ايام محمود الافغاني وسمع بهجوم الروس من ناحية أُخرى خطر لهُ ان يوالي هاتين الدولتين وان يوافقهما على ابتلاع ما تريدان من السلطنة على شرط ان تسعيا برد الباقي منها اليهِ فخابر سلطان الاتراك ولم يفلح في الامر واما اسماعيل بك سفيره في بطرسبرج فنجح وعقد باسم مولاهُ معاهدة مع القيصر مؤَداها ان تتنازل ايران عن ولاياتها الشماليَّة لروسيا وفي جملتها دربند وداغستان وشيروان وگيلان ومازندران واستراباد وان يسعى قيصر الروس لقاء ذلك في طرد الافغانيين

من ايران وردها الى العائلة الصفويّة . وكان الاتراك وقتئذٍ يفتحون البلدان المجاورة لاملاكهم ويضيفون الولايات الايرانيّة الى املاكهم ففتحوا بلاد كردستان وخوى ونجچوان وايروان ومراغة وارمينيا ومعظم اذربايجان. وتفرد اهل تبريز في وسط هذهِ الحروب ببسالةٍ واقدام عجيبين لم يسمع باعظم منهما في تاريخ ايران فان هؤلاء الابطال مع قلة عددهم وخلو مدينتهم من القلاع والحصون تمكنوا من رد الاتراك على اعقابهم وقتل العدد الوافر منهم فحاول قائد جيش الاتراك دخول مدينتهم مراراً ولم ينجح ولهذا فرّ بمن بقي من جيشهِ فتعقبهُ اهل تبريز ونكلوا بالالوف من رجالهِ . ولما بلغ اهل تبريز ان بقيّة جيش الاتراك هذه جعلت همها الانتقام من اهل اذربايجان على ما لقيت من الكسر امام مدينتهم قصدوا الاعداء ليردوهم عن مواطنيهم ففرح الاتراك بذلك لانهم كانوا يظنون ان التبريزيين سعوا الى حتفهم بظلفهم بمثل هذا البعد عن مدينتهم وهجموا عليهم بثمانين الف محارب فاهلكهم التبريزيون عن آخرهم وعادوا الى مدينتهم غانمين . فلما بلغت هذه الاخبار مسامع اهل الدولة في الاستانة قاموا لها وقعدوا وارسلوا جيشاً جراراً لا يقل عن مائة وخمسين الفاً من ابطال الحرب لمقاتلة اهل تبريز وقتلهم فلما علم القوم بذلك نقلوا عيالهم وامتعتهم الى جبال گيلان وظلّ الرجال داخل اسوار المدينة للدفاع والحرب فلما جاءهم الاتراك وكانوا اضعاف عددهم ومعهم ما لا يوجد في تبريز من الاسلحة والمدافع اظهر الايرانيون بسالتهم الاعتياديّة في الدفاع وقتلوا من اعدائهم خلقاً كثيراً ولكنهم لم يروا الى النصر سبيلاً مع مثل هذا العدو الكبير بعد ان حصروا ستة اشهر فرضوا بعد الحصار بالتسليم على شرط ان يسمح لهم الاتراك بالرحيل من مدينتهم مع عيالهم وامتعتهم فقبل

الباشا التركي بذلك وجاز هؤلاء الابطال في وسط الاعداء متقلدين السلاح وهم راحلون عن مدينتهم بعد ان قتل منهم فيها نحو ثلثين الفاً في مدة الحرب الاخيرة وقتل من الاتراك مثل هذا العدد ايضاً

كل هذا حدث في ايام محمود بينما كان الروس يملكون الاراضي الشمالية على ماقدمنا وكانت روسيا وتركيا متفقتان على تقسيم ايران على هذه الصفة وترك القليل الباقي منها لتهماسب ميرزا هذا اذا رضي بذلك واما اذاهو لم يرضَ فكان الاتفاق ان يوضع على عرش ايران ملك آخر من عائلتهِ . واتفقت الدولتان ايضاً على مقاومة الافغانيين وطردهم من ايران

فلما رقي اشرف عرش ايران ظنَّ أعوانهُ من الافغانيين انهُ يقوى بحكمتهِ المعهودة على التخلص من تلك المتاعب والتغلب على جميع الاعداء وكانت ثقتهم بهِ عظيمة . واما هو فكان يخشى اولئك الاعوان ويظن بهم سوءًا اكثر من سائر اعدائهِ وجعل همهُ الاول التخلص منهم فقتل بعض اكابرهم وقوادهم في الحال لانهم اخلصوا الولاء لابن عمهِ محمود من قبلهِ وكان في جملة الذين قتلهم جماعة من الذين ساعدوهُ على ارتقاء العرش والذين جمعوا الشيء الكثير من ثروة ايران فضمَّ مالهم الى مالهِ وظنَّ انهُ استراح بذلك من القلاقل والدسائس الداخليَّة . وسرَّ اهل اصفهان من بطش اشرف باصحابهِ وقتلهِ لجماعتهِ الظالمين فلما آنس هذا منهم بدأ يستعمل الحيل لاستمالتهم واسترضائهم واعلن انهُ ساخط على محمود وغيرهِ من الذين اظهروا القسوة والتوحش في معاملة الايرانيين ثم انهُ استدعى السلطان حسين وعرض عليهِ رد الملك اليهِ ففهم حسين شاه انها حيلة لاكتساب رضى القوم وامتنع عن قبول الملك شاكرًا فضل اشرف . وكان اشرف قبيل

ارتقائهِ يخابر تهماسب ميرزا ابن السلطان حسين في امر الصلح ويدعوهُ للقدوم الى اصفهان ففرح تهماسب ميرزا بهذا الخلاف بين اعدائهِ وقبل دعوة اشرف فقام قاصدًا اصفهان وبلغهُ في الطريق ان محمودًا قتل وان اشرف خلفهُ على السلطنة فزاد فرحهُ لان الوفود كانت تأتيهِ كل يوم من الامير الجديد تدعوهُ الى زيارتهِ .وكاد اشرف ان ينجح في حيلتهِ ويقبض على تهماسب ميرزا باهون سبيل لولا ان يسرع بعض الصادقين الى تهماسب ويعلمهُ بنيَّة اشرف وكيفيَّة معاملتهِ للذين يخشى مزاحمتهم فارتدَّ الامير الايراني على الاعقاب الى مازندران وعاد الى السعي في تأليف جيش يحارب لهُ الافغانيين .

وجعل اشرف همهُ الخلاص من عداء الروس والاتراك بعد ان فتك بمن فتك من قومهِ وعمد في ذلك الى الحيلة والسياسة فارسل الرسل الى الاستانة ليطلب المخابرة في الصلح وبث بين علماء الاستانة شكوى العلماء السنيين من محاربة دولة الاسلام التركية لدولة اسلاميَّة اخرى واتحادها مع دولة نصرانيَّة على خرابها ومن تفضيل السلطان التركي للعائلة الصفويَّة وهي شيعيَّة على العائلة الافغانيَّة وهي سنيَّة مثلهُ ومثل قومهِ. فتمسك علماء الاستانة بهذا الرأي واقلقوا حكومتهم بالمجاهرة فيهِ حتى رأت الحكومة التركيَّة ان عداءها لاشرف وقومهِ ستجر عليها المتاعب ولكنها لم تعدل عن مقاصدها في محاربة الافغانيين وادَّعت ان سبب الحرب هو عدم انقياد محمود واشرف الى سيادة السلطان الدينيَّة على جميع المسلمين وعدم اعترافهم لهُ بالخلافة

وعلى هذا وجد اشرف ان كل مساعيهِ لم تجدِ نفعًا وان الحرب مع الاتراك لا بدَّ منها . وسمع بعد قليل ان جيشًا كبيرًا من الاعداء قادم لمحاربتهِ

والاستيلاء على عاصمتهِ فبنى حصناً كبيراً في وسط اصفهان نقل اليهِ عائلتهُ وذخائرهُ وعزم على نقل كل الافغانيين اليهِ في ساعة الشدة ثم امر بتدمير كل القرى المحيطة باصفهان حَتَّى يصعب على الاتراك الوصول اليها ومهاجمتها. ولما قرب الاتراك من اصفهان استعدَّ اشرف للقتال وكانت احدى فرقهم قد انفردت عن بقيَّة الجيش فعلم بها اشرف وهاجمها بكل قوتهِ وقتل كل افرادها ولكنهُ رأى منهم بسالةً هالتهُ فعاد الى دس الدسائس ونقل الى العساكر التركيَّة ومن كان معها من الاكراد ان صنيع الحكومة التركيَّة حرام منافٍ للشرع الشريف لان الافغانيين مسلمون سنيون مثل الاتراك والسلطان يحاربهم لغير داعٍ غير نصرة النصارى والشيعيين عليهم فمال اليهِ معظم الاكراد وفريق كبير من الاتراك حَتَّى انهم عولوا على عدم مقاتلتهِ. ثم ارسل اشرف وفداً من المشايخ الذين جللهم الشيب الى وسط المعسكر التركي ليقابلوا القائد ويخابروهُ في الكف عن القتال فدخل هؤلاء المشايخ معسكر الاتراك وهيئة السكينة والوقار عليهم وخاطبوا الباشا التركي في شأن ما تقدَّم والناس مِنْ حولهم يسمعون فأجابهم احمد باشا — وهو قائد جيش الاتراك — انهُ جاء ليحاربهم بامر مولاهُ سلطان المسلمين لان امراء الافغان لا يعتبرونهُ رئيساً دينيًا عليهم ولم يسمع لهم قولاً. وحدث ان نداء المؤذن قرع الاسماع وقتئذٍ فقام المشايخ الافغانيون للصلاة وصلوا مع الاتراك وهم يظهرون التقوى ويطلبون الى الله بصوتٍ عالٍ ان يمنع الحرب من بين المسلمين وان يهدي القلوب الى الاتحاد ولا يجعل خراب المسلمين على يد المسلمين فاثرت هيئتهم تأثيراً كبيراً في جنود الدولة التركيَّة وتبعهم جمع غفير من الاكراد والاتراك يعدونهم بالامتناع عن محاربتهم فرأى احمد باشا ان هذا الروح سوف يسري بين

جنوده واسرع الى ابتداء القتال في الحال وكانت قوته تقرب من ستين الف مقاتل وسبعين مدفعاً ولم يكن مع الامير الافغاني اكثر من نصف هذا العدد ولكن المعركة انجلت عن انتصار الافغانيين وتقهقر الاتراك وكان في امكان اشرف ان يقتل عدداً كبيراً من اعدائه ويطردهم من البلاد طرداً بعد تلك المعركة ولكنهُ استعمل الحكمة المعروفة عنهُ ونهى رجالهُ عن الفتك بالاسرى ومطاردة الفارين بدعوى انهم اخوان لهم في الدين وان اللوم في الحرب على الرؤساء لا على الجنود والحقيقة انهُ كان يعلم قوّة الاتراك ويخشى بأسهم وكان يريد التفرغ من محاربتهم او الاتحاد معهم لمحاربة الروس فاتى ما يأتيهِ اصحاب الفطنة في مثل هذه الاحوال

وفرّ القائد التركي الى كرامانشاه ومنها الى بغداد بعد ان ترك كل مدافعهِ وذخائرهِ الحربيَّة غنيمة للاعداء فارسل اليهِ اشرف يقول انهُ لا يريد اغتنام مال المسلمين ويرغب في ارجاع ما لديهِ من مال الاتراك ما خلا السلاح اذا اراد احمد باشا استرجاعها فبعث اليهِ احمد باشا من يستلم ذلك وقام اشرف بوعدهِ واطلق سبيل الاسرى وهو يظهر لهم الاخاء واستمال قلوبهم بذلك حتَّى عم اعتبارهُ وحبهُ بين جنود الاتراك ورأَت الدولة العثمانيَّة ان رجالها لا يقدمون بعد كل ذلك على محاربة اشرف فاضطرت الى عقد الصلح معهُ على ان يرضي اشرف باستيلاء الاتراك على الاراضي الَّتي فتحوها في مدة السلطان محمود وان يعترف بالخلافة للسلطان التركي وان يقر السلطان لهُ بالملك على ايران ويمتنع عن محاربتهِ او محالفة الروس عليهِ ولم يمكن ان يعقد صلح اكثر من هذا نفعاً للافغانيين . ففاز اشرف بنيتهِ وظهر للملأ انهُ امتاز على اهل زمانهِ بالدهاء والذكاء كما انهُ تفرد في الاقدام والبسالة

كل هذا وتهماسب ميرزا لم ينفك عن السعي وراء ارجاع الملك الى عائلتهِ وكأن السعد اراد خدمتهُ فسخَّر لهُ اثنين من مشاهير الرجال ومن روؤساء العشائر هما فتح علي خان الذي هو جد العائلة المالكة في ايران الآن ونادر قلي خان والثاني هو نادر شاه الذي صار من اعظم ملوك الزمان وسوف يأتي ذكرهُ وذكر حكمهِ على ايران بعد هذا . وتمكن تهماسب ميرزا من فتح مدينة نيشابور بقوة نادر قائدهِ الباسل ومن ثم زادت قوتهُ وعظمت آمالهُ فارسل هذا القائد الشهير لاخضاع خراسان وما يجاورها من البلدان فاخضعها بعد ان قتل خصمهُ فتح علي خان اغتيالاً ولم يعاقبهُ تهماسب شاه على هذا الصنيع لانهُ كان سيفهُ القاطع . ثم اخضع مدينة هرات ومدينة مشهد وعظمت قوة تهماسب شاه بعد ذلك ولكن القوة الحقيقيَّة كلها كانت في يد نادر فلما سمع اشرف بذلك وكان قد انتهى من حرب الاتراك وعقد الصلح معهم علم ان الخطر كلهُ صار من هذه الناحية فجمع كل قوتهِ وهي يومئذٍ لا تزيد عن ثلاثين الف محارب نصفهم من الافغانيين واستعدَّ لمحاربة تهماسب شاه والبطش بهِ غير انهُ اتى امرًا اضاع منهُ الملك ودل على غير ما اشتهر عنهُ من الحكمة والذكاء ذلك انهُ لما خرج للقتال ورأى ان جنودهُ لا تكفي لحفظ المدن الكبرى وللهجوم وضع في كل مدينة حرسًا قليل العدد واظهر خوفهُ من الاهالي فامر الرجال منهم بالابتعاد عن هذه المدن مدة الحرب او يعاقبون بالقتل فاضطرَّ رجال الايرانيين الى ترك مدنهم وعيالهم واعمالهم ولم يروا امامهم غير الانضمام الى جيش تهماسب شاه ونادر وكانوا هم السبب في سقوط اشرف لانهم حاربوا مع قواد بلادهم حرب المستقتل المدافع عن نفسهِ واهلهِ ومالهِ . وتقدم اشرف بباقي رجالهِ الى خراسان فالتقى بنادر ورجالهِ على مقربةٍ

من مدينة دامغان وتحارب الفريقان حرباً عنيفةً دامت عدة ساعات كان النصر في آخرها تامًّا للايرانيين وفرَّ الافغانيون بعد ان قتل منهم عدد غفير وفقدوا كل ذخائرهم ومعظم اسلحتهم وقصدوا مدينة اصفهان حيث جمع اشرف ذخائرهُ وعائلتهُ في الحصن الذي بناهُ وكان ذلك في ٢ اكتوبر سنة ١٧٢٩

ولما رأى تهماسب شاه ان النصر تمَّ لهُ ولم يبقَ عندهُ ريب في ان الملك عاد الى عائلتهِ اراد الاسراع الى مدينة اصفهان وكان يؤكد ان كل الايرانيين يساعدونهُ على الخلاص من اشرف وقومهِ لانهم كانوا يفدون عليهِ الوفا كل يوم . غير ان نادر كان ينوي النيات البعيدة التي حققتها الايام بعد هذا ولم يحارب الافغانيين الا ليمهد السبيل لنفسهِ حتى يرقى عرش ايران نخاف ان تعظم سطوة تهماسب شاه ويشتد تعلق الناس بهِ اذا هو دخل اصفهان بعد ذلك النصر فيعسر عليهِ اتمام غاياتهِ ولهذا اقنع مولاهُ بكل حيلة ان يبقى في موضعهِ ونقدم هو (نادر) الى اصفهان لمحاربة العدو حتى اذا طردهُ منها بعث اليهِ بالخبر ونقدم تهماسب شاه الى عاصمة آبائهِ واجدادهِ . فرضي تهماسب شاه بهذا على كرهٍ منهُ ونقدم نادر على اصفهان فوجد ان امتلاكها بعد الذي تمَّ ليس بالامر السهل . ولم يطل عليهِ الحال حتَّى علم ان الافغانيين ينوون الفرار ولكنهُ لم يسعَ الى قطع الطرق عليهم فتمكن اشرف وقومهُ من ترك اصفهان بما معهم من المال والذخائر وكانوا ينوون قتل اهل اصفهان عن آخرهم قبل هذا الفرار فلم يمكن لهم ذلك غير ان اشرف اقترف اثماً فظيعاً هو انهُ قتل السلطان حسين قبل فرارهِ فسوَّد ذكرهُ بهذا الفعل الشنيع ومات السلطان حسين المسكين بعد ان رأى من المصائب وسوء البخت ما لم يرهُ ملك من ملوك ايران قبلهُ

ودخل نادر مدينة اصفهان فوجد الخراب فيها كثيراً والويل اكثر وتوارد عليهِ الايرانيون من كل جانب يهنئونهُ بالنصر وهم في حالٍ يرثى لها من الذل والويل فحملهم على الطمأنينة وشرع في البحث عمن تخلف في المدينة من الافغانيين فقتلهم ما خلا بعض الذين اشتهروا بالانصاف وحب المسالمة منهم وسمع تهماسب شاه بوقوع اصفهان في قبضة رجالهِ فاسرع اليها ودخلها عقيب فرار الافغانيين منها فرأى آثار الظلم والقسوة بادية في كل مكان وعلى كل وجه وبكى لمصاب قومهِ وكان يظن ان عائلتهُ كلها انقرضت فلقي والدتهُ حيَّة وكانت قد تنكرت مدة وجود الافغانيين وخدمت اعيانهم خدمة الجواري فلم يعلموا بها وابقوها حيَّة حتَّى اذا عاد ابنها الى اصفهان جاءت اليهِ وعانقتهُ وفرحت بهِ وكان فرح تهماسب بلقاء والدتهِ عظيماً

ثم تقدم نادر وراء الفارين من الاعداء فلحق بهم في مدينة شيراز وحاصرهم ولما خابروهُ في الصلح لم يسمع لهم قولاً فانقسم الافغانيون بامر اشرف الى عدة فرق وفرت كل فرقة من ناحية وكان اكثرهم يقتلون النساء والعاجزين منهم حتى لا يقعوا في يد الايرانيين . وهبَّ الايرانيون في وجه هؤلاء الفارين من كل ناحية حتى قتلوا اكثرهم واذاقوهم البلاء الاكبر وكان اشرف على وشك الوصول الى بلادهِ لولا ان يقوم عليهِ بعض البلخيين في الطريق ويضطروهُ الى الفرار بنفسهِ ولكن هذا الامير القليل الحظ ظل يدور وحدهُ في القفار حتى عثر بهِ واحد من اهل بلوخستان وعرفهُ فقتلهُ في الحال وارسل رأسهُ وجوهرة كبيرة وجدت معهُ الى تهماسب شاه في اصفهان وبذلك تلاشت قوة الافغانيين وسقطت دولتهم بعد ان حكمت ايران حوالي ثمانية اعوام وذلك عام ١٧٢٩

نادر شاه

قلنا فيما مرَّ انهُ لما طرد الافغانيون مِنْ ايران وعاد الملك الى قبضة تهماسب شاه صارت القوَّة كلها الى يد نادر قلي قائد جيش ايران وبطلها الباسل الذي طرد الاعداء وطارت شهرتهُ في كل الانحاء حتَّى لم يبقَ لتهماسب غير الاسم واما القوَّة كلها فكانت في يد نادر لاسيما من بعد ان عادت اصفهان الى قبضة الايرانيين وعين نادر حاكماً على خراسان وخوارزم وسيستان وكرمان وهي اكبر ولايات السلطنة الايرانيَّة . واعطي نادر القوَّة لصك النقود باسمهِ وجمع الجيوش تحت رايتهِ فلم يبقَ في بلاد ايران جندي يريد الانتظام في العسكريَّة الاَّ تحت قيادتهِ وظهر للملاء انهُ سوف يصير سلطان ايران بالاسم والفعل يوماً وكان هو يسعى الى ذلك ولكنهُ تأَخر عن انفاذ رغائبهِ حتَّى تجيء الساعة المناسبة

واما اصل نادر فمن عشيرة الافشار في بلاد خراسان وكان والدهُ من عامة الناس وظلَّ هذا الرجل العظيم الى آخر ايامهِ لا ينكر اصلهُ الحقير ولا يدعي الشرف ولا يريد التباهي بغير القوة والبسالة حتَّى انهُ لما سأَلهُ البعض يوماً من حاشية سلطان الهند حين فتح دلهي عاصمة الهند عن حسبهِ ونسبهِ حتى يسلموا بزواج ابنهِ لابنة سلطانهم حسب عادتهم قال الذين جاؤُا اليهِ بهذا السؤَال اخبروا هؤُلاء القوم ان ابني ابن نادر شاه ابن السيف ابن السيف الى الجيل السبعين. ولد هذا الرجل العظيم في ١١ نوفمبر سنة ١٦٨٧ فلما شبَّ رأَى بلادهُ في حالة الفوضى من ضعف الحكومة وهجوم قبائل التتر عليها حيناً بعد حين على ما روينا في الفصول السابقة من هذا التاريخ فصارت الاحوال تنقلب

عليهِ وهو يوماً يؤخذ اسيراً ويوماً يخدم عمال السلطان ويوماً ينظم فرقةً مِن اللصوص تسطو على البلاد وتنهب الاموال حتى اشتهر امرهُ مثل اكثر اللصوص المشهورين واستدعاهُ حاكم خراسان اليهِ فجاءهُ ولقي منهُ الاكرام واستعان بهِ الحاكم على محاربة التتر مدة ثم ظهرت منهُ امور اوجبت خلعهُ من وظيفتهِ واهانتهُ فصعب ذلك على نادر وعاد الى حالهِ الاول فأنشأ عصبة من اللصوص جعل الرجال ينضمون اليها الوفاً حتَّى صار عدد جيشهِ نيف وثلاثة آلاف محارب وخافت الحكومة سطوتهُ فسعي بعض اقاربهِ في ضم قوتهِ الى قوة تهماسب ميرزا يوم كان هذا الامير يحاول طرد الافغانيين من بلاد ايران وتم الامر على ذلك فصار نادر من ذلك اليوم اعظم اعوان تهماسب ميرزا وكان منهُ ما كان مما سردنا بعضهُ في الفصل السابق

وظلَّ هذا البطل يترقب سنوح الفرصة لخلع تهماسب والجلوس على عرش ايران حتَّى تمَّ لهُ ذلك بواسطة الحرب مع الاتراك ذلك ان الاتراك كانوا في ذلك الحين يحاربون الانحاء الغربيَّة من ايران وقد استولوا على قسم عظيم منها كما مرَّ فتقدم نادر لمحاربتهم والتقى بجموعهم في انحاء تبريز واردبيل ففرقها وحطمها وانتصر عليها انتصاراً تامًّا ثم تقدم منها الى مدينة ايروان وبدأ بمحاصرتها فجاءهُ ساعة الحصار خبر من اخيهِ في خراسان يقول لهُ ان الافغانيين شنوا الغارة على البلاد وان الثورة عمت انحائها. ولما كانت خراسان من الولايات الخاصة بهِ اضطرَّ الى الاسراع اليها ومقاصة الجانين فيها فترك الاتراك في مواضعهم وسار الى خراسان فنكل بالافغانيين واعاد الراحة الى تلك البلاد . ولما كان نادر في الحرب مع الافغانيين في خراسان زين البعض لتهماسب ان يزحف على الاتراك ويحاربهم ويتمم الذي شرع فيهِ نادر من

امر طردهم فسمع رأي القائلين بهِ من اهل اصفهان وقام في الحال بمن لديهِ الى ساحة القتال واعاد الكرة على جيوش الاتراك ولكنهُ لم يكن من اصحاب الدراية والقيادة فكسر شر كسرة وخسر كل الذي ربحهُ نادر في الحروب السابقة حتَّى انهُ اضطرَّ الى عقد الصلح مع والي بغداد على ان يترك للاتراك الاراضي الواقعة وراء نهر اركس ولم يشترط على الاتراك رد الاسرى الايرانيين الذين كانوا في قبضتهم. فلما رجع نادر من حرب خراسان وسمع بهذا الصلح المعيب استشاط غيظاً وبعث الى تهماسب شاه يوبخهُ على القبول بهِ وارسل الكتب الى كل الحكام في الولايات يعلمهم بانهُ لا يرضى لبلادهِ وقومهِ مثل هذا الصلح وانهُ عازم على محاربة الاتراك ومصالحتهم على شروط انسب من هذه او اخضاعهم وطلب مساعدة الحكام فاهاج بهذا المنشور الخواطر على تهماسب ميرزا ولاح لهُ مِن ذلك انهُ صار على وشك الوصول الى العرش. ثم تقدم نادر الى مدينة اصفهان وحالما وقع نظرهُ على مولاهُ السلطان تهماسب شاه بدأ يوبخهُ على مسمع من الخدام والاعوان ثم تظاهر بالصفح عما فات ودعا السلطان الى وليمة في حديقة قصرهِ فلبي السلطان الدعوة في ذلك المساء فالقى نادر القبض عليهِ ونفاهُ الى خراسان بعلة عدم كفاءتهِ وولي مكانهُ عباس ميرزا ابنهُ وهو يومئذٍ طفل صغير. كل ذلك لانهُ كان يخاف عاقبة التعدي الظاهر واختلاس الملك قبل ان تستعد الافكار لذلك استعداداً تاماً.

ولما تم تتويج الطفل عباس شاه واقام نادر نفسهُ وصياً عليه زحف بكل قوتهِ لمحاربة الاتراك في بغداد فوصل اليها وجعل يحاصرها وكان على وشك ان يفتحها لولا ان تصل نجدة من الاتراك تحت قيادة احد مشيريهم وتردهُ عنها وكان جيش الاتراك يزيد عن جيشهِ زيادة كبرى في العدد والعدد

فتقهقر الايرانيون مع ان نادرًا فعل فعال الابطال واضطر هذا البطل العظيم الى الرجوع عن بغداد ونواحيها بعد ان دامت المعركة ثماني ساعات وتفرق الايرانيون ايدي سبا وبلغ عدد قتلاهم ٤٠ الفًا

ولم يؤثر هذا الفشل الكبير بنادر شاه بل انهُ زاد همتهُ وشدد عزيمتهُ فانهُ حال وصولهِ الى همدان شرع في لم شعثهِ ودفع الرواتب الى عساكرهِ ومواساة اهل المصابين منهم وتشجيع الباقين وحضهم على اخذ الثار فاجتمع لديهِ خلق كثير وبدأ ينظم الجنود الجديدة ويدربها وهو ينوي البطش بالاتراك حتَّى اذا جاءت الساعة وسمع الاتراك بكل هذا الاستعداد ارسلوا جيشا عظيمًا لمحاربتهِ تحت قيادة المشير توبال عثمان باشا وكان بطلاً مغوارًا الَّا ان الحظ لم يساعدهُ لان نادرًا التقى بطلائع جيشهِ فهزمها ووصل المنهزمون الى مركز الجيش والايرانيون يطاردونهم حتى اذا التقى الجيشان وانتشب القتال فاز الايرانيون فوزًا عظيمًا وقتل من الاتراك عدد عظيم وفي جملتهم قائد الحملة وجاء بهِ قاتلهُ الى نادر شاه فاظهر هذا الرجل العظيم مروءة الابطال واظهر كل احترام لجثة خصمهِ الباسل وبذلك عظم قدرهُ ولم يبقَ لهُ معاند في كل ايران من بعد هذا النصر العظيم

وعقد نادر الصلح مع والي بغداد بعد هذه الحرب ثم زحف على بعض الولايات الثائرة في جنوب ايران ليخضعها وتم لهُ ذلك ولكنهُ علم حال انتصارهِ على الثائرين ان سلطان الاتراك ابى التسليم بالصلح على ما اتاهُ والي بغداد مع نادر فارسل جيشًا آخر تحت قيادة عبد الله باشا لمحاربتهِ والفوز عليهِ . فلما تحقق نادر هذا الخبر عاد بكل قوتهِ الى محاربة الاتراك والتقى بجموعهم في سهول ارمينيا وكان الاتراك اكثر عددًا من رجالهِ فقام نادر في قومهِ

محرضاً لهم على الجهاد وبذل المستطاع ثم هجم على الاعداء هجوم الاسد الكاسر واستمر القتال مدة طويلة وجيش ايران يبطش بالاعداء اينما حول نادر وجهه حتَّى عم الرعب قلوب الاتراك بعد ان قتل منهم اربعة عشر الف وبدأُوا بالتقهقر فوصل بعض الايرانيين الى عبد الله باشا وقتلوهُ وكان نادر يظن ان القتال انتهى بذلك فلما ثبت لهُ ان قوة الاتراك لم تزل عظيمة وانهم معولون على النزال رفع رأس عبد الله باشا على حربةٍ ليراها الكل فتحقق الاتراك ان قائدهم قتل فذعروا وفروا وكان انتصار الايرانيين عليهم عظيماً واستولى نادر بعد هذا على مدينتي گنجه وتفليس وجميع بلاد القوقاس ثم عقد صلحاً مع الاتراك من مقتضاهُ اعادة ايروان والقارص وكافة الاملاك الايرانيَّة السابقة الى سلطان ايران واضطرَّ الاتراك الى القبول بالمعاهدة الَّتي عقدها مع والي بغداد وجئنا على ذكرها . وعاد هذا الفاتح العظيم بعد النصر الى اصفهان سالماً غانماً فكان لدخولهِ يوم عظيم احتفل بهِ الايرانيون احتفالاً باهرًا

ولما انتهى نادر من كل هذا عول على جعل نفسهِ ملكاً لايران بالاسم والفعل ايضاً وكان الطفل عباس شاه الذي اقامهُ شاهاً قد مات فارسل نادر الكتب الى كبراء ايران وامرائها يدعوهم الى حضور الاحتفال بيوم النوروز المشهور فجاء منهم نحو مائة الف رجل في صحراء (مغان) باذربايجان ولما تكامل عددهم وانقضى دور الاحتفال قام نادر بين جموعهم واعلنهم بوفاة ملكهم عباس وطلب اليهم ان ينتخبوا لهم ملكاً غيرهُ يقدر على حفظ كرامة المملكه متظاهرًا بالتعب من ادارة الاحكام والميل الى الراحة بعد ان اراح البلاد من الافغانيين والاتراك والروس وانسحب الى خيمتهِ ليتداول الامراء في غيابهِ . ولم يمضِ الَّا القليل حتَّى بعث الامراء يطلبونهُ واعلنوهُ انهم اجمعوا

على تنصيبهِ ملكاً دون سواهُ فتظاهر بعدم الرضى وتمنع كثيرًا حتى انهُ ظل شهرًا كاملاً يأبى قبول هذا الشرف العظيم الى ان علم ان الافكار كلها استعدت لما يريد فجاهر بالقبول ولكنهُ اشترط على اهل بلادهِ لقاء ذلك ان يتحدوا قلباً وقالباً مع السنيين وشدد في ذلك فتبعهُ بعض الناس ولم يرَ مقاومة في هذا الامر وعلى ذلك توّج نادر شاه ملكاً في ايران باحتفال كبير وصدر منهُ امر مطوّل يدعو فيهِ اهل ايران الى استعمال السلاح وتعلم المعارف والمواخاة مع السنيين وذلك في شهر صفر سنة ١١٤٩ الموافق سنة ١٧٣٦ مسيحية

واما غاية نادر شاه من هذا التغيير فكانت الخلاص من العائلة الصفويّة لان جدها اسمعيل شاه ادخل المبادئ الشيعيّة الى ايران كما تقدم ولعلهُ كان يريد التقرب من السنيين في الانحاء الاخرى وتسهيل الفتح وضم الممالك على نفسهِ حتى اتى هذا الامر الغريب . ولكنهُ لم ينجح في هذا المشروع الاَّ نجاحاً ظاهرًا وقتيًّا وظل الايرانيون على اعتقادهم المعروف

ودخل نادرشاه مدينة اصفهان بعد تتويجهِ بابهة كبرى وبدأ يستعد لفتح الممالك فاراد التخلص قبل كل شيء من الافغانيين وسحق قوتهم وجمع جيشاً لا يقل عن ثمانين الف محارب قصد بهِ اخضاع امارة قندهار وهي يومئذٍ لاخي السلطان محمود الفاتح الافغاني الشهير . ورأى قبل التقدم على تلك البلاد ان في جوار عاصمتهِ قوماً من البدو يعرفون باسم البختياريين يكثرون من قطع الطرق وتخطف الماشية واقلاق راحة الناس فاذا وافتهم جنود الحكومة امتنعوا في كهوف حصينة لهم في الجبال وحاولت الحكومات مرارًا رد شرهم فاخفقت سعياً حتى اعتقد الناس ان اخضاع هؤلاء القوم من الامور

المستحيلة. ولكن نادر شاه لم يكن ممن يسكت عن عدوٍّ لهُ او يعود عن عزم فصمم النيَّة على تأديب هؤلاء العتاة وظلَّ يحاولهم ويطاردهم في الجبال حتى قهرهم واذلهم ورد عن الناس شرهم واخذ منهم عددًا كبيرًا من الرجال ادخلهم في جيشهِ وظهر من الحوادث الَّتي تلت انهُ احسن صنعاً في ذلك لان هؤلاء اللصوص كانوا اشهر جنوده في البسالة وهم الذين مكنوهُ من فتح مدينة قندهار. واما قندهار هذه فكانت حصينة جدًّا ولاهلها بسالة وعزم شديد على المقاومة فحاصرها نادر وبنى حولها الحصون والقلاع ومكث حولها حولاً كاملاً يحاول امتلاكها وهي لا تخضع حتَّى تعب من طول الحصار واشار الى جنودهِ بالهجوم العنيف فهجمت في مقدمة القوم فرقة البختياريين الَّتي ذكرناها وافتتحت البلدة عنوةً فسلم حاكم المدينة لما لم يبقَ لهُ امل في الخلاص وعاملهُ نادر شاه بالرفق والموادة وضم بعض الفرق الافغانيَّة الى جيشهِ وكان هو ينوي استخدام الافغانيين في جيشهِ من زمان بعيد حتى يكون في مأمنٍ من قيام الايرانيين عليهِ. وساعدهُ الافغانيون مساعدةً كبرى على فتح الهند والبلدان الاخرى الَّتي اخضعها مدة حكمهِ الطويل

وكان رضاقلي ميرزا ابن نادر شاه بطلاً مقداماً مثل ابيهِ ولهُ جنودٌ واعوان يساعد بها والدهُ على النصر. هذا البطل حارب بقيَّة بلاد الافغان بين كان والدهُ محاصرًا لقندهار وتقدَّم منها على بلاد التتر فدوَّخ البلدان وفلَّ الجيوش وامتلك المواقع فلما سمع نادرشاه بفعال ابنهِ بعث ينهاهُ عن محاربة التتر بعلة انهم من اقوام چنكيز وتيمور يجب احترامهم. فرجع رضاقلي ميرزا عنهم واكتسب نادرشاه ودادهم من ذلك اليوم فلم يلقَ منهم ما لقيهُ غيرهُ من الهجوم المستمر على حدود مملكتهِ وتمكن بذلك من التفرغ لاخضاع البلدان

الاخرى واهمها الهند. واما اخضاع الهند فكان في بال نادرشاه من زمان بعيد وساعده الزمان على الاسراع الى امتلاكها بعد فتح قندهار ذلك انه كتب الى سلطان دهلي وهي يومئذٍ عاصمة الهند وصاحبها سليل بابر وتيمور المشهورين يرجوه الاّ يسمح لحكام بلاده بمساعدة اعدائه الافغانيين الذين يفرون من وجههِ الى بلاد الهند وكرر الكتابة اليهِ في هذا الشأن فلم يتنازل محمد شاه سلطان الهند الى اجابتهِ واوجد بذلك سبباً للضغينة وعلةً للتقدم على بلاد الهند بالجيوش وكان ذلك طبق ما يتمناه نادر شاه

وزحف نادر شاه سنة ١٧٤٠ بكل ما لديهِ من القوة على بلاد الهند ولم يلقَ في طريقهِ الى دلهي ممانعة تذكر لان السلطان كان لاهياً بملذاتهِ ووزراؤه واعوان دولتهِ مثله لا يهتمون بغير الحظ والمسرات وهم لا يحسبون لغوائل الدهر حساباً ويظنون ان نادر شاه لا يقدر على هز دولتهم. ولكن نادر كان يسير بسرعةٍ لاتصدق الى عاصمة الهند وكلما مرَّ بولايةٍ اومدينة اخضعها والحكام يؤدون له الاكرام والخضوع بلا عناء كبير لان معظمهم كان يعلم حال السلطان واعوانهِ ويؤكدون ان مملكتهم لا تقوى على ذلك البطل العظيم. على ان محمد شاه أفاق من غفلتهِ لما قرب الفاتح من عاصمتهِ فجمع جيشاً كبيرًا ولاقى الايرانيين بهِ وبدأ القتال بين السلطانين في الحال فدارت الدائرة على الهنود بعد قتال عنيف استمرَّ عدة ساعات وقتل من جيش سلطان دهلي نحو عشرين الفاً وأُسر عدد اكبر من هذا وفرَّ الباقون هاربين فلم يبقَ لسلطان الهند بعد هذه الكسرة مطمع في النجاة من يد الفاتح ولهذا عوَّل على مصالحتهِ وارسل اليهِ الوزراء والامراء ليخابروه في امر الصلح ثم حضر هو بنفسهِ الى خيمة نادر شاه فاحتفل سلطان ايران

بقدومهِ احتفالاً عظيماً واكرمهُ اكراماً زائداً حتى انهُ جعل نفسهُ خادماً لزميلهِ سلطان الهند وقدّم لهُ ختم مملكة ايران علامة الخضوع . كل ذلك وهو صاحب الامر وما جاءهُ سلطان الهند الاَّ ليطلب رضاءهُ ويخلص من غضبهِ ولكن نادر شاه كان يحترم اصحاب المقام الكبير ويجلّ ذكر تيمور اجلالاً فاكرم محمد شاه لانهُ كان من سلالتهِ . وعقد نادر شاه صلحاً مع السلطان محمد فاقرّهُ على سلطنة الهند وجعلهُ حليفاً لهُ يصدع بامرهِ واخذ منهُ قسماً كبيرًا من الولايات الهنديّة الواقعة الى جهة الحدود الايرانيّة وجمع من خزائن السلطان شيئاً كثيرًا جدًّا من المال والتحف وكان محمَّد شاه يريد الاعراب عن شكرهِ لجميل نادر فلم يبقِ في خزائنهِ شيئاً من التحف والجواهر المشهورة والذهب الذي لاحصر لقيمتهِ حتى وهبهُ لهذا الفاتح العظيم واقتدى الامراء والاغنياء وكل ذي وجاهة وثروة بالسلطان فجمعوا مالاً لا يحصى واعطوهُ لنادرشاه ثمن رقابهم واقرارًا بالخضوع لسيفهِ وبلغت قيمة هذه الاموال مبلغاً هائلاً لا تقل عن اربعين مليون جنيه . وكان نادر شاه مغرماً بجمع الحجارة الكريمة والجواهر فتم لهُ بعد فتح الهند ما يريد ونال فوق ما يؤمل ولهذا اكتفى بالذي اخذهُ منها تخت الطاووس الشهير وجوهرة (درماي نور) وجوهرة (كوه نور) اللتان ليس لهما نظير في العالم واصدر منشورًا عامًا بالصلح واقرار محمد شاه على السلطنة في دهلي وجاد لجنودهِ بالرواتب الطائلة والهدايا الكثيرة وتجاوز لاهل ايران عن الضرائب مدة ثلاثة اعوام وكان على وشك الرجوع الى بلادهِ من بعد جمع هذا المال الوافر فحدثت فتنة في مدينة دهلي وقام جهلاء الاهالي على جنود نادرشاه فقتلوا بعضهم وساعدهم في ذلك اناس من الاعيان والامراء فاشتد غيظ

نادر واقسم ان لا يتركنّ المدينة حتى ينتقم لرجالهِ من اهلها ولذلك جمع رجالهُ واصدر لهم امرًا بقتل كل من وجدوهُ من اهالي دهلي فثار الجنود في كل جهة يقتلون ويذبحون ونادر شاه قاعد في غرفة مظلمة وقد تولاهُ الغيظ والقلق . وظل الايرانيون يشتغلون في الذبح زمانًا طويلاً حتّى هلك من اهل دهلي المساكين نحو خمسين الف نفس وقيل اكثر — وفي رواية بعض المؤرخين ثمانية آلاف فقط — فلم يبقَ لمحمد شاه صبر على هذه الاهوال فقام الى قصر نادر ودخل غرفتهُ وهو يصيح ويستغيث ويرجوهُ ان يبقي على اهل مدينتهِ فقام لهُ نادر شاه واكرمهُ وامر في الحال ان يجاب سؤلهُ وان يمتنع الجنود عن القتل والذبح وصدع الرجال بامر مليكهم في الحال .

ومن غرائب الامور ان ابن نادر شاه الثاني اقترن بابنة محمَّد شاه واحتفل بزفافها احتفالاً باهرًا في مدينة دهلي بعد هذه الحوادث الهائلة بايام قليلة ثم بارح نادر شاه عاصمة الهند بعد ان اقام فيها ٥٨ يومًا

وكان احتفال اهل ايران بعود سلطانهم الفاتح عظيمًا واندهاشهم مما جمعهُ من المال وما اتى بهِ من الغرائب اعظم . وظل نادر شاه اشهرًا في اصفهان لا همّ لهُ غير ايلام الولائم والتمتع بلذة الملك بعد الفتح والنصر حتّى خاف ان يستولي الخمول على عساكرهِ فقام بجيشهِ وسار لمحاربة ملك بخارى واسمهُ يومئذٍ ابو الفيض خان وتمكن من اخضاعهِ ومحالفتهِ على مثل ما سار مع امير افغانستان وسلطان الهند . ثم تقدم على بلاد خوارزم وبلاد خيوه وقهر حاكمها البرز وولى مكانهُ احد اقارب ابي الفيض ملك بخارى بعد ان صاهرهُ ووالاهُ . وتقدم من بعد هذا لمحاربة اهل داغستان ورد غاراتهم عن الانحاء المجاورة لهم ولكنهُ لم يلقَ النجاح الذي تعودهُ في حروبهِ السابقة

وحدث لهُ في اثناء هذه الحروب الاخيرة حادثًا اقلقهُ ذلك ان احد الاعداء كمن لهُ ولولا القليل لتمكن من الفتك بهِ الاَّ ان ابنهُ رضا قلي ميرزا اسرع لانقاذهِ ولكن من غريب الامور ان نادرشاه اساءَ الظن بابنهِ الباسل بعد هذه الحادثة وظل يزيد كرهًا لهُ يومًا بعد يوم حتَّى امر باطفاء بصرهِ وخسر بهذا الصنيع اكبر عضد لهُ في مملكتهِ. وندم نادر شاه على هذه القسوة الوحشيَّة بعد حين ولكنهُ على ما يظهر أُصيب بمرض الوهم والقسوة مثل غيرهِ من الذين رقوا سلم المجد بالاقدام والجرأة فصار عدوًّا لاهل بيتهِ ونشأ عن ذلك تأخر احوالهِ فانهُ اشتبك بعد ذلك بحرب مع الاتراك لم يظهر فيها شيئًا من بسالتهِ المعهودة وانتصر عساكرهُ في موقعة واحدة لمجرد توهم الاتراك انهم لا يقدرون على الوقوف في وجه نادر شاه

وجعل نادرشاه مدينة مشهد طوس عاصمة ملكهِ وعول بعد الاختبار على العدول عن مضادة اهل المذهب الشيعي ولكنهُ رأى ان مجاهرتهُ بالعدوان لمذهب الايرانيين سبب نفور القوم منهُ فشدد في اضطهاد بعض المشايخ والائمة وكان ذلك داعيًا الى انتشار الثورة فعصتهُ ولايات فارس وشيروان ومازندران وسيستان وظهر ان الايرانيين كلهم بدأُوا يكرهونهُ لانهُ كان يسيء الظن بهم ويقدم جنودهُ الافغانيين عليهم ولهذا زاد العتو في صدر نادر شاه وصار يقتل الناس بالجماعات ولا يشفي غليلهُ حتى خاف الامراء شر الآخرة وتآمروا على قتلهِ وفي جملتهم بعض القواد ورئيس الحرس وهم من قبيلة الافشار الَّتي نشأ منها نادر فدخلوا مخدعهُ في احدى الليالي وقتلوهُ سنة ١٧٤٧ واخذ احد الافغانيين من تاجهِ الجوهرة المسماة بكوه نور السابق ذكرها وهي الآن في تاج ملكة انكلترا

وكان نادر شاه من اعظم ملوك الارض واشتهر بحبهِ للجواهر والمال وبدهائهِ في استمالة الشعوب التي اخضعها وبكرهِ للاديان عموماً حتى انهُ ترجم بعض اسفار الانجيل ليرى اذا كانت اقرب الى ذوقهِ من القرآن وجمع ارباب الاديان الثلاثة يوماً وباحثهم في الاديان ثم صرفهم ولم تزل آثارهُ العظيمة في كل انحاء ايران الى اليوم

وارسل القواد وراء علي شاه ابن اخي نادر شاه فحكموهُ على ايران وظهر انهُ ضعيف خامل فلم يقوَ على الحكم زماناً حتى جاء اخوهُ الذي حكم العراق باسمهِ وعزلهُ . وكان علي قد سمّي نفسهُ عادل شاه وقتل كل آل نادر ما خلا حفيدهُ شاه رخ ميرزا وهو يومئذٍ ولد صغير. فلما اسرهُ اخوهُ ابرهيم خان وجلس مكانهُ مات في السجن. ثم ان اخاهُ هذا لم يذق طعم العز زماناً فقام عليهِ حراسهُ وقتلوهُ وولوا مكانهُ شاه رخ الذي ذكرناهُ

وكان شاه رخ صغيراً يوم رقي العرش ولهُ خصم عنيد هو ميرزا سيد محمَّد احد قواد نادر شاه فتمكن هذا الخصم من اسر شاه رخ واطفاء بصرهِ والجلوس على العرش ولكنهُ لقي في الحال ما يلقاهُ الظالمون لان يوسف علي خان وهو رئيس جيش ايران يومئذٍ اسرع الى الانتقام من ظالم شاه رخ فاسرهُ وقتلهُ واعاد شاه رخ المسكين الى العرش . على ان الطامعين في العرش كثروا في تلك الاثناء واضطرَّ شاه رخ بعد العناء الكثير ان يرضى ببلاد خراسان فنقل اليها وظلَّ حاكماً عليها زماناً وصارت ايران الى قبضة كريم خان زند كما ترى في الفصل القادم

الدولة الزندية

لما كثرت القلاقل بعد موت نادر شاه وتسابق الطامعون في الملك الى نوال المركز الاعلى آل الامر الى المشاحنات الكثيرة التي ذكرنا بعضها في الفصل السابق ولم تنتهِ الآ بتولي كريم خان زند زمام الامر وهو اشهر من حكم ايران من هذه الدولة القصيرة العمر ولهُ شهرة زائدة في حسن الادارة والعدل والتأني وهذا أهم ما يروى عنهُ

وبينما كان احمد خان يسعى في اخضاع خراسان على ما مرَّ في الفصل السابق انتهز محمَّد حسن خان الفرصة وجعل نفسهُ أميرًا على استراباد وما يليها من بلاد مازندران . ومحمد حسن خان هذا هو جد العائلة القاچاريَّة المالكة الآن في ايران وبلاد مازندران موطن قبيلتهِ الباسلة وكان نادر شاه قد نكل بكثيرين من رؤساء هذه القبيلة فنفر افرادها منهُ ومن عائلتهِ وعولوا على مقاومة دولتهِ ولهذا انضمَّ اكثرهم الى محمَّد حسن خان حتَّى عظمت سطوتهُ وخشي احمد خان شرهُ فبعث اليهِ جيشاً ليحاربهُ ويملك مازندران منهُ ولم ينجح الجيش فزادت بذلك قوة هذا الامير القاچاري وكانت الولايات الاخرى تستقل واحدة بعد اخرى حتى ان اذربايجان وگيلان وبلاد الجراكسة اصبحت ممالك منفردة لا سلطة لصاحب ايران عليها وكانت اصفهان بلا قائد شهير يعرف فتم لاحد المشاهير واسمهُ علي مردان خان واصلهُ من طائفة البختياريَّة التي أتينا على ذكرها ان يحكم هذه العاصمة الشهيرة وخطر لهُ ان ينصب احد افراد العائلة الصفويَّة ملكاً عليها ويكون هو صاحب القوة ولكنهُ رأى انهُ لايقدر على القيام بهذا الامر الخطير وحدهُ

فاستدعى بعض الامراء لمساعدتهِ وكان امهرهم واشهرهم شيخ قبيلة الزنديَّة الَّتي هي قبيلة فارسيَّة اصليَّة واسمهُ كريم خان لم يشتهر بالحسب والنسب ولكنهُ عرف بالبسالة والصبر الغريب على الشدائد وفاق كل أَمير سواهُ من أَهل ايامهِ بالحلم والانصاف وحب الرعيَّة وقد يعسر على المنصف ان يجد حاكماً أَعدل منهُ واكثر حلماً من الذين تولوا ايران قبلهُ من بعد الفتح الاسلامي

واتفق علي مردان خان وكريم خان على اقتسام البلاد بينهما واقامة ملك يحكم بالاسم من العائلة الصفويَّة وظلا على ذلك مدة وكانت القوة والشهرة في اول الامر كلها لعلي مردان خان الَّا ان كريم خان اجتذب القلوب حيثما حلَّ بحلمهِ وعدلهِ التام وكانَّ عساكرهُ اقتدت بهِ فلم تؤذِ الاهالي وساد الامن والعدل في الاجزاء الَّتي حكمها هذا الامير العادل حتَّى تعلقت بهِ القلوب وبدأَ علي مردان خان يخشى شر هذه الشهرة ويظهر لزميلهِ نفورًا وعداءً حتَّى اشتهر امر هذا العداء واصبح الزميلان عدوين معروفين ولكن كريم خان امتاز على خصمهِ بحب الذين يحكمهم لهُ ونفور اهل اصفهان من علي مردان وكانت مزايا كريم خان هذه اكبر اسباب نجاحهِ . وانتشب القتال بين الاميرين يوماً فلم تطل مدتهُ حتى قام اعوان علي مردان على رئيسهم وقتلوهُ فخلا الجو لكريم خان واصبح هو صاحب اصفهان والحاكم المطلق على جميع الولايات الايرانيَّة الجنوبيَّة

ولكن الامر لم يتم لكريم خان على ما يريد حال موت هذا الخصم لان غيرهُ من الاعداء الطامعين في الملك كانوا كثيرين وفي جملتهم اسد خان صاحب اذربايجان فتحارب الاميران ودارت فيها الدائرة على كريم وقومهِ فاضطرَّ الى الفرار وترك اصفهان وشيراز وغيرها لعدوهِ .

ولما كان جيش اسد خان يطارده ورأى ان قوته لا تكفي لمقاومته
عزم على الرحيل الى بلاد الهند والبقاء فيها الى آخر العمر بعيدًا عن متاعب
الملك والقتال ولكنه لحسن حظه التقى في طريقه برجل باسل اسمه رستم
خان كان شيخًا على مدينة خشت وما يليها على حدود ايران وبلوخستان
فاشار رستم عليه ان يتربص للعدو في تلك الناحية حتى اذا جاءه جيش خصمه
تركه يتقدم الى وادٍ شهير يسمى وادي كوماردج ومتى صار الجيش الى هذا
الوادي امكن لعددٍ قليل من المحاربين ان يحصروه فيه من الجانبين
ويقتلوا افراده عن آخرهم فسمع كريم رأي صديقه واستعد للمخاطرة بحياته
وحياة الذين تبعوه من الاعوان الامناء في ذلك المضيق وتعهد له رستم خان
بالمساعدة وتحقيق الاماني . وصدق ظن الامير المقدام فان اسد خان جاء
وجيشه تلك البقعة ودخل ذلك الوادي بعينه وكان رستم خان قد وزع
الرجال في الجبال من الناحيتين ووضعهم بين الاشجار والصخور حتّى يمنعوا
الاعداء من الفرار ساعة القتال واقام قوة تذكر على طرفي الوادي في موضع
لم ينظرهم العدو حتّى اذا دخل كل جيش المطارد من ذلك الوادي
العظيم هجم عليه رجال رستم وكريم من كل ناحية واعملوا السيف فيهم وقاتل
جيش اسد خان قتال الابطال ولكن الموقع كان في قبضة اعدائهم فقتلوا منهم
عددًا كبيرًا واوقعوا الفشل فيهم ولم يتمكن الباقون من الفرار فقتلوا عن
آخرهم ولكن اسد خان تمكن من الفرار وقصد بلاد العراق فحارب فيها
بعض الامراء ودار في جوانب البلاد يومًا ينتصر ويومًا يرى الاهوال حتى
كره الحياة وسلم نفسه الى كريم خان طالبًا منه الصفح فصفح كريم عنه
واحسن معاملته وجعله صديقًا له ولذلك نسي اسد خان كل العداء القديم

وصار من اعوان كريم واخصائهِ

على ان اكبر اعداء كريم خان كان محمد حسن خان الذي ذكرناهُ وهو رئيس قبيلة قاجار الشهيرة وكانت هذه القبيلة ولم تزل الى الآن قوية جدًّا فتعب كريم خان تعبًا لا يوصف في اخضاعها ولم يكن نجاحهُ في ذلك الاَّ وقتيًّا لان امير هذه القبيلة ملك البلاد من بعدهِ واسس الدولة الحاضرة كما سيجيء . وظل محمد حسن خان يزيد قوتهُ في الانحاء الشمالية حتى اذا سمع بخضوع اسد خان لكريم خان استعد للقتال لانهُ لم يبقَ في البلاد غيرهُ وغير كريم فاراد قتلهُ والتخلص منهُ لتصير بلاد ايران كلها الى قبضتهِ وتقدم بجيش جرار على اصفهان فاضطرَّ كريم خان ان يهجرها ويلجأَ الى شيراز فجاء محمد حسن خان وملك اصفهان بلا مقاومة وكأَن الفوز الاخير لاح لهُ فشمخ انفهُ وغير طباعهُ وشدد الوطأَة على اهل اصفهان فنفروا منهُ وكان نفورهم هذا من اسباب سقوطهِ سيما وانهُ بعد هذه الامور سار بجيشهِ لمحاربة شيراز والقبض على كريم خان الذي كان محاصرًا فيها . فاظهر كريم خان في هذا الحصار بسالة غريبة وتأَنيًا اغرب لانهُ كان يدور في المدينة دائمًا بوجه باش ومحيا طلق فينشط الاهالي على الحصار وينصف في كل امر عرض عليهِ واستمر على ارسال الجواسيس الى جيش خصمهِ كل يوم ليلقوا بذور الفساد بينهم ويحسنوا لهم تركهُ والانضمام الى جيش كريم خان ونجح في ذلك نجاحًا تامًّا فاضطرَّ محمد حسن خان الى الرجوع عن شيراز والعود الى اصفهان ورأَى في هذه المدينة ايضًا ان الناس اخصامهُ وان قوتهُ قلت فتركها وعاد الى مازندران وهي بلادهُ الاصلية وعاد كريم خان الى اصفهان فلاقاهُ الاهالي بالترحاب والاكرام الزائدين وسمعت المدائن الاخرى بفوزهِ

فاظهرت لهُ خضوعاً وسروراً كثيرين وكثر عدد جيشهِ والمتطوعين لخدمتهِ فارسل جيشاً تحت قيادة واحد من زعماء جيشهِ لمحاربة محمد حسن خان واسترجاع مازندران منهُ وقام هذا الامير لمحاربة اعدائهِ بقلب قوي الاَّ ان الدهر خانهُ وكبا بهِ الجواد فتمكن الاعداء من قتلهِ وامر قائدهم ان يرفع رأسهُ على حربة فلما رآهُ الجنود انقطعت قلوبهم وفروا من امام اعدائهم فتم النصر بذلك لكريم خان بموت اعظم اعدائهِ واشدهم بأساً واصبح هو ملك ايران لا ينازعهُ في الملك منازع

واستراح كريم خان بعد هذا من القلاقل فحكم مدة طويلة حكماً لم يسمع في ايران باحسن منهُ واطمأنت قلوب الاهالي وبطلت الاهوال والمذابح من بلادهم ومنعت المظالم والمغارم وراجت الصناعة والتجارة والزراعة وتحسنت حال الأهالي تحسناً بيناً وكثرت موارد الثروة واقبل تجار الافرنج على انشاء المعامل والمتاجرة في كل انحائها . ولم يشب حكم كريم خان شائبة غير ظلم زكي خان ابن عمهِ وكان زكي هذا ظالماً عتياً يرسلهُ كريم خان في المهمات لبسالتهِ واقدامهِ ولهُ شهرة كبرى في القسوة الوحشيَّة والظلم الهائل ولعل كريماً اعطاهُ هذه السلطة لانهُ كان يعلم عنهُ الاقدام والقسوة ويريد ان يكون في البلاد عاتياً مثلهُ يرهب الاعداء واصحاب النفس الامارة بالسوء لان حالة البلاد تقتضي مثل هذا الارهاب ولان كريم خان نفسهُ كان يكره الظلم ولا يريد ان ينسب اليهِ

وحارب كريم خان الاتراك بعد ان استراح من كل اعدائهِ وكان السبب في الحرب ان والي البصرة اساء معاملة بعض الايرانيين فطلب كريم خان ان يقطع راس هذا الوالي ولم يجب سلطان الاتراك طلبهُ فارسل

كريم واحدًا من اخوتهِ واشهر قوادهِ هو صادق خان لاخضاع البصرة وقتل واليها وتم لهُ ذلك بعد عناء كبير وحصار ثلثة عشر شهرًا وضم مدينة البصرة الى املاك ايران والغريب ان سلطان الاتراك لم يهتم كثيرًا لهذا الامر ولم يجمع كل قوتهِ لاسترجاع هذه المدينة العظيمة

واستراح كريم خان بعد هذا راحة تامة وكانت البلاد كلها راضية بحكمهِ وجعل شيراز عاصمة ملكهِ وبنى فيها ابنية نخيمة مثل البساتين والاسواق والحمامات والجوامع التي لا تزال باقية الى الآن لان اكثر اعوانهِ كانوا فيها وعلى مقربةٍ منها واحسن الى الامناء من اهل دولتهِ وشدد على الظالمين واتى كل ما في وسعهِ لتعميم الامن والعدل في البلاد فتم لهُ ذلك ومات في الخامسة والسبعين من عمرهِ بعدان حكم ايران حكمًا مطلقًا نحو ٢٦ سنة وكانت وفاتهُ في سنة ١١٩٣ هجريَّة وترك لهُ اجمل ذكر في قلوب الايرانيين

واختلس الملك زكي خان بعد وفاة هذا الملك العظيم ولكن الناس كانوا يكرهونهُ فلم يتمتع بالسلطة زمانًا مع انهُ نصب ولدًا من اولاد كريم ملكًا وجعل نفسهُ وصيًّا عليهِ وكان اشهر اخصامهُ صادق خان اخو كريم وهو الذي اخضع البصرة كما مر فتقدم لخلع زكي وسمع ان هذا الامير استبدَّ ببقيَّة الامراء من عائلة كريم خان وقتلهم عن آخرهم وخاف ان يقرب منهُ فظل يحاربهُ عن بعد ولم ينجح في اول الامر فاضطر الى الفرار وظل زكي خان حاكمًا حتى قام لهُ خصم عنيد قوي هو آغا محمد خان جد العائلة المالكة الآن وكان هذا الامير اسيرًا في قبضة كريم خان مدة حياتهِ فلما سمع بوفاتهِ فر الى مازندران والف جيشًا قويًّا من قومهِ كسر القاجار بهِ شوكة زكي واضطرهُ الى القيام بنفسهِ لمحاربتهِ وحدث ان زكي خان اكثر من

الظلم والعسف مدة حكمهِ فقام عليهِ عساكرهُ وقتلوهُ

وملك بعدهُ صادق خان الذي ذكرناهُ الاَّ ان اخصامهُ من عائلتهِ كانوا كثيرين واشهرهم علي مراد خان وكان قائدًا باسلاً وبطلاً صنديدًا فوجه اليهِ صادق ابنهُ نقي خان لمحاربتهِ ونجح في أول الامر ولكن علي مراد خان ظلَّ يترقب الفرص حتَّى رأى ضعفاً من صادق وميلاً الى التمتع باللذات وترك الحكومة الى أولادهِ يديرونها حسب اهوائهم وطيشهم فقام لمحاربتهم وحاصرهم في شيراز وكان الاهالي يميلون اليهِ فنصروهُ على صادق ودخل علي مراد المدينة فاستلمها واضطر صادق واولادهُ ان يخضعوا لهُ فقتلهم عن آخرهم ما خلا جعفر خان ابن صادق خان لانهُ اظهر لهُ ميلاً قليلاً وكان ذلك في ١٨ ربيع أول سنة ١١٩٨ هجريَّة

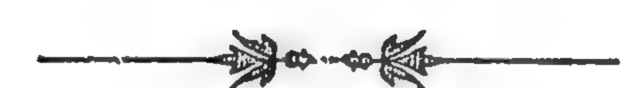
ومن ذلك اليوم صار علي مراد خان حاكم ايران ومليكها المطلق فنقل عاصمة ملكهِ الى اصفهان بدل شيراز الَّتي جعلها كريم خان قاعدة المملكة وبدأ يوجه كل همهِ الى اخضاع خصمهِ الوحيد وهو اغا محمد خان رئيس القاچاريَّة ولكنهُ لقي خصماً غيرهُ لم يكن ينتظر منهُ الضرر هو جعفر بن صادق خان عصى علي مراد خان فقام الملك لمحاربتهِ بنفسهِ وكان مريضاً فاشتدَّ عليهِ المرض في الطريق وقتلهُ في ١١ فبراير سنة ١٧٨٥ الموافق ٢٥ صفر سنة ١١٩٩ في قرية صغيرة على مقربة من اصفهان

وكان جعفر خان حليماً عادلاً يحب ترقية البلاد ولكن الدهر عاندهُ لان جلوسهُ على العرش طويلاً لم يكن من الامور الممكنة لكثرة اخصامهِ فان كل اقاربهِ كانوا يحاولون خلعهُ وثارت عليهِ ولايات كثيرة . هذا غير آغا محمد خان الشهير الذي كان يترقب موت علي مراد خان بذاهب الصبر

حتّى يقدم على فتح الطرق وتمَّ لهُ ذلك في مدَّة جعفر. وكان قواد جيشهِ ناقمين عليهِ لاسباب شتى فتآمر بعضهم عليهِ ودسوا لهُ السمَّ في طعامهِ وبين كان يتعذَّب مِن السمّ هجموا عليهِ وقتلوهُ وطرحوا رأسهُ في احد شوارع شيراز فانقضى حكمهُ وآل الامر الى ابنهِ لطف علي خان في سنة ١٧٨٦ الموافقة سنة ١٢٠٠ هجريَّة

وكان لطف علي خان بطلاً مقداماً وهماماً ضرغاماً لو يتيح لهُ الحظ او تساعدهُ الاقدار لتمت على يدهِ العظائم وكان في جملة السلاطين الشرقيين الذين لا يزال ذكرهم مثل تيمور وعباس ونادر وغيرهم . ولكن هذا الامير وجد في اتعس الاوقات وكان لهُ خصم لا يقاوم هو مؤسس الدولة الحاضرة فلم يمكن لهُ الوقوف في وجههِ ووجه الدسائس الكثيرة والظروف القاضية التي كانت تعمل على اسقاطهِ من كل جانب . وكان لهُ صديق هو الحاج ابراهيم مولى شيراز يساعدهُ على نوال المطلوب في اول الامر لانهُ صنيعة ابيهِ ولهُ نفوذ كبير على قبائل العرب في شيراز ونواحيها ولكن هذا الرجل رأى على ما يقال ميلاً من لطف علي خان الى الاعراض عنهُ او خلعهِ من المنصب نخانهُ وسلم مدينة شيراز الى خصمهِ اغا محمد خان ففرَّ لطف علي خان وظل اعواماً يقاتل خصمهُ القادر ويظهر من غرائب البسالة والاقدام ما لم يروَ عن غيرهِ من ابطال الزمان الاَّ اشهرهم فقد كان يحارب عشرين الفاً من ابطال آغا محمد خان وليس معهُ غير بضع مئاتٍ ولا يفر من امامهم ولطالما خرق الصفوف واجتاز الالوف والحسام مشهر بيدهِ وهو وحيد يقاتل الابطال من هنا ومن هنا حتى هجرهُ الخلان وخانهُ الزمان فلم يبقَ معهُ غير اربعة رجال حافظوا على ولائهِ فاضطرَّ الى الاختفاء والبعد عن الاعداء وكان

يختفي ويعود حيناً بعد حين ومعهُ ما لا يتجاوز المئين من المقاتلين فيفوز ويظفر ولكن تأني خصمهُ وكثرة معداتهِ تغلبت على بسالتهِ وكان خصمهُ باسلاً جسوراً ايضاً وحكيماً فطناً . وفي آخر الامر فرَّ لطف علي خان من كرمان بعد ان اخضعها لان اقا محمد خان تقدم عليها وفتحها عنوةً وظلَّ سائراً بمفردهِ حتى وصل مدينة نرماشير على مقربةٍ من افغانستان فقابلهُ حاكمها بالترحاب واستراح ليلة عندهُ الاَّ ان هذا الحاكم طمع في الجائزة فغدر بضيفهِ وهجم عليهِ مع بعض اعوانهِ فقاتل لطف علي خان عن نفسهِ قتال الاسود الكواسر وقتل كثيرين من اعدائهِ ولكن العدو غلبهُ واثخنهُ جراحاً فسقط من الم الجراح وربطهُ القوم فساقوهُ على هذه الحال الى اقا محمد خان فامر ان تفقأ عيناهُ وزجهُ في السجن ثم امر باعدامهِ بعد قليل وهكذا انتهت دولة كريم خان وآلهِ وصارت ايران ملكاً للدولة القاچارية سنة ١٧٨٨



مجمل تاريخي

لقد وصلنا الى تاريخ العائلة القاچارية الحاكمة الآن على بلاد ايران فرأينا ان نجمل الذي مرّ ونصف حال ايران وصفاً موجزاً في ايامها الاولى وشؤونها الغابرة الى ان تولى امورها المغفور لهُ اقا محمد خان اوّل هذه الدولة العظيمة فنقول :

كانت بلاد ايران ولم تزل الى الآن مركزاً للحكم المطلق يتصرف فيها الحاكم على ما يريد او على ما يوافق مصلحة البلاد ولكن الامة جرت على سنّة الامم الاخرى في انها كانت تحتمل الضيم الكثير والجور الهائل من حكامها يوماً ولا تطيق على الاعتساف صبراً يوماً آخر فتقوم على ملوكها وتخلعهم وتولي غيرهم وكان هذا سبب الشيء الكثير من الثورات والقلاقل التي لم تقم بلاد بدونها ولا بدّ عنها في بلاد مثل ايران تسير بمقتضى ارادة المليك المطلق ويكثر ان يكون هذا المليك مائلاً الى الاثرة في ايام الحروب والثورات

وفي تاريخ ايران ما يدل على صفاتٍ كثيرة تمدح في هذه الامة لم تزل فيها من ذلك كرم الاخلاق وحب الضيافة والمروءة ولين الجانب من الجار والصديق والبسالة في الحرب والذي يقرأُ تاريخ ايران من اول امرها الى الآن ويتذكر انها محاطة من كل جانب بالاعداء والمخاصمين وكلهم من الطوائف الحربية مثل العرب والتتر والجراكسة والاشوريين وغيرهم يحكم في الحال ان قيام مثل هذه الدولة وانتصارها على جميع القارة واخضاعها الممالك الواسعة وضمها الاقطار الشاسعة لم يكن بغير بسالة تذكر ودراية تشكر يقرُّ بها المؤرخون كلهم لجماعة الايرانيين. غير

ان التاريخ يذكر لهذه الامة ادواراً من الخمول مثل الذي تولى كل بلاد في بعض الازمان فقد تحمل الايرانيون من ظلم عائلتي چنكيز وتيمور كثيراً وذلك لتمذهب هاتين العائلتين بمذهب الايرانيين · وكانوا على ما يظهر راضين وقد اخلدوا الى السكون حتى قام فيهم الابطال والقوّاد الكرام فطردوا المعتدين ونظموا الحكومات واعادوا ايران الى عزها السابق .

واما معارف ايران فلا تختلف كثيراً عن معارف بقية الاقدمين وتدل آثارهم الى انهم اقتبسوا شيئاً كثيراً من جيرانهم البابليين والاشوريين واليونان ايضاً واضافوا ذلك الى فنونهم الخصوصية فوصلوا قبيل الاسلام الى اعلى درجات العز والمجد ولم يروَ في التاريخ ان مليكاً بذخ وتنعم مثل الاكاسرة العظام الذين كانت تأتيهم الهدايا والجزيات من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الاقصى والشرق الادنى حتى بلغت واردات الممالك في مدة (خسرو پرويز) الذي مزّق كتاب النبي (صلعم) بملايين من الدنانير سنوياً ولا ذكر في اقاصيص الامم ان ملكاً جمع جيشاً جرّاراً هائلاً مثل الذي تمّ لزركسيس جمعهُ في القرن الخامس قبل المسيح حين عوّل على محاربة اليونان واخضاعهم · ولم يغير الايرانيون ديانتهم وعوائدهم بعد الفتح اليوناني مثل سواهم من الامم بل ظلوا على تقاليدهم الاولى وامتازوا بذلك عن اكثر الامم الاخرى · هذا غير انهم عادوا وقاموا بعد ذلك السقوط ونشأت في بلادهم الدول العظيمة نالت شهرة واي شهرة ووسعت نطاق املاكها الى اكثر من ايام كورش وداريوس في حين ان المصريين والسوريين والاشوريين وغيرهم من اهل الدول الاخرى ظلوا خاضعين لسواهم ولم تقم لهم قائمة من بعد ايام الاسكندر

واما الذي يعرف عن تاريخ ايران القديم فاكثره منقول عن الكتب

الايرانية وقد كتب مؤرخو اليونان عن ملوك ايران الاول ولكنهم غيروا الاسماء تغييراً هائلاً ونسبوا الى كل ملك ما لا اثر لهُ في تواريخ الايرانيين من الحكايات حتى ان الفرق بين الروايتين عن الملك الواحد لا يقل عن الفرق بين حكاية احد ملوك انكلترا واحد سلاطين اليابان · وتعبنا تعباً زائداً في التوفيق بين الروايتين وكنا في اكثر الذي نكتب نضع اسم الملك على اصطلاح الفريقين كما رأيت في الفصول التي مرَّت الى ان بدأ الاتفاق في الروايتين يظهر من بعد فتوح الاسكندر . ولكن تاريخ ايران كلهُ لا يمكن التعويل على جميع فصولهِ ولا بدَّ من وجود المبالغة والميل فيهِ ولا تعرف سني حوادثهِ بالتدقيق الآ من مدة السلطنة الساسانية الى عهد الفتح الاسلامي وما بعدهُ وهو الحادث العظيم الذي قلب نظام ايران قلباً وغير منها الظاهر والباطن وصيرها بلاداً جديدة وامة جديدة واوصل الينا اخبارها بالتدقيق والتفصيل ولهذا يرى القارئ الكلام مسهباً في الفصول التي تلي الفتح الاسلامي وان يكن موجزاً في بعض الاحايين لان شهرة بعض الامراء وفعالهم لم تقتضِ الشرح الطويل

واماَّ لغات ايران القديمة فاشهرها الفارسية والپهلوية · والفارسية نسبةً الى فارس وهي اسم لولاية واقعة في جنوبي ايران متاخمة السند وبحر الهند والخليج الفارسي وكان لهذه الولاية اهمية وشهرة في عهد كورش ومن تلاهُ من ملوك دولتهِ لتغلبهِ على ممالك شاسعة يدلُّ عليها بقاء اللغة الفارسية مع غلبة الاتراك والعرب على ايران في مدة ازمنة طويلة . وعرفت البلاد باسم فارس ولم تزل الى يومنا تعرف بهذا الاسم في بلدان اوربا ولكن ايران هو الاسم الحقيقي للبلاد وهو المعروف والمعوَّل عليهِ من اقدم الازمان فتسمية البلاد ببلاد الفرس من قبيل تسمية الكل باسم البعض · وهم يرجحون ان بلادِ بخارى وبكتريا وبلخ وما وراء

النهر كانت تتكلم اللغة الفارسية لما تقدم من غلبة كورش وخلفائهِ على هذه الممالك . ويرى الذين يبحثون في اصول اللغات تشابهاً غريباً بين اللغة الايرانية ولغات اوربا التونونية (غير اللاتينية)

وقد طرأ على اللغة الفارسية تغيير كثير من بعد الفتح الاسلامي واعتناق اهل ايران دين الاسلام فاضطرهم ذلك الى حفظ القرآن الشريف والعربية ونشأ عنهُ ما حدث في كل لغة من لغات اهل الاسلام وفي كلها اثر ظاهر للغة القرآن العربية واما اللغة البهلوية التي ذكرناها فقد كانت لغة اهل مادي القدماء وبلاد مادي تعرف باسم اذربايجان والعراق العجمي التي عاصمتها اصفهان في هذه الايام . والظاهر من التواريخ القديمة ان البهلوية سبقت الفارسية في السيادة على السنة القوم وكانت اللغة الرسمية ولسان الطبقة العليا الى ان قام كورش الفارسي المشهور وهو كيخسرو او بهمن ابن اسفنديار على (اختلاف المؤرخين) فجعل الاسبقية بلغة بلادهِ . ومن ثمَّ امتزجت اللغتان وظلَّ فيهما آثار من لغة بكتريا او بلاد ما وراء النهر وصار هذا المزيج لغة ايران ثم دخلهُ شيءٌ من لغة العرب فصارت اللغة المعروفة الآن وهي اوسع لغةٍ شرقية لسبب دخول العربية والتركية وغيرهما فيها ولا حاجة الى الاطالة في وصفها

واما ديانة الايرانيين الاقدمين فقد امتازت عن كل ديانة اخرى — في الديانات المنزلة — بخلوها من الخرافات وبقربها الى الصحيح قرباً عجيباً فقد كان القوم يسجدون لله عزَّ وجلَّ من دون سواهُ في اول الامر ثم جعلوا يمجدون الشمس والقمر والنجوم واجرام السماء مثل غيرهم من الاوائل وظلوا على ذلك زماناً طويلاً حتى بطلت عبادة الكواكب وصار الايرانيون يسجدون للنار ويمجدون النار على قول الفردوسي المؤرخ الشهير ولا يبعد عن العقل ان تكون كذلك لان عبادة

الشمس طبيعية في المرء في حالة السذاجة الاولى وهو يظنها معدن الخير والواقية لهُ من الظلمة والبرد والحامية من الموت والخطر فيعبدها و يجل قدرها والذي يعبد الشمس يعبد النار ايضاً لانهُ يرى منهما تشابهاً و يظنهما من اصل واحد٠ واما الاصنام التي عرفت عن الايرانيين قبل اخذهم النار قبلةً لهم فتشبه اصنام الاشور يين فقد كان تمثال زحل عندهم على هيئة انسان في الجسم لهُ رأس قرد وذنب خنزير وكان المشتري على هيئة انسان لهُ رأس عقاب و بعض اوضاع التنين وكانوا ينحتونهُ دائمًا من الحجر الاسود٠ واما المريخ وهو اله الحرب عند اكثر الشعوب القديمة فكانوا يصنعونهُ من الحجر الاحمر على شكل انسان في يدهِ الواحدة خنجر وفي الاخرى سوط٠ وتمثال الشمس من الذهب كانوا يصنعونهُ في شكل انسان لهُ رأسان وفي كل راس تاج لهُ سبعة اركان مرصعة بالجواهر ولهُ ذيل تنين والقمر من الفضة وهو شكل انسان راكباً بقرةً بيضاء ولكل كوكب آخر هيئة خاصة بهِ في التماثيل الايرانية٠ وكان القوم يبنون معابدهم على شكل هياكل اشور و يقدمون البخور على مذابح آلهتهم ويلبس كهنتهم الملابس البيضاء النقية و ينذرون الزهد والعبادة واقرب العبادات الدينية الى هذه عبادة الصابئين

واما زردشت او زرادشت او زرتشت صاحب الديانة الشهيرة فاكبر المصلحين الايرانيين علَّم بوحدانية الله وقال انهُ نورهُ يسطع في كل ما يشرق او يلتهب في الكون وهذا هو سر اكرام اهل شيعتهِ للنار حتى ان بعضهم صار يعبدها خطاءً مع انها في الاصل تقام في المعابد بدلاً عن عبادة الشمس. وعلم زردشت بوجود عامل واحد للخير كنايةً عن العقل وواحد للشر كنايةً عن الجهل لكلٍ منهما قوّة فعّالة تخلق وتوجد كل شيءٍ فكان الواحد يوجد الصالح والآخر يوجد الطالح وهذا هو سبب ما نراهُ في الارض على قولهِ ولكن هرمز او هرمزد او هرمس او اورمزد

الذي هو رب النوع للعقل لا بدَّ لهُ من التغلب على اهرمن (الشيطان) الذي هو رب النوع للشرّ لان قوّتهُ ابدية خلافاً لقوّة اله الشرّ وعلم زردشت تعاليم ادبية نفيسة سامية وحرَّم كل اشكال الشرّ وكتب تعاليمهُ في كتاب اسمهُ زندواوستا هو محل الاعتبار والاكرام الكثير الى اليوم وابطل الاصنام وامر بالاتجاه الى جهة الشمس او النار ساعة الصلاة لان النور رمز الى الاله كما تقدم وامر بعدم تدنيس العناصر الاربعة وهي النار والهواء والتراب والماء وبالشفقة على الحيوانات والتزام الفضائل بين الناس والامتناع عن اكل اللحم ما امكن وكانت ديانتهُ كما تقدَّم انقى الديانات الاولى واقربها الى الصواب . وكان العلماءُ قد سنوا للزردشتيين شرائع مختلفة فحرَّموا عليهم الاشتغال بالاشياء التي تستلزم النار فاقتصروا في اعمالهم على الفلاحة والتجارة ولا يزالوا كذلك الى الآن . وصعوبة هذه الاحكام قد سهلَّت للمسلمين ادخال هؤلاء في ديانتهم

ولما دخل الاسلام البلاد وانتشر فيها بدخول الفاتحين سقطت الاديان القديمة وتلاشت سلطتها بانتشارهِ ولم يزل بعض المجوس او الذين على مذهب زردشت كثاراً في ايران والهند وهاتيكم الانحاء . واما علوم الفرس ومعارفهم فكانت في اسمى درجة مدة الملوك الكيانية وكان لهم اعتناءٌ زائد في جمع الكتب والآثار القديمة حتى ان الاسكندر المكدوني بعد ما تغلب على بلادهم ارسل الف حمل جمل وبغلة من الكتب والآثار من اسطخر الى وطنهِ وامر بترجمة ما يستحق واحرق كثيراً من كتبهم الدينية كما ان العرب احرقت مكاتبهم العالية عند الفتح حتى لم يبقَ عندهم كتاباً الاَّ مع الذين هاجروا البلاد وسكنوا الهند وهم باقون فيها الى الآن بعقائدهم الاصلية وعوائدهم القديمة وكتبهم الاصلية وكل ما نعلمهُ الآن عن معارف الايرانيين قبل الاسلام قليل لايذكر بسبب انقلاب البلاد وتغير كل

ما فيها بعد الفتح الاسلامي ولكننا نعلم ان البلاغة وفنون البيان والموسيقى والشعر والنقش والبناء والفلك والطب وبعض الفنون الاخرى وصلت الى درجة تذكر في ايام انوشروان وكسرى پرويز وغيرهم من ملوك الدولة الساسانية . هذا غير ان الايرانيين في ايام الدولة الاشكانية المعروفة عند الاوربيين بارزاس كانت عَلَى جانب عظيم من التقدم وادخلت اليها من معارف الهند ومصر والشام واليونان كل ما يذكر ويشكر

واما بعد الاسلام فتاريخ ايران من حيث العلوم والمعارف لا يختلف كثيراً عن تاريخ الاسلامية الاخرى واهم ما يقال فيهِ ان الامن لم يستتب طويلاً الاّ في حكم الملوك الذين طالت مدتهم مثل الدولة السلجوقية والصفوية وغيرهما ولهذا فالبلاد ظلت مدة طويلة قبل ان حكمتها الدولة الحالية لا تفرق شيئاً عن يوم دخلها المسلمون ولا تمتاز بشيءٍ من المعارف والعلوم على انهُ قام فيها من رجال العقول واصحاب المواهب السامية كثيرين اشرنا اليهم في هذا التاريخ . واسماء الايرانيين الذين اشتهروا بمؤلفاتهم مثل الفيروزبادي وسيبويه والفردوسي والاصفهاني والحافظ الشيرازي وابن سينا وناصر الدين الطوسي وغيرهم كثير يتوارد ذكرهم من حين الى حين على طلبة العلم واهل الادب واشهرهم الفردوسي الشاعر المؤرخ صاحب الشاهنامة المعروفة التي اخذنا عنها اكثر ما قلنا في تاريخ ايران القديم وهي من ابلغ ما نُظم وارقهُ في لغات الارض اجمع لسنا نظن ان صاحبها يقل في شيءٍ عن اعظم شعراء الزمان والمؤرخين مثل هوميروس اليوناني وشاكسبير الانكليزي وغيرهم . ولم يقم في العرب شاعر الَّف التواريخ المطولة شعراً مثل هذا الايراني الشهير الذي يبلغ كتابهُ ستون الف بيتٍ من الشعر وقلما يوجد فيهِ كلمة اجنبية

ولما كان مؤرخو اليونان الذين يرجع اليهم في اخبار الدول الاولى لم يذكروا شيئاً عن الدولة البيشدادية فقد نقلنا كل اخبارها عن الفردوسي في هذا التاريخ والظاهر انهُ هو نقلها كما نقل سواها عن كتابات پهلوية قديمة ولكنها كثيرة المبالغة كما هي عادة كل الامم القديمة فاننا اذا صدقنا روايتهُ عن كيومرز جعلنا هذا الملك في زمن آدم عليهِ السلام واذا سلمنا معهُ بطول المدة التي ظلّ افريدون حاكماً فيها وهي قولهُ سبعمائة سنة لم يمكن لنا ان نوفق هذا على القواعد العقلية . ومثل هذا يقال في حكم الضحاك بن علوان الذي قيل انهُ ملك البلاد وظلمها الف سنة ولا يصدق هذا الاَّ اذا كان الضحاك عمومياً لملوك كثيرين من اهل اشور او الشام ملكوا البلاد وشددوا عليها الوثاق او اسم عائلة امتد ملكها الى كذا مئات من السنين

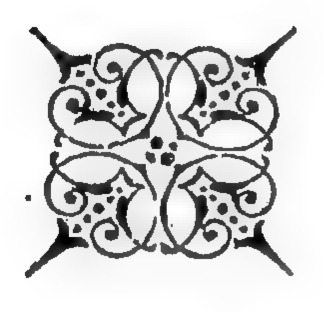
والحاصل ان رواية الفردوسي عن ملوك ايران الاول تبعد عن العقل كما صرَّح في اول كتابهِ "انما يخالف العقل منها يشير بهِ الى مطالب رمزية". واقوالهُ مشهورة بطلاقتها واما حكاياتهُ فلم نروِها الاَّ من قبيل ايراد الحكايات المشهورة ولسنا نجزم بصحتها وان يكن لبعضها اثر من الصحة

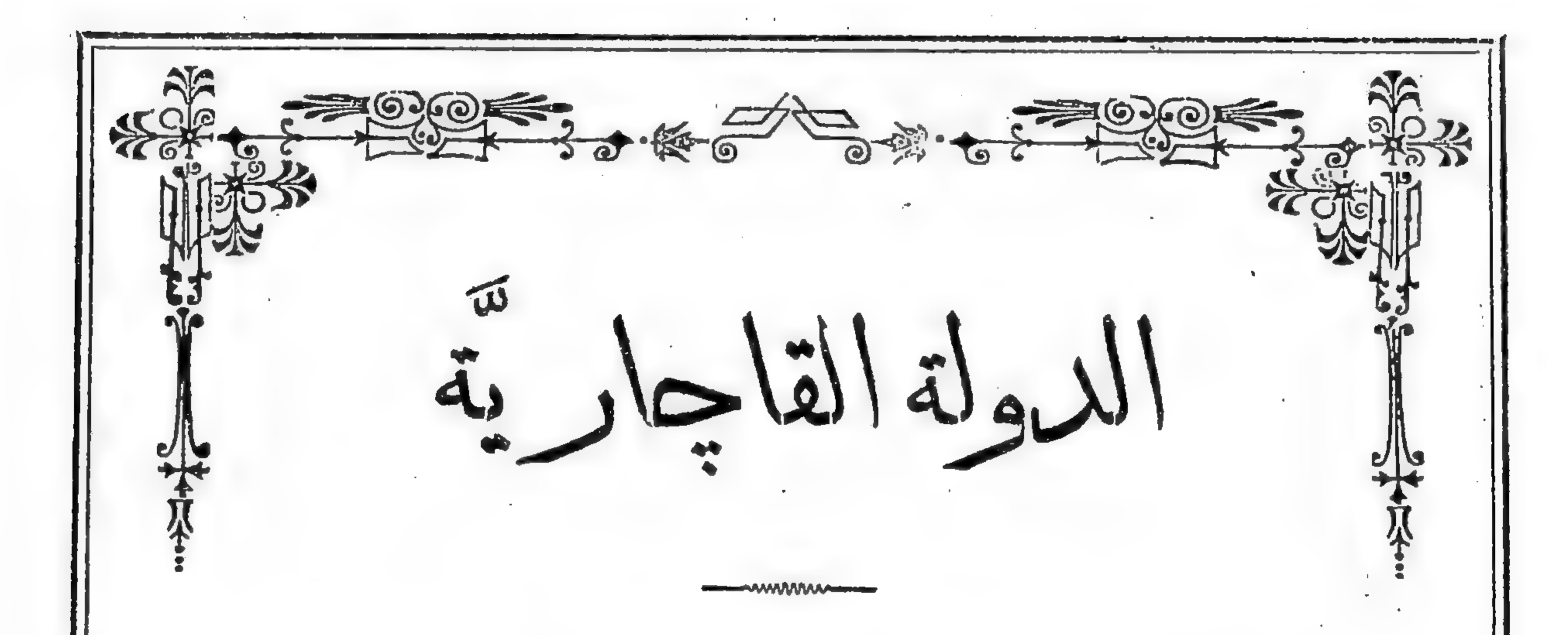
واما عوائد الايرانيين القدماء وطرائق معيشتهم فيمكن للذي امعن النظر في التاريخ السابق ان يعلم اكثرها لان معيشة الاقوام والبلدان التي تواظب على الحرب والفتح واحدة في كل بلاد. وغاية ما قيل ان هذه الامة عرفت بلين الجانب وحب الضيافة وكرم الاخلاق والجراَءَة في الحرب من اقدم الازمان واذا صدقت رواية الفردوسي فاكثر الذي كان في ايامهِ من نظامات المدنية وامور الشرف والانسانية كان في ايام اجدادهِ الاول

غير انهُ لا ريب ان الايرانيين القدماء كانوا يكرمون النساء ويعظمون

قدرهنَّ ويجلوهنَّ محل الاعتبار وكان هذا حال النساء في ايران قبل ايام زردشت و بعده

واشتهر الايرانيون بجمال مناظرهم واحترامهم لرؤساء العائلات وميلهم الى الحكومات المستبدة ورغبتهم في اللهو والطرب من اول عهدهم . وهذا اكثر ما يعرف عنهم بوجه الاجمال





الدولة القاجاريَّة

ان هذه الدولة العليَّة من قبيلة قاچار المشهورة وهي التي سكنت بلاد استراباد وشمالي ايران اجيالاً من قبل ان يقوم مؤَسسها و يجعل السلطة كلها في قبضة يدهِ . ومؤَسس الدولة الحاليَّة هو آقا محمَّد خان ابن امير من وجوه القاچاريَّة كان من سوءِ حظهِ انهُ لما ملك عادل شاه بلاد ايران ارسل يطلب اثنين من امراءِ العائلة القاچاريَّة فارسلوا لهُ محمَّد خان واخاهُ واساءَ عادل شاه معاملة محمَّد خان فكان من وراءِ سوءِ معاملتهِ لهُ سبب اشتهار هذا الملك العظيم باسم آقا محمَّد خان وهو الذي ذكرنا طرفاً من اعمالهِ في الفصل الماضي ولكن المقام الآن يقتضي شيئاً من التكرار

ولما ملك البلاد كريم خان زند ارسل وراءَ آغا محمَّد خان ايضاً وجعلهُ من اخصائهِ وكان يستشيرهُ في امور الدولة لانهُ رأى من ذكائهِ واقتدارهِ شيئاً كثيراً فلم يضن محمَّد خان برأيهِ مع انهُ كان يكره كريم خان وعائلتهُ كرهاً غريباً وينوي لهم الشر

ولما مات كريم خان فرَّ محمَّد خان من شيراز بسرعة غريبة ووصل الى طهران بعد ثلثة ايام فاشهر في الحال استقلالهُ وجعل من ذلك اليوم ينازع الدولة الزنديَّة علَى الملك وكان خصمهُ الاكبر لطف علي خان ابن اخي كريم خان وهو

الذي قلنا انهُ حارب مؤسس الدولة الحالية محاربة الابطال زماناً طويلاً فانتصر محمَّد خان عليهِ انتصاراً تامًّا وكان محمَّد خان مثل خصمهِ بطلاً جسوراً ولكن ذكاءهُ المفرط كشف كل فضائلهِ الاخرى حتى انهُ كان يستعيض عن القتال والمخاطرة بحياة الرجال بالطرق السياسيَّة ويفوز في اكثر الاحيان

ولما وصل محمَّد خان بعد فرارهِ من شيراز الى بلادهِ الاصليَّة تألب حولهُ ابطال القاچاريَّة لانهُ كان اكبر امرائهم ونصروهُ بجنودهم فجعل يستعد لمحاربة الخصوم وكان اول من حاول محاربتهُ بعض اخوتهِ فلم يفلحوا سعياً واضطروا الى الفرار واحدهم وهو مرتضى قلي خان قصد امبراطورة الروس كاترينا وجعل نفسهُ آلة في يدها يدس الدسائس لاخيهِ ويعمل على خلعهِ وتساعدهُ امبراطورة الروس بقصد تنصيبهِ ملكاً على ايران في الظاهر و بقصد امتلاك ايران في الداخل ولكن هذه المساعي ذهبت ايضاً ادراج الرياح كما سيجيء في حينهِ .

وكان اثنان من اخوة محمد خان مخلصين لهُ واحدهما جعفر خان وهو من الابطال الصناديد ورجال الرأي المعدودين خدم اخاهُ خدمة جليلة ولولاهُ لما تم لمحمد خان الاستيلاء على مملكة ايران العظيمة

وكان من امر محمَّد خان بعد ان خلص من متاعب اخوتهِ الذين ذكرناهم انهُ سار على سياسة قويمة مهدت لهُ سبل النجاح لانهُ عفا عن كثيرين من خصومهِ واعدائهِ واجتهد في ضم كلمة القاچاريين على اختلاف مشاربهم فربح بهذا قوة فاتت جعفر خان الذي خلف كريم خان وجعل دأبهُ محاربة بعض ابناء قبيلتهِ فقسم رجالهُ قسمين وغنم الضعف في حين ان محمَّد خان غنم القوة من الاتحاد.

ولم تقتصر مساعي محمَّد خان على رجال القاچاريَّة بل شملت جميع القبائل الاخرى المجاورة لبلادهِ وكان ذلك من اكبر اسباب تقدمهِ وخلو البلاد من المناظرين

لهُ فقد كان علي خان زعيم قبيلة الافشار خصماً لهُ في اول الامر واستعد لمحاربتهِ فتقدم محمد خان للقتال ولما اجتمع الجيشان وكانا على وشك الاشتباك في قتال عنيف ارسل محمد خان احد اخوتهِ الى علي خان ليقول لهُ على مسمع من قواد جيشهِ واكابر قبيلتهِ ان مقاتلة القبيلتين العظيمتين الباسلتين تشمت الاعداء وتحزن الاصدقاء وان محمد خان يريد الاتحاد والمودة ولا يريد القتال ليس خوفاً من العداء بل حبًّا بالوداد والتعاون على الاجانب والمعتدين فهو يدعو علي خان الى المصالحة وينصحهُ بحقن الدماء . فاثرت هذه النصيحة في رجال علي خان تأثيرًا كبيرًا حتى ان ذلك القائد لم يجسر على مخالفتهم مع علمهِ بنتيجة الاتحاد مع محمَّد خان فقبل بالصلح وتمَّ الاتفاق بين الزعيمين على ان يكون محمد خان كبير القبيلتين وعلي خان اكبر وزرائهِ وظلَّ محمد خان يظهر لغريمهِ اللطف والوداد حتى اذا نسي علي خان الاحقاد بطش بهِ في حين غرة وفقأ عينيهِ وسجنهُ حيث لم يعلم بهِ احد واتى كل تدبير سابق حتى ان رجال الافشار لم يشقوا عصا الطاعة بسبب معاملة رئيسهم على مثل ما ذكرنا وان يكن الذي ظهر من غيظهم وسخطهم كثيرًا

واما محاربة آقا محمد خان مؤسس هذه الدولة ولطف علي خان فامر يطول شرحهُ وقد مرَّ ذكر بعضهِ ولكننا نذكر بالاختصار ان محمد خان كان في اول الامر صاحب الامر والنهي في شمالي ايران وقاعدتهُ طهران ولطف علي خان صاحب ايران الجنوبيَّة وقاعدتهُ شيراز

وكان حاكم شيراز واسمهُ الحاج ابرهيم في اول عمرهِ تاجرًا ولكن كان من دهاة الرجال واصحاب النظر الصائب فساعد لطف علي خان بقوة رجالهِ وبحسن سياستهِ مساعدة كبرى ولكن ذلك الفتى الباسل الذي خانهُ الدهر مع

انهُ من ابطال الزمان المعدودين اساءَ الظن يوماً في وزيرهِ يوم كان سائرًا لمقاتلة جنود محمد خان فبدل ان يترك لهُ الامر على شيراز مدة غيابهِ كالعادة وكَّل غيرهُ في الادارة واعطى قيادة الجند لرجل ثالث فاستاءَ الحاج ابرهيم من ذلك وكثر سوء الفهم بينهُ وبين مولاهُ حتى ان لطف علي خان جعل يفكر في عزل وزيرهِ ولحظ الحاج ابرهيم ذلك فانتهز فرصة غياب مولاهُ عن شيراز في احدى غاراتهِ وسلم المدينة لاحد قواد آقا محمد خان بعد ان خابرهُ بذلك . ومن ذلك اليوم لم تقم للطف علي خان قائمة مع انهُ اظهر ما لا يصدق من اشكال البسالة واستولى على مدينة كرمان باقل من اربعمائة جندي وكسر ثلثين الفاً من جنود محمد خان ومعهُ خمسمائة رجل فقط ولكن السعد خانهُ في تلك المعركة لانهُ ظن ان محمد خان فرَّ مع من فرَّ من رجالهِ وكان ذلك في الليل فارجع جنودهُ عن معسكر محمَّد خان على ان يملك ما فيها بنفسهِ في الصباح فلما اصبح رأى ان محمد خان لم يزل في محلهِ وان قوتهُ كبيرة فلو انهُ تابع النصر في الليل الفائت وهجم على خيمة خصمهِ لتمكن منهُ ونال مرادهُ ولكن اغترارهُ ورجوعهُ اضاعا منهُ كل ما اتمهُ ببسالتهِ فاضطرَّ الى الفرار الى كرمان وتحصن فيها وتبعهُ محمد خان فشدد الحصار على المدينة حتى لم يبقَ امل للطف علي خان بالبقاء فيها فخرج منها في احدى الليالي بسبعين رجلاً من اعوانهِ الامناء وشق جموع القاجار بين بسيفهِ فقتل من قتل من رجالهِ واما هو فنجا وملك محمد خان كرمان ولكنهُ اظهر من اهلها غيظاً عظيماً لانهم سلموا لخصمهِ في اول الامر ثم مكنوهُ من الفرار فامر جنودهُ ان لا يبقوا على احد منهم فقتلوا نحو ثلثين الفاً ولم يكفوا عن القتل الاَّ لانهم تعبوا منهُ واستعبدوا عدداً كبيرًا من النساء والاطفال

واما لطف علي خان فانهُ التجأ الى بعض القبائل وعاد الى احوالهِ

وزحف على شيراز بقوة قليلة فاضطرَّ الى الرجوع عنها ورجع الى حدود افغانستان فاضافهُ احد الامراء ولكنهُ خانهُ وسلمهُ الى محمد خان بعد ان جاهد لطف علي قبل ان قبضوا عليهِ جهاد الاساد ولكنهُ كان وحيداً وكثر عليهِ الاعداءُ فلما صار الى قبضة آقا محمد خان امر ان تفقأ عيناهُ ويزج في السجن ثم قتلهُ بعد ذلك بقليل بعد ان اكثر عذابهُ وانتهى بذلك دور من الادوار الغريبة فخلا الجو لآقا محمد خان واستتب لهُ الحكم على كل بلاد ايران بعد ان قضى ١٨ عاماً في مثل هذه الحروب والمساعي

ولما تمَّ لهُ الامر شرع في تنظيم بلاد ايران وكفِّ القلاقل عنها فاستعمل السياسة المعروفة عنهُ وقرب الاذكياء وشدد الوطأة على الاعداء والاشقياء وكان من اسرار نجاحهِ انهُ يعرف الاكفاء من الرجال ويستفيد برأيهم ويعفو عن الخصوم اذا رأى في العفو نفعاً ولم يروَ انهُ اظهر ميلاً شديداً الى الانتقام الاَّ مع خصمهِ الباسل لطف علي خان الذي ذكرناه وزاد على هذا انهُ نقل عظام كريم خان ونادر شاه الى طهران ووضعها تحت عتبة قصرهِ حيث كان يمر كل ساعة فكان ذلك تشفياً من ملكين لم يقم اعظم منهما بين ملوك ايران ولم يمدحهُ عليهِ المؤرّخون

قلنا ان جعفر قلي كان اصدق اخوة محمد خان وانهُ ساعدهُ على النصر كثيرًا وحارب اعداءهُ زماناً طويلاً وظل على الاخلاص لهُ الى ان قرَّ رأي محمَّد خان على جعل ابن اخيهِ الثاني وريثاً لهُ على الملك فغضب جعفر خان من هذا ورجا أخاهُ ان ينقلهُ الى اصفهان ليكون حاكماً عليها فأبى السلطان عليهِ ذلك وولاهُ على قسم من بلاد مازندران وحدث بعد هذا ان محمد خان استدعى اخاهُ جعفرًا ليأخذ رأيهُ في احدى المسائل فلم يحضر وظن السلطان ان ذلك

بادئة الشر والعصيان فاتى كل حيلة لاستمالتهِ واقنعهُ في آخر الامر ان يزور طهران ليلة واحدة حتى يراهُ بعلة الشوق اليهِ فجاء جعفر خان وقابلهُ اخوهُ بكل حفاوة واكرام حتى اذا اوشك النهار ان ينقضي اشار عليهِ ان يدخل قصرًا جديدًا بناهُ مدة غيابهِ ويتفرج على محاسنهِ فدخل الامير ليتفرج وكان بعض القاتلين هنالك بانتظارهِ فقبضوا عليهِ وقتلوهُ . ولما سمع اهل طهران بهذا هاجوا هياجًا شديدًا عظيماً وظهرت من الجيش حركة لا تحمد لان جعفرًا كان محبوبًا من الجيش على بسالتهِ ومن الامة على صدقهِ وشهامتهِ فادرك محمدخان الخطر وجاء الى ابن اخيهِ الذي جعلهُ وليًّا لعهدهِ ووارث ملكهِ من بعدهِ فابدى السخط منهُ واهانهُ كثيرًا امام القواد والوزراء وهو يقول لهُ انهُ اضطر الى قتل اعز اخوتهِ واصدق خلانهِ اكراماً لخاطرهِ لان جعفر خان اقسم ألاَّ يطيع ابن اخيهِ من بعدهِ فاضطر ان يقتلهُ ليبقي الملك لولي عهدهِ . وكان محمد خان يقول ذلك والاسف ظاهر على وجههِ وهو ينوح و يندب اخاهُ حتى صدقهُ الحاضرون وشاع بين الناس خبر حزنهِ فلم يتعدَّ هياجهم حد الكلام وصرفت المسألة على ذلك

وحارب آقا محمد خان قبائل التركمان المجاورة لاستراباد لان قطاع الطرق منها كثروا ولان مشايخها كانوا يجيرون كل فارّ من حكمهِ فانتصر عليهم انتصارًا تامًّا ونكل بهم تنكيلاً واستعمل الصرامة في تأديبهم حتى اخلدوا الى السكون وكان ذلك آخر ما عرف عن قلاقلهم

وكانت بلاد الكرج والقوقاس من الممالك التابعة لايران ولكن اميرها هرقل سعى كثيرًا في الاستقلال فلما رأى ان ايران في حروب مستمرة ايام محمد خان فاوض دولة الروس وكان بطرس الاكبر من زمان بعيد ينوي ضم تلك البلاد الى مملكتهِ فلما خلفتهُ الامبراطورة كاترينا وجدت هرقل على تمام الاستعداد للاتفاق معها

على ما تريد فعقدت معهُ محالفة مشهورة اهم بنودها ان بلاد الكرج اصبحت تحت سيادة روسيا بدل ان تكون تحت سيادة ايران وانها تضمن الملك على تلك الامارة لامارة هرقل ونسلهِ . فلما سمع آقا محمد خان بهذا التحالف سار الى بلاد الكرج وحاربها قبل ان تصلها نجدات الروس فاخضعها واقتص من اهلها واضطرّ اميرها الى الفرار ودخل تفليس عاصمة البلاد نخربها واعمل السيف في اهلها وسبى منهم ٣٠ الف نفس اكثرهم نساءٌ واولاد خدم معظمهم في بيوت الايرانيين واحسن معاملتهم حتى ان بعضهم تولوا المناصب العالية في البلاد بعد ان كبروا واختلطوا بالعائلات الايرانيَّة اختلاطاً ظهرت آثارهُ وهي باقية الى اليوم

وكان آقا محمد خان الى ما بعد اخضاع بلاد الكرج لم يلبس التاج ولم يُعَدّ سلطاناً عَلَى ايران رسميًّا فألحّ عليهِ الاعوان بذلك ورضي بعد التمنع الكثير واشهر تأييد سلطتهِ في مدينة اورمية في يوم حافل جمع اكثر كبراء ايران ولكنهُ لم يلبس تاج نادر شاه لكثرة جواهرهِ وعظمة الذي صنعهُ فاكتفى بتقلد السيف الذي كان ملوك الدولة الصفويَّة يتقلدونهُ ودلَّ بذلك عَلَى احترامهِ للعقائد الشيعيَّة الَّتي رسخت في الاذهان وصارت عقيدة جميع الايرانيين المسلمين ودُعي شاهاً من ذلك الوقت

وتقدم محمَّد شاه بعد ذلك الى بلاد خراسان لاخضاعها وتأديب القبائل التاتاريَّة التي كثر شرها وذكرنا خبر غاراتها مرارًا في هذا التاريخ فلما وصل مدينة مشهد طوس فرَّ حاكمها خوفاً من الفاتح وترك الشاه رخ الذي مرَّ ذكرهُ وهو والدهُ فيها. وكان الشاه رخ ضريرًا فقأ الاعداءُ عينيهِ كما تقدَّم وهو يومئذٍ شيخ فلما قرب الفاتح من مشهد خرج لاستقبالهِ وخضع لهُ خضوعاً تامًّا فتظاهر محمد شاه باكرامهِ وسار توًّا الى مقام الامام علي بن موسى الرضا (عم) المشهور في تلك المدينة فأدى الزيارة المعتادة واستمال اليهِ بذلك بعض القلوب . ثم جدَّ محمد شاه في

اخضاع جميع العصاة فأخضعهم بسياستهِ وقوة رجالهِ وابتزَّ منهم مالاً وافراً . وكان هذا السلطان مِن أشهر اهل الارض في الطمع وحب المال والتحف فسمع ان عند الشاه رخ بقيَّة ثمينة من التحف التي جمعها نادر شاه لم تصل اليهِ وشدد عليهِ في تسليمها فسلَّم الشاه رخ شيئاً كثيراً وكان محمد شاه يعتقد انهُ اخفى بعضها واخصها ياقوتة كبيرة غالية الثمن لم يعرف مقرها بعد ايام نادر شاه فأمر بتعذيب الشاه رخ وايلامهِ حتى يسلم تلك الياقوتة فعذبوهُ عذاباً لا يطاق حتى اقرَّ بما أخفى ودلهم الى موضع الياقوتة فأخرجوها وسلموها الى محمَّد شاه فأمر بابطال تعذيبهِ ولكنهُ أبعدهُ الى داخليَّة البلاد فذهب الشاه رخ الذي قضى حياتهُ في العذاب والمصائب الى قرية في مازندران ومات فيها عَلَى اثر ما اصابهُ منِ التعذيب ولم يقاسِ احد من المصائب والاهوال قدر ما قاسى هذا السلطان وهو حفيد نادر شاه اكبر الفاتحين الايرانيين

وكان آقا محمَّد شاه قد عقد بعد اخضاع خراسان اتفاقاً مع امير افغانستان عَلَى فتح بخارى و بلاد تركستان المستقلة واقتسامها بينهما وشرع في ذلك ولكن بلغهُ قبل ان يتقدم اليهِ ان جيشاً عرمرماً من الروس هاجم بلادهُ فاضطرَّ الى التقدم لمحاربة هذا العدو الكبير بعد ان ترك حاكماً قاجارياً في مشهد . وكان الروس من بعد فرار هرقل امير الكرج قد زحفوا على الولايات الشماليَّة من ايران وملكوا عدة مواقع نخف محمدشاه الى طهران ليستعد لقتال عظيم وارسل الاوامر المشددة الى كل انحاء السلطنة الايرانيَّة بجمع الذخائر والرجال ليستعد استعداداً هائلاً لمعركة لم يعرف نتيجتها غير الله الاَّ ان حسن حظهِ خلصهُ من كل ذلك لان الامبراطورة كاترينا توفيت في اثناء ذلك ولما خلفها القيصر بولس الاول انفذ امراً الى جيشهِ بالرجوع عن ايران فكان ذلك خاتمة حرب بدأت بهمة كبرى وانتهت بلا مصائب واهوال

وكان من امر بلاد الكرج انها عادت الى العصيان بعد تقدم جيش الروس عَلَى ايران واميرها يومئذٍ كرگين خان لان هرقل مات بعد فرارهِ من وجه الجيش الايراني بقليل فلما استراح مُحَمَّد شاه من محاربة الروس تقدم على بلاد الكرج وقاسى الاهوال في محاربتها ولكنهُ تمكن من اخضاعها اخضاعاً تاماً . وبينما هو في تلك البلاد حدث ان اثنين من خدامهِ تخاصما فحنق عليهما وامر بشنقهما ولكن خصامهما كان يوم الجمعة فأَمهلهما الى اليوم التالي . ومن اغرب الامور انهُ تركهما في خدمتهِ وهما من المنوطين بخدمة سريرهِ وتقديم أَطعمتهِ ولم يسجنهما مع ان حكمهُ باعدامهما في الصباح كان باتًّا . فلما جنَّ الليل اجتمع الخادمان وتشاورا في الخلاص من القتل المحتم فرأَيا ان الواسطة الوحيدة قتل سيدهما فدخلا غرفتهُ في منتصف الليل مع خادم ثالث وافقهما وقتلاهُ في تلك الليلة وهكذا انقضى حكم واحد من اشهر سلاطين ايران العظام . وكان محمد شاه يوم وفاتهِ في الثالثة والستين من عمرهِ وحكم على ايران نحو عشرين عاماً . وخلفهُ على السلطنة ابن اخيهِ فتح علي شاه سنة ١٧٩٧

فتح علي شاه

وتولى الملك بعد آقا محمد شاه ابن اخيهِ فتح علي شاه سنة ١٧٩٧ وكان قد انتصر عَلَى جميع خصومهِ في امور كثيرة وقضى بداءة ملكهِ براحة وسرور ولكن لم يكد يتم حظهُ من الاهتمام بامر المملكة حتى بدأَت روسيا بالاعتداء عَلَى الحدود الايرانيَّة المتاخمة لمملكتها وهاجمت شطوط بحر الخزر فنجم عن ذٰلك نفور وخصام بين روسيا وايران واستولت روسيا على گرجستان سنة ١٨٠٠ ثم زاد النفور فأَدَّى

الامر الى اشتباك الحرب سنة ١٨٠٣ فانتصر الايرانيون في عدة معارك واظهروا من البسالة ما حيَّر الاعداء فزاد الروس قوَّتهم زيادة عظيمة وعزَّزوا جيوشهم فاغتصبوا من الايرانيين كرجستان وداغستان وشيروان وسنة ١٨٠٥ سلمت قره باغ الى روسيا فاوقفت الحرب

وكانت فرنسا تروم المداخلة لانها رأت افعال الروس وتقدمها ضد سياستها فعرض نابوليون الاول على فتح علي شاه المساعدة فتردَّد اولاً في قبولها ولكنهُ رضي بها لما رأى تقدُّم الروس في بلادهِ فارسل اليهِ بعض القواد الفرنسويين لكي ينظّموا الجيش ويرتّبوا امورهُ وكان الجنرال غاردان الفرنسوي الذي أُنيط بهِ تنظيم الجيش الايراني على النسق الاوربي قد سكَّن روع فتح علي شاه بعد صلح تلسيت سنة ١٨٠٧ لكي يستريح بالاً واعداً اياهُ بان نابوليون سيساعدهُ عند الامبراطور اسكندر الروسي ويرد لايران البلاد الّتي استولت روسيا عليها واكثر من مثل هذه الوعود العرقوبيَّة

ورأت دولة الانكليز زيادة مداخلة روسيا وفرنسا في ايران فاهتمت بالامر وبعثت احكم سفرائها الى فتح علي شاه فتوسطت المسائل بين روسيا وايران عَلَى ما تقدم وأُبرمت معاهدة كلستان في شهر اكتوبر سنة ١٨١٣ بين الروسيين والايرانيين بواسطة السر كوز اوسلي الانكليزي. وبقيت العلاقات بين روسيا وايران في فتور والمناوشات مستمرة وداخليَّة ايران مضطربة من جراء ذلك . ولما توفي اسكندر الاول امبراطور روسيا ازداد اعتداء الروس عَلَى الاملاك الايرانيَّة فلم يطق الايرانيون صبرًا على ذلك وقبضوا على البرنس منشيكوف الذي كان قد بعثهُ الامبراطور الى ايران سنة ١٨٢٦ لتحديد التخوم وعلى اتباعهِ ولم يطلقوا سبيلهم الاَّ بامر مشدَّد من فتح علي شاه. وقد اضطر الايرانيون الشاه الى محاربة الروس لانهم

لم يعودوا يحتملون اعتداءاتهم الكثيرة ولا سيما عند تحديد الحدود بين المملكتين

فالتزم فتح علي شاه مع علمهِ بسوء العاقبة ان يأمر جيوشهُ بالزحف على روسيا ومقاتلة جنودها حتَّى اذا منَّ الله عليهم بالنصر استخلصوا ما غنموهُ من بلادهم وردُّوا ما سُلِب وكبحوا جماح مطامع الاعداء عنهم والاَّ ادُّوا ما عليهم من واجبات الوطنيَّة من الدفاع وغيرهِ وجعل عباس ميرزا اكبر اولادهِ وولي عهدهِ قائدًا لجنود ايران فسار بجيش عرمرم وجاز نهر الرس وقاتل الروس فانتصر عليهم في كل موقعةٍ حاربهم فيها انتصارًا بيّنًا واوقع الرعب في قلوبهم . ولما نمي الخبر الى عاصمة الروس جنَّدوا جيشًا جرَّارًا حتى زادت نسبتهُ الى عدد الايرانيين . وفي تلك الاثناء كان محمد ميرزا ابن عباس ميرزا قد تولى قيادة جيش ايران وكانت الحروب مستمرة بين الروس والايرانيين ومعظم الفوز فيها للايرانيين الى ٢ سبتمبر سنة ١٨٢٦ حين ورد مدد وافر لعساكر الروس فاشتدت عزائمهم وكان الايرانيون قد تعبوا من القتال ولكنهم التزموهُ اضطرارًا فالتقى الجيشان في شمخال على مسافة خمسة فراسخ من تفليس واحتدمت نار الوغى بين الفريقين فحارب الايرانيون ببسالة ما عليها من مزيد ولكن الشجاعة لا تغني اذا كثر العدد وزاد ومع قلة عددهم استظهروا اولاً على الروس ثم انهزموا امامهم بعد ما قُتل منهم خلق كثير

ولما بلغ الخبر عباس ميرزا تميَّز حنقًا وسار بنفسهِ فورًا لمحاربة الروس فالتقى بجيش الجنرال بسكاويتش في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٦ وجرت بينهم وقائع دمويَّة هائلة كانت الغلبة فيها للروس . وحاول ولي العهد عباس ميرزا ان يعيد الكرَّة على الروس بعد ما ابلى فيهم بلاءً حسنًا ولكن كثرتهم وحسن مدافعهم الزمتهُ ان يرجع القهقرى بمن معهُ من الفرسان فتقدم الروس في حروبهم كثيرًا

وفي شهر يوليو سنة ١٨٢٧ حاصر الجنرال بسكاويتش عباس اباد فخرج اليهِ عباس ميرزا بأربعين الف مقاتل فالتقى الجيشان في ١٧ يوليو وتقاتلا قتالاً عنيفاً استمرَّ زمناً طويلاً وانتهى بتأخر الايرانيين بعد ما قتلوا من الروس كثيرين

وفي شهر سبتمبر سنة ١٨٢٧ دخل جيش الروس الى مدينة تبريز بقيادة الجنرال بنكراتيف بعد حرب عنيفة بين الجيوش الروسيَّة والايرانيَّة وكان قد اخذ المدينة غيلة ومع كل ذلك قتل الاهالي من الروس في تبريز نحو ١٤ الفاً في مدة ستة اشهر

ولما رأت الدولة الايرانيَّة ان لا قِبَل لها على استمرار الحروب وانهُ كلما نقص جيش الروس اتاهم المدد اهتم عباس ميرزا بابرام صلح مع خصومهِ وبعد المفاوضات في هذا الشان عيّن عن الدولة الروسيَّة الجنرال بسكاويتش واوبرسكوف مستشار تلك الدولة وعن دولة ايران عباس ميرزا فتم عقد الصلح في ٢٣ فبراير سنة ١٨٢٨ وسمي بمعاهدة تركمان چائي ووقع المندوبان المذكوران على عهدة الصلح . وكان من جملة الشروط تخلي ايران عن خانيتي ايروان ونقچوان ودفع ثمانية ملايين روبل (الروبل = فرنكين) غرامة لروسيا وتخويلها ادخال سفنها الحربيَّة في بحر الخزر

وبعد ذلك باشهر ارسل امبراطور روسيا سفيراً الى دولة ايران اسمهُ كربايدوف ومعهُ خمسون رجلاً وفوَّض اليهِ تهنئة فتح علي شاه بتوطيد دعائم الصلح بين الدولتين فهاج عليهِ عامة الايرانيين لسبب غلظتهِ وقتلوهُ شر قتلة فتكدر فتح علي شاه من ذلك وارضى الروس باعذار مقبولة

ومن اشهر اعمال فتح علي شاه انتصارهُ على العثمانيين في وقائع عديدة منها اخذهُ ولاية عراق العرب ومحاصرة بغداد بقيادة نجلهِ الثاني محمَّد علي ميرزا وموت

المذكور في اثناء الحرب فجأة . والاهم من ذلك محاربة ولي عهده عباس ميرزا ومحمد رؤوف باشا السر عسكر العثماني وذلك سنة ١٢٣٧ وانكسار الترك وانهزامهم شر هزيمة في مكان يدعى (توبراق قلعة) وكان الاوردي العثماني مؤلفاً من احد وخمسين الفاً من العساكر ومئتين من المدافع الضخمة والسيارة وكان جلال الدين محمد باشا الشهير بچوبان اوغلي يقود المعسكر يومئذٍ وكان محاربو الجنود الايرانيين اربعة عشر الفاً من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان ومعهم ستون مدفعاً فانتشب الحرب بين الفريقين واظهر الفريقان من الشجاعة فوق المنتظر فغُلبت الجنود الايرانيَّة من شدة نيران العثمانيين اولاً ثم عاد الايرانيون فاستظهروا على الاتراك بعدما رأوا ان عباس ميرزا ولي العهد كرَّ على الترك بفرسانهِ الخصوصيين وتحركت فيهم الحميَّة فحملوا عليهم حملة شديدة واستعملوا السلاح الابيض بدل الاحمر. ودام الحال على هذا المنوال مدة ثلاث ساعات فانجلت المعركة عن انكسار العثمانيين وهروب القواد مثل سليم باشا وعلي باشا وجلال الدين محمد باشا وقُتل في هذه الحرب من العثمانيين سبعة وعشرون الفاً وجُرح عشرة آلاف وأُسر اربعة آلاف واغتنم الايرانيون جميع المدافع والمهمات والذخائر الحربيَّة وقد قُتل من الايرانيين تسعة آلاف وأُخذ منهم عدة من الاسرى قتل منهم الفٌ وخمسون. ثم عطف عباس الى جهات الوان والموصل وفتحها عنوةً ثم عقدت شروط الصلح بين الدولتين بمعاهدة سميت (معاهدة ارضروم) وذلك في ١٩ القعدة سنة ١٢٣٨

وفي سنة ١٨٣٢ توفي عباس ميرزا ولي عهد المملكة الايرانيَّة فحزن عليهِ والدهُ والامة كلها

وقضى فتح علي شاه اكثر ايامهِ بعد وفاة ابنهِ عباس ميرزا في اصفهان وكان كدرهُ عليهِ لا يعادلهُ كدر وهزل جسمهُ فتوفاهُ الله في ٢٠ اكتوبر سنة

١٨٣٤ مسيحيَّة الموافقة سنة ١٢٥٠ هجريَّة وكان حاكماً عادلاً في ملكهِ حكيماً في تصرفهِ تقياً في دينهِ حليماً عند الحلم وكريماً عند الكرم وقد دُفن بما يليق بمقامهِ الملوكي من الاحترام والوقار

توفي عن سبعة وخمسين ابناً وست واربعين بنتاً وعدد نسلهِ حين مماتهِ الفا نفسٍ (وقد بلغ عددهم سنة ١٣٠٠ هجريَّة عشرة آلاف) وكان هذا السلطان مفرط الذكاء وله ديوان شعر بالفارسيَّة وجملة آثار من الابنية الجميلة في عاصمة الدولة وسائر البلاد الايرانيَّة وهو الذي ادخل النظام الافرنجي الى بلادهِ ودرب عساكرهُ على النسق الاوربي · وعاش ٦٧ عاماً ملك منها ٣٧ سنة

محمد شاه

وخلف فتح علي شاه على الملك محمد ميرزا ابن عباس ميرزا الذي كان ولي العهد ومات قبل والدهِ بسنة وكان جلوس محمد ميرزا على عرش الملك في تبريز في ٧ رجب سنة ١٢٥٠ هجريَّة (سنة ١٨٣٤ مسيحيَّة) فثار عليهِ اعمامهُ فانتصر عليهم وقبض على صولجان الملك فصار يدعى (محمد شاه) وكان ايام حكمهِ عادلاً في رعيتهِ شفوقاً عليها وقلد الوزارة العظمى لمعلمهِ العلامة الحاج ميرزا آقاسى كل مدة حكمهِ

وانشأ معملاً لصب المدافع وسائر الادوات الحربيَّة وجهز الف مدفع بين صغير وكبير ولم يحدث في ايامهِ الاَّ حوادث لا تذكر لعدم اهميتها منها ان اهل هرات كانوا قد عصوا على الحكام الايرانيين فاشهر محمد شاه عليهم الحرب سنة ١٨٣٧ وتولى بنفسهِ امر الحرب وجعل يفتح بلاداً بعد أُخرى من شرقي ما وراء النهر وكاد يدخل (هرات) وينكل باهلها لولا انتصار الانكليز لهم بواسطة اللورد اوكلند الذي سيَّر السفن الانكليزيَّة الحربيَّة الى خليج فارس وفيها الجنود متظاهرة بالحرب

والانتصار لاهل هرات لزعم الانكليز ان هرات مفتاح الهند . ولما رأى محمد شاه ذلك رفع الحصار عن هرات في ٩ سبتمبر سنة ١٨٣٨ وتلافى المسألة بالتي هي احسن لان الحروب التي حاربتها ايران مع الروس مدة ثلاثين عاماً متوالية كانت عنيفة لا تسمح الاحوال بغيرها في ذلك الوقت

وحدث في ملك محمد شاه سنة ١٢٦٠ هجريَّة ان رجلاً من اهالي شيراز كان مشهوراً بالزهد واعمال الرياضة الشاقة اسمهُ ميرزا علي محمد ابن ميرزا رضا البزاز ادَّعى انهُ هو نائب المهدي المنتظر عند المسلمين وسمَّى نفسهُ « الباب » رمزاً الى الحديث النبوي « انا مدينة العلم وعليٌّ بابها » فثار الناس عليهِ وسجنتهُ الحكومة باصفهان ثم في (چهريق) وقد ادعى ايضاً وهو في السجن انهُ المهدي الموعود بهِ فانحاز اليهِ حزبٌ سياسيٌّ (هم البابيَّة) ووقع بين الحزب والحكومة مشاغب وقتل الباب بعد ذلك رمياً بالرصاص في تبريز

وظلَّ محمد شاه جالساً على عرش السلطنة الى سنة ١٢٦٤ هجريَّة (سنة ١٨٤٨ ميلاديَّة) وتوفاهُ الله يوم الثلاثاء ٦ شوال من السنة المذكورة وكان ميلادهُ يوم الثلاثاء ذي القعدة سنة ١٢٢٢ وعمَّر ٤١ عاماً و ١١ شهراً ودامت سلطنتهُ ١٤ سنة و ٣ اشهر ولهُ اربع بنات وخمسة بنين اكبرهم ناصر الدين ميرزا الذي كان ولي عهدهِ وجلس على اريكة الملك بعدهُ وكان هذا الملك البار يُضرَب بهِ المثل في الزهد والتقوى والاعمال الصالحة وحب الفقراء ومجالسة المساكين والرأفة عليهم وكان غيوراً على مصالح دولتهِ ولم تشهر حرباً الاَّ وكان قائد عسكرها ولولا معارضة الانكليز لهُ في الشرق لكان لاعمالهِ الحربيَّة الآن شأن يذكر في عالم السياسة نظراً الى مهارتهِ في الفنون الحربيَّة وشجاعتهِ الطبيعيَّة

ناصر الدين شاه

ولد ساكن الجنان ناصر الدين شاه في تبريز في ٦ صفر سنة ١٢٤٧ هجريَّة الموافقة ١٨ مايو سنة ١٨٣١ ميلاديَّة ووالدهُ السلطان محمَّد شاه ثالث ملوك الدولة القاچاريَّة ووالدتهُ اميرة من آل قاچار العظام اشتهرت بالفطنة والذكاء وهي التي اعتنت بتربيتهِ وتعليمهِ وفعلت فعال السياسيين العظام يوم وفاة السلطان محمد شاه فنجحت في تنصيب جلالتهِ على العرش وفي حل عروة الدسائس الكثيرة الَّتي دسها الطامعون في اختلاس الملك . وكان ناصر الدين شاه جميل الخلق والخلق ولكنهُ اشتهر بالفكر الكثير وشيء يشبه الحزن في منظرهِ من ايام الصغر حتى ان بعض كتَّاب الفرنسيس من الذين تشرفوا برؤيتهِ في حال صباهُ وصفوهُ بمثل هذا الوصف وانبأ بعضهم من ذلك الحين انهُ سيكون من اهل العقول الكبيرة . وقد صدقوا في تفرسهم فانهُ صار من اجمل الرجال قامةً واكثرهم هيبةً ووقارًا واغزرهم نباهةً في ايام الكبر . وعين لهُ احد الفلاسفة العظام منذ نعومة اظفارهِ ليقرأ العلم عليهِ وهو الاستاذ الحاج ملاَّ محمود التبريزي الملقب بنظام العلماء فدأب في تعليمهِ وهو يعجب بذكائهِ وظل جلالتهُ بعد اتمام دروسهِ يطالع الكتب و يبحث عن الامور المفيدة الى آخر حياتهِ وقد تعلَّم اللغة الافرنسيَّة جيدًا حتَّى الَّف كتبًا بها تُدرَّس الآن في مدارس ايران واشتهر ايضًا في نظم الشعر وسلاسة الانشاء بالعربيَّة والفارسيَّة حتى نسب لهُ سليقة مخصوصة في علم الانشاء

ولما كانت العادة تقضي بتعيين ولي عهد الدولة الايرانيَّة العليَّة حاكمًا على الولايات الشماليَّة منها وهي المعروفة باسم آذربايجان وعاصمتها مدينة تبريز عين ناصر الدين شاه من ايام الصغر في هذا المنصب الخطير ليتمرن على الاعمال ويختبر

الاحوال بنفسهِ ولكي يبعد عن سراي السلطان ابيهِ فلا يجرهُ الشباب الى قضاء الايام والليالي في الملاهي مثل اكثر امراء الشرق والغرب . فظلَّ في تبريز يدير مهام مملكتهِ الى يوم وفاة والدهِ وكان ذلك في ١٤ شوال عام ١٢٦٤ — ١٠ سبتمبر ١٨٤٨ ولما علمت والدتهُ ان الدسائس كثيرة ارسلت السعاة اليهِ في تبريز واوصتهم بالاسراع ما استطاعوا والوصول قبل حدوث فتنة فجاؤُوهُ وابلغوهُ الامر فتلقاهُ بالجلد واخفاء الكمد واظهر جراءة وذكاءً عجيبين في تلك الساعة الرائعة . ثم أُعلن الامر فامر اعوانهُ بالاستعداد للسفر في الحال وقام الى طهران عاصمة الملك ومعهُ اعيان آذربايجان واكابرها فجعل الناس يتقاطرون الوفاً الوفاً من كل انحاء البلاد ليتبركوا بطالعهِ السعيد ويقدموا لهُ واجب التهنئة والخضوع ودخل طهران بابهة كبيرة واحتفاء باهر بين صفوف الناس وهم الوف فوق الوف يدعون لهُ بطول العمر ودوام النصر . وكانما الله استجاب دعاء اولئك الجماهير فأَطال عمر ناصر الدين شاه واتاح لهُ الجلوس على العرش ٤٩ عاماً وهي مدة لم يحكم مثلها سلطان من قبلهِ على ايران غير عباس شاه احد ملوك الدولة الصفويَّة الشهيرة فرقي العرش ولبس التاج في التاسعة عشرة من عمرهِ

ولما استتبَّ الملك لجلالتهِ نادى في البلاد بالامن على الارواح والاموال واطلق الحريَّة للاديان والتجارة فارتاح الناس الى هذه الامور واطمأَنت الخواطر ولم يحدث ما يكدر صفو عيشهِ الَّا حادثة ثلاثة اشخاص منسوبين الى الفئة البابيَّة التي مرَّ ذكرها فكادوا لجلالتهِ مكيدة اوشكت ان تنجح لو لم ينقذهُ الله من يد القاتلين وبيان ذلك كما يأْتي :

شاع في سنة ١٨٥٠ ان شهر شوال سيكون سيّئ الطالع على جلالة الشاه وكان في ضواحي طهران وقد خرج على عادتهِ ليروح النفس من عناء الاشغال ويغتنم

لذة الصيد والقنص فمرَّ بجماعة من العمال يفلحون الارض ويظهرون كدًّا ونشاطًا في منتصف النهار وهم لا يبالون بالحر فأعجب باجتهادهم وامر الذين كانوا بمعيتهِ ان يعطوهم ما يدل على انعطافهِ اليهم وكان هؤُلاء الثلاثة قد جاؤُوا ليحاولوا الاستخدام في قصر جلالتهِ ويقتلوهُ فلما رأَوا ما رأَوا من لطفهِ ولين عريكتهِ احجموا عن انفاذ غايتهم ولكنهم عادوا الى القصد الاول لما نسوا احسان الشاه اليهم حتَّى اذا جاءَ آخر شوال وكان جلالتهُ راجعًا من الصيد والاعوان بعيدين عنهُ حسب العادة لحظ الشاه اولئك الثلاثة انفسهم يحرثون ويكدون ورأَى انهم انقطعوا عن العمل حالما رأَوهُ وتقدم واحد منهم وفي يدهِ عريضة وهو يستغيث ويطلب الرحمة والانصاف منهُ فأَشفق الشاه عليهِ وامرهُ ان يتقدم اليهِ بالعريضة فتقدم الرجل والاثنان الآخران وراءَهُ حَتَّى اذا وقفوا حولهُ امسك احدهم بيدهِ وحاول الآخران قتلهُ واطلق احدهم رصاصة عليهِ اصابت فخذهُ وقيل احدى ذراعيهِ ولكنها لم تمنعهُ من الدفاع عن نفسهِ فانهُ جعل يقاتل هؤُلاء مدة ويردهم عنهُ حتى انقضَّ عليهم الحراس والضباط وغيرهم ممن كان بمعيَّة جلالتهِ ولقوا ما يستحقونهُ من العقاب جزاءَ هذه الخيانة الكبرى ونجا ناصر الدين شاه من القتل بشجاعتهِ وجرأَتهِ

هذه اهم الدسائس الَّتي تذكر في ايام ناصر الدين شاه فشرع بعد ذلك في الاصلاح الداخلي وابدل كل العمال الذين ارتاب بامانتهم وحثَّ الناس على الاجتهاد وكسب المعارف وسهل لهم سبل الترقي ما امكن. وكانت الاحوال الخارجيَّة موجبة وقتئذٍ للاهتمام فانهُ حارب حسن خان سالار وانقذ بلاد خراسان منهُ وشهر الحرب على امير خيوق (خيوا) وإمام مسقط بسبب دسائسهما وهجومهما على التخوم الايرانيَّة وفتكهما بالعباد ونال المراد من هذه الممالك. ثم حوَّل همهُ الى امور اوربا وكان يراقب سير الحرب الهائلة المعروفة بحرب القرم في عام ١٨٥٥ بغاية الاهتمام

واخذ يفكر في اخذ الثار والانتقام من الدولة الانكليزيَّة جزاءَ ما ظهر منها في حرب هرات وارسالها السفن الحربيَّة الى الخليج الفارسي ومنع المرحوم والدهِ من اتمام مشروعاتهِ الجليلة فاخذ يبعث العيون في البلاد الهنديَّة ويبث الجواسيس في اقطار تلك البلاد الشاسعة ويحضُّ امراءَ الهند على الثوران والقيام في وجه الحكومة الانكليزيَّة واعدًا اياهم بتحرير بلادهم وتنصيب ملك منهم عليهم ولما آنس منهم القبول ارسل عمهُ سلطان مراد ميرزا الملقب بحسام السلطنة بجيشٍ جرار الى هرات وامرهُ بالتوغل في المفاوز والدروب الافغانيَّة كي يصل باقرب زمن الى التخوم الهنديَّة فقامت وقتئذٍ قيامة الحرب بين ادارة هرات وبين عساكر المشاة من جهة وبين الهنود والحكومة الانكليزيَّة من اخرى فاندهشت الدولة الانكليزيَّة من جراءِ هذه الاحوال حتَّى بلغها دخول العساكر الايرانيَّة الى هرات عنوةً وقتل اميرها وتقدمها نحو الجنوب فاسرعت بارسال المدرعات الحربيَّة الى الخليج الفارسي واستولت على بندر ابي شهر واسرت محافظها حسن علي خان دريابيكي مع مهدي خان (سرهنك) البكباشي وارسلتهما الى بومباي واشاعت انها اسرت ناصر الدين شاه وجعلت للمحافظ المذكور موكبًا ملكيًّا وانزلتهُ في احدى سرايات الحكومة وعينت من يرافقهُ في الدخول والخروج ويمنعهُ من التكلم لتموّه على الناس انهُ الشاه اذ كان يجر عربتهُ اربعة من جياد الخيل وحولهُ ثلة من الفرسان شاهري السيوف كياوران الملوك في ذهابهِ وايابهِ فنجحت بذلك تمام النجاح فاخمدت الثورة الهنديَّة المعلومة . ثم دخل نابليون الثالث بين الدولتين وتوسط في الصلح حتى تمَّ بينهما تحت رئاستهِ وامضى عهدة باريز على شروط معلومة ومشهورة

وكان دأْبُ الشاه ركوب الاخطار وتجشم مشاق الاسفار في داخليَّة بلادهِ وخارجها واول ولاية زارها من الخارج ولاية العراق العربي حيث مشهد امير

المؤمنين علي بن ابي طالب والامام حسين ابن علي (عم) وسائر المستشهدين بين يديهِ في يوم العاشوراء بمدينة كربلاء وذلك في ايام المغفور لهُ السلطان عبد العزيز خان وقوبل باحسن احتفال واظهر في تلك الزيارة من المآثر المجيدة ما يليق بامثالهِ من السلاطين العظام . ثم انثنى راجعاً الى بلادهِ وهو يفكّر في زيارة الاقطار الاوربيَّة بايعاز وزيرهِ الاول ميرزا حسين خان الصدر الاعظم الذي كان لهُ مكان سامٍ بين ارباب السياسة حين ما كان سفيرًا لدولتهِ في القسطنطينيَّة فبرح بلادهُ ومعهُ ٥٢ رجلاً من عظماء دولتهِ واكابر عائلتهِ سنة ١٢٩١ هجريَّة فزار روسيا والمانيا وفرنسا وانكلترا والنمسا وايطاليا وهولانده واسبانيا والدانيمرك وسويسرا وتركيا فقابلهُ ملوك تلك الممالك احسن مقابلة و بالغوا في الاحتفاء بهِ وكانت المنافسة في استقبالهِ والاحتفال بقدومهِ على قدم وساق بين الدول ذات المصالح التجاريَّة في ايران لاسيما وانهُ كان اول ملك شرقي زار اوربا ثم اردف هذه الزيارة بعد بضع سنين بزيارة ثانية سنة ١٨٧٨ وثالثة سنة ١٨٨٩ ايام معرض باريز المشهور وكان في كل مرَّة يأتي الى بلادهِ بالفنون والصنائع ويأخذ من الاسلحة الجديدة ويستأجر الضباط والعلماء لبث نور التمدن وتدريب العساكر في بلادهِ . وكان يكتب حوادث اسفارهِ بقلمهِ يوميًّا في كل مرة و يسرد فيهِ الحقائق والحوادث سردًا بديعاً و يصف الآلات المركبة وصفاً واضحاً ويذكر انساب الرجال العظام والقابهم في كل بلاد بغير خطإٍ . و يستغرب هذا من سلطان شرقيّ مثلهُ فان الكاتب الافرنسي مثلاً قد يؤلف كتاباً عن الانكليز ولابدّ ان يكثر الخطأُ في كتابهِ وخصوصاً في أسماء الرجال والاماكن والالقاب والانساب ومثل هذا يقال في الكاتب الانكليزي اذا الَّف شيئاً عن فرنسا وغيرها مع كثرة الاتصال والاختلاط في اوربا وسهولة اخذ العلم والاختبار واما جلالتهُ

فكتب تلك الكتب عن اوربا ولم يخطئ في شيء مما قالهُ عنها. وقد ترجم العلاَّمة ڤاميري المجري السائح الشهير فصولاً طويلة من هذه الكتب ونشرها في صحف الافرنج فأَعجب العلماء بما ظهر لهم فيها وشهد المترجم المذكور وهو من علماء اللغات الشرقيَّة ان الكتاب مكتوب بأَبلغ عبارة وامتن تركيب

ولما رجع الى بلادهِ من سياحتهِ الاخيرة اصدر امرًا ملكيًّا يحثُّ بهِ جميع الولاة والحكام على الرفق بالرعيَّة كلها بلا تمييز فئة على اخرى ودعا رؤَساءَ الامة المسيحيَّة وحثهم على فتح المدارس وخصص لكل مدرسة مالاً طائلاً يدفع سنويًّا اليها وامر باحصاء الطوائف المسيحيَّة وغيرها فبلغ خمسة وتسعين في المئة من سكان ايران وهم مسلمون اكثرهم من الشيعة الاثني عشريَّة والباقي من شافعيَّة والقليل من الحنفيَّة وما بقي وهو خمسة في المئة من الطوائف الاخرى وبلغ عدد المسيحيين من ارمن وسريان كلدانيين نحو مائة وثلثين الف نفس اكثرهم قاطنون في ولايتي العراق العجمي وآذربايجان وبلغ عدد الارمن في الولاية الاولى نحو اربعين الفاً تقريباً بعضهم ساكنون في مدينة طهران ورشت وجلفا بالقرب من مدينة اصفهان ولكن اكثرهم في القرى الواقعة الى الشرق والشمال من اصفهان. وبلغ عددهم في آذربايجان اربعين الفاً اكثرهم من سكان المدن. اما السريان الكلدانيون وعددهم نحو خمسين الفاً تقريباً فهم في الغالب يقطنون القرى في الجبال والسهول واكثرهم نساطرة والبعض منهم اعتنقوا المذهب الكاثوليكي والبروتستانتي

وكان ناصر الدين شاه كما اثبتت الصحف الافرنجيَّة اغنى ملوك الارض طرًّا بخزائن النفائس والمجوهرات الثمينة وكان لهُ ولعٌ شديد في جمع تلك الاحجار وعرضها على الانظار حتَّى امر اخيرًا ببناء قبو تحت قصرهِ فيهِ حلى ومصوغات تقدر قيمتها بعشرين مليون جنيه ففيهِ اولاً تاج قديم لملوك ايران اشبه من حيث شكلهُ

باناء الازهار وهو مرصع بالياقوت الاحمر الباقي على هيئة تركيبهِ الطبيعي و يبلغ حجم الفص منهُ حجم بيضة دجاجة. ثم منطقة من الشارات الملكيَّة فيها من الالماس ما لايقل وزنهُ عن تسعة كيلوغرامات وسيف بديع الطرز والصنعة مرصع بالجواهر الَّتي يبلغ ثمنها ثمانية ملايين فرنك واناءٌ من الفضة الخالصة مشتمل على مئة فص من الزمرد لامثيل لها في العالم باسرهِ من حيث نفاستها وجمالها وقد نقش على فص منها بالغ حجم الجوزة اسماء جميع ملوك فارس ثم كرة جغرافية تمثل القارات الخمس وكل قارة منها مرصعة بجواهر خاصة وفي ذلك القبو شيءٌ كثير من الالماس والياقوت الاحمر والصفير (الياقوت الازرق) والزبرجد (الياقوت الاصفر) الشفاف واللؤلوء وعقدان من اللولوء حجم كل لؤلؤَة يبلغ حجم بيض الحمام ثم حجارة شهيرة من الالماس (كوه نور) اي جبل النور ليس لها مثيل في العالم الآ فص عند جلالة ملكة الانكليز واخرى عند جلالة قيصر الروس وجوهرة يبلغ حجمها خمسين سنتمترًا . اما النقود الذهبيَّة فبلغ ستين مليون من الجنيهات الانكليزيَّة حسب ما تبين بعد موتهِ اخيرًا

ومن جملة مآثرهِ الجليلة في اوائل سلطنتهِ هو انهُ رحمهُ الله امر بانتخاب اربعين نفرًا من الشبان النجباء من اولاد الامراء اعيان المملكة وارسلهم الى باريس تحت رئاسة حسن علي خان امير نظام احد العلماء الايرانيين فمكث التلامذة سبعة اعوام في مدارس شتى افرنسيَّة ونالوا شهادات (ديبلومة) حسنة بعد اتمام دروسهم ثم عادوا الى بلادهم ومعهم جملة علماء ومعلمين من الفرنسويين في علوم شتى فاكرم الشاه وفادتهم وامرهم بترجمة الكتب النفيسة من الافرنجيَّة الى الفارسيَّة ثم انشأ بناءً رحيبًا فسيحًا سماهُ دار الفنون وهي تشتمل على عدة مدارس مختلفة الدرجات كمدرسة طبيَّة عالية تحت رئاسة الدكتور تلوزان وجملة من اشهر

اطباء الافرنسيين ومدرسة حربيَّة متقنة الوضع والترتيب على النسق الاوربي الحديث ومدرسة كليَّة للهندسة والهيئة والفلك ومدرسة للعمليات والصنائع القديمة والحديثة ومدرسة ابتدائيَّة كبيرة ومدرسة تجهيزيَّة اعداديَّة . ثم امر رحمهُ الله بان يكون ٧٥ في المئة من تلامذة تلك المدارس من ابناء مشاهير البلاد والبقيَّة من اولاد الفقراء على نفقة خزينتهِ الخاصة

ثم وجه انظارهُ الى اصلاح الطرق والسبل العموميَّة لتسهيل المواصلات ومد الاسلاك البرقيَّة في انحاء جميع الولايات والحدود الايرانيَّة . ونظم البريد احسن انتظام حتى صار يضاهي احسن مصلحة بريديَّة باوربا . وادخل بلادهُ ضمن اتحاد البريد العام . واباح بعد ذلك حريَّة الملاحة في نهر كارون ودخول البواخر التجاريَّة الافرنجيَّة عليها من مصب النهر وشطوط البحر الفارسي مارًّا باراضي دزفول وشوشتر الى القنطرة الشهيرة ومنها الى ما وراءها مجتازًا من الشلالات الضخمة بعد كسرها وتفتيت قواعدها . فبعد ما اتمَّ هذه الحاجيات انعطف الى رأب صدع الثغور البحريَّة ورأى بلادهُ في اشد الاحتياج الى اسطول حربي لدرء ما يطرأُ فخاطب اشهر المعامل الالمانيَّة في بناء السفن والمدرعات واتفق معها على بناء اربع مدرعات من الطراز الاخير وتمَّ بناء الاولى المسماة (پرس پوليس) وارسلت الى الشطوط الايرانيَّة ولسنا نعلم ماذا جرى بالثلاث الاخرى . وكان منهمكًا بشراء الاسلحة وقد اشترى منها مقدارًا عظيمًا ولكن بعد البلاد وطول المسافات وجفوة الجيرة كثيرًا ما كانت تعيق مشروعاتهِ الحربيَّة ولم يرَ بدًّا من انشاء معمل لصب المدافع وصنع البنادق والذخائر والادوات العسكريَّة في عاصمة بلادهِ فانشأ معملاً عظيمًا في طهران استغنى بهِ عن ابتياع كثير من الادوات الحربيَّة لانهُ صار يعمل بهِ من الآلات النارية ما يعمل في اشهر المعامل الافرنجيَّة

و بالاجمال ان الاصلاحات الّتي تمت في الممالك الايرانيّة مدة ملكهِ السعيد يندز ان يأْتي واحدٌ بمثلها

ولما كان واجب الوفاء يستدعي شكر المنعم نذكر ان المغفور لهُ ناصر الدين شاه انعم على موٴلف هذا الكتاب بنيشان شير خورشيد العالي الشان فرفع الى اعتابهِ الملوكيّة هذه القصيدة

مَقَامُ مجدِكَ مَرْفُوعٌ عَلَى زُحَلِ	يا ناصرَ ٱلدّينِ يا سيفَ ٱلإمامِ عَلِي
يا كاشفَ ٱلظُّلْمِ بِٱلعَدْلِ ٱلمُبينِ وَيَا	تاجاً تزَيَّنُ فيهِ هامةُ ٱلدُّوَلِ
يا مَنْ يُنَزِّلُ مِنْ عَلْيَاءِ حكمتهِ	فُرْقَانَ فَضْلٍ بِآياتِ الكمالِ تُلي
أَنْتَ المليكُ ٱلذي شادَ ٱلزَّمانُ لهُ	فَوقَ ٱلثُّرَيَّا مقاماً جلَّ عَنْ مَثَلِ
في ظهرِ أَجنحةِ ٱلأَملاكِ عرْشُكَ قَدْ	رَفعتْهُ بِاقتدارِ ٱلخالقِ ٱلأَزَلي
بُشْرَى لِمَلكةٍ تَدْعُوكَ سيِّدَها	يا مَنْ بِهِ ازْدانَ جيدُ ٱلدَّهْرِ مِنْ عطلِ
وَطَّدْتَ فيها بِنَاءَ ٱلْعَدْلِ فَٱبتهجتْ	بهِ النُّفوسُ وبَاتَ ٱلذئبُ كالحَملِ
فَالنَّاسُ مِنْ عدلِكَ ٱلمنشورِ في جَذَلِ	وٱلأُسْدُ مِنْ بَأْسِكَ ٱلمشهورِ في وَجَلِ
ترفَّعتْ عَنْ ذرَى الأَطوادِ حكمتكم	وقارنَتْ في عُلاها حكمةَ ٱلرُّسُلِ
وَأَصبحتْ يا نبيَّ ٱللُّطفِ تنطقُ فِي	آياتِ نورِ سناكُمْ سائرُ المِلَلِ
أَغنَاكَ عَزْمُكَ إِن جرَّدتَ صارمَهُ	لَدَى الخُطُوبِ عَنِ الخطِّيَّةِ الذُّبُلِ
وَخصَّكَ الله مِنْ أَسمى المآثرِ بٱلْـ	كمالِ وَٱلْفَضْلِ وَٱلآدابِ وَٱلْعَمَلِ
شَمِلَتْ عَبْدَكَ بِٱلفضْلِ ٱلْعَمِيمِ وَذَا	يا سيِّدَ الجُودِ عِنْدِي مُنْتَهَى الأَمَلِ
كَرَامَةٌ نِلتُها مِنْ فَيْضِ نِعمَتِكُمْ	كَالأَرْضِ تُسْقَى بِرِيِّ ٱلْوَابِلِ الهطِلِ

وَالْأَرْضُ إِنْ تَرْوِهَا تُنْبِتْ وَأَنْعُمُكُمْ قَدْ أَنْبَتَتْ فِيَّ غَرْسَ الشُّكْرِ وَالجذَلِ

فَهَا أَنَا فِي هَنَاءٍ مِنْ عِنَايَتِكُمْ أَلسَّعْدُ يَخْدِمُنِي وَالمَجْدُ يَخْضَعُ لِي

وَإِنَّنِي الآنَ فِي عِزٍّ بدولتكمْ أَتِيهُ مِنْ فَضْلِكُمْ فِي أَفْخَرِ الحُلَلِ

عِزٌّ بِهِ الشَّمْسُ تَزْهُو فِي مَنَازِلِهَا وَكَوْكَبُ السَّعْدِ يَعْلُو ذِرْوَةَ الحَمَلِ

فَدُمْ مَعَ الآلِ وَالأَنْجَالِ فِي نِعَمٍ وَطُولِ عُمْرٍ بِرَغْدِ العَيْشِ مُتَّصِلِ

ورفعت قصيدة اخرى لفخامة الصدر الاعظم

وقد وصلت القصيدتان الى فخامة الصدر الاعظم في طهران ورفع الى جلالة الشاه القصيدة المدرجة آنفاً فتنازل رحمهُ الله وقبلها بالشكر وصدرت ارادتهُ السنيَّة بحفظها مع الآثار النفيسة وامر فخامة الصدر الاعظم ان يبلغنا ذلك رسميًّا بكتابةٍ تحفظ بالنمرة في السجلات الملكيَّة ففعل و بعث الى معتمد دولتهِ الوزير الفاضل ميرزا اسحق خان بكتابةٍ رسميَّة فورد علينا من دولتهِ الكتاب الآتي

حضرة الفاضل سعادتلو شاهين بك مكاريوس المحترم

يسرُّني ان ابشركم بان قصيدتكم الغراء الَّتي رفعتموها على يدنا بواسطة فخامتلو البرنس ميرزا علي اصغر خان الصدر الاعظم لاعتاب عظمة مولانا الشاهنشاه المُعظَّم قد حازت القبول العالي والشكر الجزيل وكتب الينا فخامة الصدر الاعظم الرسالة الواصلة صورتها طيه لتبليغكم ذلك مع الشكر لخدمتكم العظيمة واقبلوا منا فائق التحيَّة

وزير دولة ايران العليَّة

مصر ١٢ يناير ١٨٩٥ و١٥ رجب ١٣١٢ بالقطر المصري

ميرزا اسحق خان

وقد ادرجتها لتحفظ اثرًا مخلدًا لجلالتهِ على مؤلف هذا الكتاب

وفي اليوم الاول من شهر مايو سنة ١٨٩٦ طير الينا البرق خبراً انقبضت له النفوس وصدعت الافئدة وهزّ الارض من اقصاها الى اقصاها ألا وهو خبر قتل ساكن الجنان السلطان ابن السلطان والخاقان ابن الخاقان السلطان ناصر الدين شاه ايران وسيدها الذي حكمها نصف قرنٍ وغمر اهلها باحسانهِ وجعل لها المقام المعزَّز بين الدول المعروفة فعمَّ الخطب وساد الحزن والقلق في سائر الانحاء وأُصيبت بلاد ايران بما لم يكن في الحسبان وانقلبت افراح الامة الايرانيّة الى احزان واشجان لانها كانت في هذه الاثناء تستعد استعداداً عظيماً للاحتفال بعيد سعيد هو عيد مرور خمسين عاماً من يوم رقي الفقيد العظيم عرش ايران فقضت الاقدار ان يتنغص عيش هذه الامة الكريمة وان تندب سيدها ومولاها بدل ان تقدّم له فروض التهانيء وتفرح بطول ايامهِ وطول مدة حكمهِ السعيد وليس لحكم الله من مرد

ولقد اثر فينا هذا النبأ المشوم تأثيراً خاصاً لان جلالة الشاه الفقيد غمرنا باحسانهِ وكانت ادلة رضاهُ علينا وتنازلهِ الى الانعطاف الينا تتوالى عاماً بعد عام حتى ان الرثاء والتعداد مهما كثر مقدارهُ لا يقوم بالايضاح عما يخامر فؤادنا من الحزن على وفاة هذا الملك العظيم الذي ترك من المآثر والآثار ما ليس يمحوهُ مرور الادهار . ويزيد البلوى ان الفقيد العظيم الذي سهر خمسين عاماً على بلادهِ ورعيتهِ مات قتيلاً بيد احد الاغبياء فلا غروَ اذا تعاظمت الاشجان ولبست الامة الايرانيّة السواد حداداً على زينة الملوك العظام وقدوة السلاطين الكرام رحمهُ الله تعداد مآثرهِ وحسناتهِ والهم اسرتهُ الكريمة واللائذين بها صبراً على فقدهِ ومتع بلادهُ بالراحة في ايام جلالة نجلهِ السلطان ❊ مظفر الدين ❊ شاه المعظم انهُ السميع المجيب

واما عن تأثير هذا الحادث العظيم في الارض فحدّث ولا حرج ذلك لان جلالة ناصر الدين شاه رحمهُ الله حكم بلادهُ مدة طويلة يندر ان يحكم مثلها ملك غيرهُ وهو على كل حال سيد بلاد ايران ومولاها المطلق القول ما قال والحق حيث قال اعتادت البلاد احكامهُ وعرفت الدول المجاورة لايران والّتي لها بها علاقات كيفيَّة السير مع حكومتها في ايامهِ ولا كثرها علاقات خصوصيَّة بجلالة الشاه فليس بغريب اذا اضطربت الافكار وخشيت الدول ان يعقب الوفاة تغيير في سياسة ايران يخشى من عواقبهِ ولا يظننَّ القارئَ اننا نبالغ في القول ان سلامة الممالك وسلام الارض يتعلق على رضى جلالة الشاه لان بلاد ايران واقعة في اواسط اسيا وهي متاخمة لاملاك روسيا من ناحيةٍ ولاملاك انكلترا من ناحية أُخرى وهما الدولتان العظيمتان صاحبتا النفوذ الاكبر في قارة اسيا فاذا غيَّر جلالة الشاه خطتهُ او مال الى دولةٍ دون دولةٍ اخرى او تساهل في اعطاء الامتياز لاناس دون اناس آخرين ادَّى ذلك الى التنافس الهائل بين انكلترا وروسيا وقد يعقب هذا التنافس الحرب . ومعلوم ان الحرب في هذه الايام لابد ان تتناول كل الدول الاوربيَّة بسبب ما يعرف القراء الكرام من المعاهدات والمحالفات فاذا اشتعلت نيرانها في اسيا بين انكلترا وروسيا لا سمح الله اضطرت فرنسا ودول التحالف الثلاثي الى المداخلة وهناك الطامة الكبرى . وموقع ايران الجغرافي والسياسي يجعلها في مركز يمكنها من القاء المتاعب وايقاد جذوة الحرب اذا شاء مليكها هذا غير ان البلاد قويَّة واهلها اشداء يمكن لهم محاربة الدول العظمى وتخشى بأسهم الممالك وكل ما يختص بايران وحكومتها وسياستها وعلاقاتها بالدول الاخرى من خصائص الشاه المُعظَّم فهو يقدر على كل ما قدمناهُ وبيدهِ الحرب والسلم والعناء والشقاء ورواج التجارة وكسادها وتقدم الممالك وفسادها فلا عجب اذا اهتمت

الارض لنبإ قتلهِ وقامت الجرائد تبحث في الامر وتنبئُ بالانقلاب وتظن الظنون الكثيرة في مستقبل ايران وغيرهِ

على ان كل هذه الحسابات لا تفيد وكل هذه المخاوف تزول اذا علم المرء ان الذي خلف ناصر الدين شاه على عرشهِ هو السلطان الحازم والمقدام العالم جلالة مظفر الدين شاه نجلهُ المعروف باتساع المدارك وقوة العارضة وغزارة العلم وبعد النظر وحسن السياسة

ولم يكن المرحوم ناصر الدين شاه متحجباً عن الانام قاصراً همهُ على التلذذ باطايب العيش في قصورهِ وقصور اجدادهِ العظام ولكنهُ كان كثير الاهتمام لشؤُون بلادهِ واهلها يخرج بين الناس فيرونهُ ويسمع شكاويهم ومظالمهم وساح في اوربا ثلاث مرات ليرى بعينيهِ طرق التقدم وامور التمدن الحالي ويختار منها الموافق لبلادهِ ولهذا كانت سيرتهُ معروفة واخلاقهُ مشهورة واكثر امورهِ مأثورة ومسطورة ليس فيها شيءٌ من الاسرار ولا داعي للظن والتخمين في الذي يقال عنهُ رحمة الله عليهِ . والنوادر التي اوردتها صحف ايران واوروبا عن جلالتهِ كثيرة لا يمكن لنا ان نلم بغير القليل منها . على اننا اقتصرنا على بعض الشيء مما يهم الجمهور العلم بهِ من تاريخ حياتهِ وآثارهِ العظيمة ليرى القراءُ الكرام ان الذي نرثيهِ ويرثيهِ سكان الارض معنا كان من عظام السلاطين الذين يحق الافتخار بهم والاشارة اليهم على صفحات التاريخ

وقد نقلت الينا صحف الاخبار خلاصة ذكر الاحتفال العظيم الذي تمَّ لمأتم المغفور لهُ ناصر الدين شاه في مدينة طهران عاصمة المملكة فكان مما يعجز عن وصفهِ القلم واللسان وقد ابنهُ ابهتبلو الصدر الاعظم البرنس علي اصغر خان في ٥ مايو سنة ١٨٩٦ بحضور رجال الدولة وكبار ضباط الجيش وكانوا جميعهم واقفين حول

نعشهِ بالملابس الرسميَّة رافعين الرايات الايرانيَّة فقال :

"حلَّ القضاء ونفذ سهم المقدَّر فكان كلٌّ منا يبذل مهجتهُ في خدمة مولانا العزيز ويفديهِ بروحهِ من نكبات الزمان وطوارق الحدثان ولكن قدّر فكان ورزئنا بمصاب فتت الاكباد فتًّا فبتنا نذرف العبرات على ضريحهِ المقدَّس فواحسرتاهُ عليهِ ويا ويل لئيم ذميم رفع يدهُ النجسة على السلطان الذي شاد مملكتنا على دعائم العز والعظمة والمجد . فاخترق قلبهُ وغادر قلوبنا تدمى عليهِ واطفأ نورنا الساطع وتركنا في ظلام دامس من الحزن والاسى

أَفي ايران كلها اليوم بيت لا ينوح على ملك كان الكل مستظلين بظلهِ راتعين في بحبوحة الامن والنعيم تحت عنايتهِ . فاين طار طائر النعيم وانَّى بات السعد بعدهُ . أَنستطيع صبرًا وجلدًا واخفاء الحزن في الفؤاد والعالم كلهُ يحزن علينا ويبكي ما اصابنا

ولكن ما لنا ولهذا كلهِ فذلك ليس قصارى الآمال ولا منتهى الآجال أَلا ترون شمس سلطاننا قد برزت من تبريز ففاض شعاعها علينا بالحياة والرجاء والعزاء . اذكر اسمهُ فتبرق اسرَّتكم وتحيا آمالكم فيكم فليكن عزاؤُنا ببذل النفوس في خدمتهِ والمحافظة على الامانة والوفاء وصدق الولاء كما كنا مع ساكن الجنان والدهِ . فذلك بعض ما يحق علينا لذكرهِ الطاهر مقابل الخير العظيم الذي غمرنا بهِ من فضلهِ والاعتراف بالفضل يكون الآن بصدق الخدمة لنجلهِ . واني لاباهي بكم اهل الارض طرًّا على ما ارى من تسابقكم لحفظ بنيان الحكومة الذي شادهُ ساكن الجنان سلطاننا في حكم طال اكثر من خمسين عامًا وردكم اكف النائبات عنهُ وجدكم في توطيد اركانهِ حتَّى يصل سلطاننا العزيز الى هذه العاصمة العظيمة ويستوي على سرير آبائهِ العظام ونؤَدي اليهِ فرائض الطاعة والاكرام" انتهى

وكان الصدر الاعظم يتكلم والناس يسكبون العبرات ويرددون الزفرات ولما فرغ من الكلام صاحوا بالدعاء لجلالة الشاه الجديد وطافوا بالقصر ومروا واحداً فواحداً امام القبر

وقد كان حداد الايرانيين على سلطانهم في سائر الانحاء دالاً على تعلقهم الشديد بهِ واخلاصهم لدولتهِ وفي نوعٍ اخص حيث قام اكابرهم بفروض الحداد وقد بعث جميع الممالك والملوك والامراء والعظماء رسائل برقيَّة متعددة تعزيةً بالفقيد العظيم

واما جلالة الشاه الجديد فنكتفي بالقليل الآن من ذكر مناقبهِ الشريفة وخصالهِ السامية فنقول

جلالة مظفر الدين شاه

ولد جلالة مظفر الدين شاه يوم الجمعة في ١٤ جمادى الثاني سنة ١٢٦٩ هجريَّة فهو اليوم في السابعة والاربعين من عمرهِ وقضى اكثر ايامهِ في تبريز يرضع فيها لبان المعارف على امهر المدرسين حتَّى برع في العلوم الرياضيَّة والعقليَّة والعسكريَّة وتعلَّم من اللغات العربيَّة والافرنسيَّة والتركيَّة غير لغتهِ الفارسيَّة . اما ولي عهدهِ فنجلهُ الثاني شعاع السلطنة ملك منصور ميرزا وعمرهُ الآن ١٣ سنة . وجلالة مظفر الدين شاه مشهور بالحنو والحلم ولين العريكة واللطف بشوش الوجه انيس المحضر يحترم العلم والعلماء محبٌّ لخير بلادهِ وترقية شعبهِ . وقد زارهُ من ستة اعوام اللورد كرزون اوف كدلستون (حكمدار الهند) وكتب عنهُ في صحف بلادهِ مدحاً كثيراً ورأى من واسع علمهِ وكرم اخلاقهِ وعلوّ همتهِ الشيء الكثير جعل الله ايامهُ طوالاً ومتع جلالتهُ واهل بلادهِ بالسعد والرغد انهُ خير مسؤُول

وقد رفعنا لاعتاب جلالته عند تبوئه اريكة الملك المنظومة الآتية تعزيةً وتهنئةً

شُلَّتْ يمينُكَ يا يزيد الثاني فلقد غدرتَ بصاحبِ الايوانِ
شُلَّت يمينُكَ هل علمتَ بما اتيتَ اليوم من اثمٍ ومن طغيانِ
خنتَ النبيَّ وآلَ بيت المصطفى ونقضتَ حكمَ شريعةِ القرآنِ
لولا المقدَّرُ لم تنل ايدي العدى ما تبتغي من ناصرِ الاديانِ
غدروكَ يا سيفَ الإمامِ ولو اتوا جهرًا سقيتهم النجيع القاني
قتلوكَ في المحرابِ جهلاً ويلهم أفما خشوا من هيبةِ الديانِ
قتلوا عليًّا قبلكم بمكيدةٍ من مكرهم واستشهد الحسنانِ
قتلوكَ ظلمًا اذ رأوكَ متممًا فرضَ الصلاةِ وواجبَ الايمانِ
قد ألبسوا الدنيا السوادَ وسوَّدوا بفعالهم صفحاتِ كلّ زمانِ
فلذا الخلائقُ والملائكُ والثوا قبُ كلها اضطربت منَ الاحزانِ
في يومِ مصرعِ ناصرِ الدينِ الذي غمرَ الانامَ بفضلهِ الهتَّانِ
قد كان ركنًا يستظل بظلّهِ هذا الورى من طارق الحدثانِ
اضحى ضحيَّةَ عدلهِ في ملكهِ أفذا جزاءُ العدلِ والاحسانِ
غدرَ اللئيمُ بهِ فعاجلهُ القضا تبَّت يداهُ من أثيمٍ جانِ
هلاَّ درى أنَّ المظفَّرَ بعدَهُ يردي العدا بالسيف والمرَّانِ
هلاَّ درى أنَّ المظفَّرَ نجلَهُ فخرُ الملوكِ وقدوةُ الاعيانِ
هلاَّ درى أنَّ المظفَّرَ شبلَهُ ليثُ الشرى من اعظم الشجعانِ
غوثُ العوالم بل وليثُ عرينها غيثُ المراحمِ مصدرُ العرفانِ
ملكٌ تحلَّت بالكمالِ صفاتُهُ وسمت معاليهِ على كيوانِ
بطلٌ تذلُّ لهُ الضراغمُ هيبةً بالبأسِ منهُ يشهدُ الثقلانِ

ان غابَ بدرُ ابيهِ عن هذا الملا فلقد بدا من وجههِ القمرانِ
عمَّت فضائلهُ فكانَ قليلها بحرًا كبيرًا دائمَ الفيضانِ
بمظفَّر الدين العبادُ استبشرت فتوسمت خيرًا ونيلَ اماني
وتسابقت رُسُلُ التهاني نحوَهُ لمَّا تولى العرش في طهرانِ
وطئَ المقامَ ببأسهِ فكأنهُ في عرشهِ كسرى انو شروانِ
هذي يمينُ اللهِ يا ابنَ صفيّهِ مدَّت لترفعكم لاعلى الشانِ
ابشر فإن اللهَ يحفظُ ملككم طولَ الزمانِ مشيَّدَ الاركانِ
وتعزَّ عن فقدِ لاطهر والدٍ من ربهِ قد فازَ بالغفرانِ
لا زِلت ما بينَ الملوك معظَّمًا ومُظفَّرًا بعناية الرحمنِ
فأدم لنا باليمن دولة ملكهِ وبلادهِ يا خالق الاكوانِ
وانصرهُ مولانا على اعدائهِ ابدًا وصنهُ سائدًا بأمانِ
وبمصلحي وزرائهِ اشدُد ازرهُ ما غرَّدت وُرقٌ على الاغصانِ

وهذا ما نشرناهُ في مجلة اللطائف في الصفحة ٢٨٩ من سنتها التاسعة بالحرف الواحد

جلالة الشاه المعظم وجلوسهُ السعيد

كان يوم الاثنين ٨ يونيو (حزيران سنة ١٨٩٦) يوم سرور وبركة حيث جلس ﴿ جلالة مظفر الدين شاه المُعظَّم ﴾ على عرش السلطنة الايرانيَّة الظهر فاجتمع بين يديهِ رجال بلاطهِ واكابر وزرائهِ وامرائهِ وقواد جيشهِ فخطب عليهم الخطبة الآتية

الحمد لله فقد اوصلنا سالمين بعد سفر طويل الشقة شديد المشقة واجلسنا على عرش آبائنا واجدادنا . بحمد اسمهِ نفتتح الاعمال وعليهِ الاتكال في المبدإِ والمآل ولذلك نبدأُ حكمنا بمدح اسمائهِ الحسنى والالتجاء الى مقامهِ الاسنى مفوضين جميع امورنا اليهِ متكلين في قضاء واجباتنا عليهِ معترفين انهُ لم يقدَّر لنا الاستواء على هذَا العرش الاَّ لنحسن القيام والاحكام في تدابير امور ايران ونحمي بيضة الاسلام . والامل بالله العظيم اننا نحفظ رعايانا الذين هم وديعة الله عندنا ونظلهم بظل حكمنا المبني على العدل والمقرون بالامن والسلم ونسعى في ترقية شعبنا في مراقي التقدم والراحة والرفاهة ونحافظ على علائق الحب والوداد بين دولتنا والدول المحبة لنا فعسى ان نجد من ولاء شعبنا وشجاعتنا ما يؤَيد مقاصدنا هذه ويعود عليهِ بالمجد والفخر في مستقبل الايام

هذَا وانا نحن والامة باسرها نشعر ان والدنا المجيد توفي شهيدًا لله وان لهُ منزلةً عالية بين سلاطين الاسلام ولذلك لا نفتأُ عن ذكرهِ بالرحمة في ادعيتنا . وقد قرت عيننا وعظم عزاؤُنا بما رأَيناهُ من مشاركة الامة لنا في عواطفها يوم استشهاد ساكن الجنان والدنا وابتهاجها وسرورها بارتقائنا . وقد اثبت رجالنا ولاءهم وامانتهم لنا بان جعلوا ارواحهم واموالهم تحت مشيئتنا فوجب علينا اذًا ان نكافئهم بنعمنا فنحن من فضل الله نلغي ضرائب الخبز واللحم من كل بلاد ايران منة دائمة منا لبلادنا وقد اصدرنا فرماننا في ذلك

ثم ان صدرنا الاعظم من اعظم رجال ساكن الجنان الشاه السابق واوسعهم اختبارًا فلذلك ابقيناهُ في منصبهِ وفوضنا اليهِ اجراء اوامرنا على ما يسرنا ويكسبهُ زيادة النعم منا

وبعد الظهر بثلاث ساعات ابتدأَ الاحتفال بمقابلة سفراء الدول وقبول

تهانئهم فجاؤوا جميعهم الى قصر الشاه لابسين ملابس التشريفة الكبرى متقلدين وساماتهم العظمى ولما تكامل عددهم اصطفّ بعضهم وراء بعض فمشى سفيرا فرنسا وروسيا في مقدمتهم لكونهما اقدم السفراء عهدًا في ايران ثم تلاهما سفيرا انكلترا والمانيا بالحلل العسكريّة يتبعهما سفير النمسا لابسًا حلة مجريّة من المخمل الازرق والفرو استوقفت الابصار ببهائها وزخرفها . ووراءهُ القائمون باعمال السفارات الفلمنكيّة والبلجيّة والاميركيّة . فلما مثلوا بين يدي جلالة الشاه وجدوهُ واقفًا لاستقبالهم قدام العرش وقد لبس حلة كسرويّة زرقاء وعلى صدرهِ درعًا لا يرى منها غير حجارة الماس وفي غرتهِ ريشة من الماس عزيزة المنال وتقلد سيفًا حمائلهُ مرصعة بحجارة كبيرة من الماس تتألق على صدرهِ وعلى ظهرهِ . ومقبضهُ وغمدهُ مرصعان بالماس الكثير حتّى لا يرى منها غيرهُ . ووقف الصدر الاعظم عن يمينهِ ونصر الملك عن يسارهِ وهو من رجال بلاطهِ الذين تعلموا في مدارس انكلترا الكبرى وكان يترجم بين جلالة الشاه وسفراء الدول بافصح عبارة واطلق لسان . ووقف شعاع السلطنة النجل الثاني لجلالتهِ وراء والدهِ بحلة بهيّة تلوح على وجههِ علائم النجابة والذكاء والنباهة . وقد لوحت الشمس وجه عظمة الشاه من طول السفر ولكن دلائل الصحة والعافية كانت بادية على وجههِ واتفق رأي الذين رأوهُ على انهُ كان في اتم عافية واكمل صحة واحسن لونًا مما كان عليهِ لما اتى طهران في العام الماضي

ثم تقدم سفير فرنسا اقدم السفراء عهدًا وهنأ جلالة الشاه بجلوسهِ على سرير الملك ووصولهِ الى طهران سالمًا ودعا لهُ بالسعادة وطول العمر بالاصالة عن نفسهِ والنيابة عن السفراء وختم كلامهُ بمدح ما فعلهُ الصدر الاعظم في غياب جلالتهِ

فاجابهُ جلالة الشاه بتمام الهيبة والوقار شاكرًا السفراء على تهنئتهم وادعيتهم

ومساعدة وزرائهم لهُ وللصدر الاعظم وقال ان مساعدتهم ومساعي الصدر الاعظم حفظت الامن والسكينة في السلطنة بعد قتل المغفور لهُ والدهِ واثنى على الصدر الاعظم ثناءً جميلاً لحسن خدمتهِ ووعد بان يحذو حذو والدهِ ويوثق العلائق بين ايران والدول المصادقة وطلب من الله ان يزيد البلاد راحة ورفاهة في حكمهِ وكان ذلك ختام الاحتفال

وقد كان ذلك اليوم شديد الحرّ جدًّا في طهران ولكن جرت حفلة الجلوس وحفلة التهنئة على تمام المرام ثم زينت المدينة ثلاث ليالٍ متوالية سرورًا وابتهاجاً . اطال الله عمر جلالتهِ وجعل ملكهُ سعيدًا مخلدًا

وهذا ما نشرناهُ في لطائفنا في الصفحة ٣٧٧ من السنة التاسعة

لطائف ملوكيّة

نزين اللطائف بتقديم فروض الاخلاص لاعتاب جلالة مولاي ❋ مظفر الدين شاه المُعظَّم ❋ لتفضلهِ باصدار امرهِ السامي الى فخامة صدر دولتهِ الاعظم بابلاغ محظوظيّة عظمتهِ من هذا الفقير . وهذه صورة الكتاب الذي تكرَّم بهِ عليَّ سعادة ميرزا محمود خان في هذا الشان

حضرة الفاضل سعادتلو شاهين بك مكاريوس المحترم

جاءَتني رسالة رسميّة من فخامة الصدر الاعظم يأمرني فيها بتبليغكم محظوظيّة وممنونيّة جلالة الشاهنشاه المُعظَّم لسعادتكم على المرثية والتهنئة اللتين نشرتموهما في جريدتكم اللطائف الغرَّاء فانهُ خلَّد الله ملكهُ اطَّلع على ذلك وامر فخامتهُ عنايةً

منهُ وكرماً ان يبلغكم ذلك بصورة رسميَّة وفخامة الصدر الاعظم يبلّغكم ممنونيَّتهُ وشكرهُ ايضاً ودمتم

ميرزا محمود خان

متولج اعمال قنصلاتو جنراليَّة

مصر في ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٦ — دولة ايران العليَّة

بمصر

وهذا ما نشرناهُ في لطائف السنة التاسعة في الصفحة ٤١٧

جلالة شاه ايران المعظم

لقد اعجب جميع الناس بما ابداهُ جلالة مظفر الدين شاه المُعظَّم فانهُ حفظهُ الله ما تولى عرش الملك حتَّى ابتدأ بالاصلاح فألغى ضريبتي الخبز واللحم من مملكتهِ بقرارات شرعيَّة ناسخاً بذلك عادة طال شكوى الاهالي منها ولم يقف عند هذا الحد بل انهُ تنازل من تلقاء نفسهِ عن الراتب الذي كان يتناولهُ المغفور له والدهُ سنويًّا وقدرهُ خمسة ملايين فرنك وخصص لنفسهِ منهُ خمسة وسبعين الف فرنك فقط والباقي امر ان يبقى للمملكة فيرتفع بهِ ضرائب كثيرة عن الاهالي

وكانت العادة في ايران ان لا يعيَّن والٍ ولا حاكم من الحكام الَّا يبذل الاموال الطائلة على سبيل الهدايا فكانوا يبتاعون مناصبهم ابتياعاً ثم يبتزُّون اضعاف اثمانها ممن هم دونهم وهؤلاء ممن دونهم والآخرون من فقراء الرعيَّة فابطل مظفر الدين شاه هذه العادة وابى قبول الهدايا وما هي في الحقيقة الَّا رشوة محرَّمة وامر ان لا تقلَّد المناصب الَّا للاكفاء الامناء في خدمة الدولة والملة . فصار الوالي

اليوم يقبض راتبهُ من الحكومة الايرانيَّة عوضاً عن ان يسلب الاهالي ويأخذ من السلب ما يأخذ ويدفع الباقي خراجاً او اتاوةً الى السلطنة الايرانيَّة

وقد كان سلاطين ايران يجودون باموال الامة انعاماً على زيد وعمرو من مادحيهم او المقربين اليهم ونحو ذلك فيعينون لهم وظائف يقتضون رواتبها هم واولادهم واولاد اولادهم من بعدهم بغير ان يخدموا البلاد خدمة او يجروا اليها منفعةً فابطل جلالة مظفر الدين شاه هذه العادة والغى نحو ثمانية آلاف وظيفة اقتصاداً نخفَّ بذلك وفرٌ يقدَّر بنحو نصف مليون جنيه عن كاهل الاهالي

وقد تولى جلالة الشاه الجديد بنفسهِ نظارة الحربيَّة في بلادهِ وقلد صدرهُ الاعظم نظارة الخارجيَّة واتصل بنا انهُ ارسل الى اذربايجان يطلب خمسين الف فارس منها ليعلمهم فنون الحرب وابواب القتال على النظام الجديد

وقد اجمعت الجرائد الاوربيَّة وغيرها على مديح جلالتهِ حتى صرنا نؤَمل اذا بقيت دولة ايران العليَّة ناهجة هذا المنهج في ظل جلالة مظفر الدين شاه لا تمضي مدة حتى تصير بلاد ايران ملجأً كل متمدن محب للاصلاح وذي همة وجدّ فيهاجر اليها الناس عوضاً عن ان يهاجروا الى اقاصي البلاد المتمدنة . ولا بدع فان حياة الممالك ومماتها بيد ملوكها اذا ملكوها بالعدل والاصلاح عمرت واذا ملكوها بالظلم والعسف خربت